قصص الأنبياء

للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير

المولـود ٧٠١ هـ ١٣٠٢ م

المتوفى ٧٧٤ هـ ١٣٧٣ م

حقق أصوله ووثق نصوصه

وقدم له وعلق هوامشه

الأستاذ/ صفوت جودة أحمد

وكيل العلوم الشرعية بالأزهر الشريف

دار السندس للتراث الإسلامي

Elsandos For Islamic Heritage

ش السيد الدواخلى - أمام جامعة الأزهر بالحسين - القاهرة

■ اسم الكتـــاب: قصص الأنبياء
■ تــألــيــف: الإمام ابن كثير
■ تحــقــيق: الأستاذ/ صفوت جودة أحمد
■ الـنـاشـــر: دار السندس - للتراث الإسلامى
■ تليــفــون: ٢٧٨٧٣٤٧٦ - ٢٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢٣٧٠٧٠٢٦ - ٠١٢٢٥٩٢٤٦٧
■ سنة النشــر: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
■ عدد الصفحات: ٤٨٨ صفحة
■ رقم الإيــداع: / ٢٠١٠
تصميم الكتاب: م/ مصطفى أبو غنيمة

طبعة جديدة محققة ومنقحة

أصح الطبعات وأكثرها شمولا

الطبعـة الأولـى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع
٢٠١٠/٢٣٦٢

دار السندس للتراث الإسلامي
Elsondos For Islamic Heritage

شارع السيد الدواخلى أمام باب جامعة الأزهر - بالحسين - القاهرة
تليفون: 29 75 89 25 تليفاكس: 76 34 87 27 جوال: 67 24 259 012 - 26 70 370 012
E-mail: dar-elsondos@yahoo.com

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قصص الأنبياء للإمام ابن كثير جزء من كتابه الكبير «البداية والنهاية» الذى طبع أكثر من مرة في القاهرة.

ولقد وفق الدكتور مصطفى عبد الواحد في فكرته حين فصل هذا الجزء عن أصله، ونشره في كتاب مستقل لأن ابن كثير يعتبر أفضل من كتب في هذا الموضوع للأسباب التالية:-

١- ابن كثير أستاذ عالم موسوعى في التاريخ والسنة. خبير بالأسانيد والمتون وعللها وبالرجال فى كل مستوياتهم في الدراية والرواية.. وهو من مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، وصهر الحافظ المزى، وموضع ثقة العلماء الباحثين إلى يومنا هذا.

٢- أنه باحث لا يعنى بسرد النصوص كحاطب الليل، وإنما تنبه إلى مصدر القوة والضعف في الرواية، ويقارنها بغيرها، ويعنى باستنباط النتائج من مقدماتها عناية فائقة.

٣- خبير بأقوال أهل الكتاب، فهو يسرد ما فى كتبهم من القصص، ثم يعلق عليه بالنقد، ويتتبع ما فى الرواية الإسلامية من آثار أهل الكتاب وينبه عليه، ويوجه إلى الوجهة الصحيحة والرأى السديد.

٤- يجمع النصوص القرآنية في القصة الواحدة من مصادرها المختلفة فى القرآن، ثم يبدأ دراسته للقصة على هذا الأساس.

ولقد عهدنا إلى الأستاذ/ صفوت جودة أحمد بإعادة تحقيق هذا الكتاب وتنقيحه فقام بتخريج الآيات والسنن وتوضيح بعض النقاط التى تحتاج إلى توضيح.

والله نرجو أن يهيىء للأمة الإسلامية من أمرها رشدا.. أنه قريب سميع مجيب الدعاء.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دار السنن للتراث الإسلامي

جعلها الله منارا لخدمة العلم والدين

قصص الأنبياء

للإمام ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الشمراء: ٨٠).

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، والحمد لله الذى بعث رسلا لهداية الخلق وتعريفهم بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد فإذا عرفوه وحدوه وعبدوه وتركوا ما دونه من أنداد.

سبحانه أنزل كتبا على هؤلاء المرسلين فيها نور وهدى لمن اتبع الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

وكان سيد الخلق بما فيهم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم أرسله الله خاتما للأنبياء والمرسلين بدين قويم به لمن اتبعه كل الأمان صالحا لكل زمان ومكان.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (التوبة: ٣٣).

وأصلى وأسلم على البدر المنير صاحب الصراط المستقيم الداعى إلى دين رب العالمين الواضح المبين دين الفطرة والحق المبين.

اللهم صل وسلم وبارك عليك سيدى يا رسول الله وعلى أنبياء الله كافة ورسله عامة وآل كل الطيبين الطاهرين وعلى صحابتهم ومن تبع ملتهم وآمن بهم وسار على نهجهم، وعلى العلماء العاملين وعلى كل من أخلص وشارك ولو قليلا فى إصدار هذا الكتاب الجليل من ناشر وطابع ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

أما بعــد:

فقد طلب منا أصحاب دار السندس للتراث الإسلامى -جعلها الله منارا لخدمة العلم والدين- بمصر المحروسة حفظها الله وسائر بلاد المسلمين؛ طلبوا منى إخراج هذا الكتاب المنير:

(قصص الأنبياء) (1)

للإمام الكبير:

إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع

أبى الفداء عماد الدين بن كثير

فرحبت فرحا إذ كانت أول مرة ينشر لى مجموعة من الكتب في هذه البلدة الحبيبة العظيمة.

وقد بذلنا وسعنا نحن والناشر والطابع حتى يظهر الكتاب فى أحسن صورة؛ جودة فى التحقيق وإتقانا في الخامات وجمالا في الإخراج.

فإن كنا وفقنا فبفضل الله ورحمة منه وإن كانت الأخرى لا قدر الله فبضعفنا البشرى ونسياننا الآدمى غير متعمدين.

وفى الختام لم يبق لنا إلا أن ندعو الله مخلصين له الدين:

اللهم اجعلنا من الذين يقولون فيفعلون؛ ويفعلون فيخلصون؛ ويخلصون فيقبلون.

وصلى الله وسلم وبارك على أنبياء الله ورسله أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه الخائف وعيد ربه
الراجى منه الوعد
صفوت جودة أحمد
وكيل العلوم الشرعية الأزهر الشريف

(1) من المعلوم أن قصص الأنبياء هذه جزء من كتاب المؤلف: البدايه والنهاية.

الأنبيـــــاء

بما أن كتابنا هذا يتكلم عن الأنبياء فلا بد لنا أن نذكر عنهم خبرا.

والأنبياء أحد أقسام علم التوحيد هو النبوات، ويشمل ما يتعلق بالأنبياء، وما يتعلق بالكتب السماوية.

وينطوي تحت الأنبياء معرفة الفرق بين النبى والرسول، وعدد الرسل، والحكمة فى إرسالهم، والإيمان بهم:

النبى والرسول، والفرق بينهما:

الرسول: إنسان، حر، ذكر، أوحى إليه بشرع من الله وأمر بتبليغه.

والنبي: إنسان، حر، ذكر، أوحى إليه بشرع من الله سواء أمر بتبليغه أو لا، فإن أُمِرَ بتبليغه فهو رسول ونبي، وإن لم يؤمر فهو نبى فقط، وليس برسول.

عدد الرسل الذين يجب الإيمان بهم إجمالا وتفصيلا: أما عددهم إجمالا فمفوض لله، ويجب أن نؤمن أن عددهم كثير ولا يمكن حصره ولا تحديده، والدليل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ **مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ **(غافر: ٧٨).**

وأيضًا فإنه لم يرد نص من الشارع بحصرهم في عدد معين، فلو حصرناهم في عدد معين مع عدم ورود النص لترتب على ذلك احتمال عدّ من ليس منهم في الواقع، وترك من هو منهم في الواقع.

وأما عدد الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلا فخمسة وعشرون، وهم المذكورون في القرآن الكريم، وهؤلاء عبارة عن الثمانية عشر المذكورين في قوله تعالى: في أربع آيات متتالية من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى:

﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ **(الأنعام: ٨٣-٨٦).**

والسبعة الآخرون هم آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين. وفى جمعهم يقول الشاعر:

حكم على كل ذى التكليف معـــرفـــة

بأنبيـــاء على التـفـصيل قـد علمـوا

في «تلك حجتنا» منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود، شعيب صالح، وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار قد خُتموا

وهؤلاء الخمسة وعشرون متفق عليهم، وثلاثة مختلف فيهم وهم: لقمان، وذو القرنين، وعزير. وقد نظمهم أحد العلماء فقال:

خذ عدّ ما قد جاء في القرآن
من النبيين على البيان

فإنهم عشرون مع ثمانية
فهاكها منظومة علانيه

هم آدمٌ ونوح والخليل
إدريس إسحاق وإسماعيل

وصالح ويونس يعقوب
ويوسف وذو البلا أيوب

لقمان ذو القرنين لوط هود
إلياس يحيى وكذا داود

وزكريا وسليمان ومع
عُزَيْر ذي الكفل شعيب واليسع

موسى وعيسى وكذا هارون
خاتمهم نبينا الأمين

وفى «الفرائد في علم العقائد» وهى منظومة للشيخ معروف النودهى عن العقائد النسفية يفرد الناظم فريدة بعنوان «فريدة فى أول الأنبياء وآخرهم وعددهم وعدد الرسل عليهم الصلاة والسلام» يقول فيها:

نبينا للأنبياء أوّل
وخاتم للعالمين مرسل

وأفضل الخلق على الإطلاق
تمّت به مكارم الأخلاقِ

وآدم أوّل في الظهورِ
عددهُم قد جاء في المأثورِ

فى سنّة صحيحة مرتفعه
مائة ألفٍ وألوفٌ أربعه

يتبعها عشرون ألفًا والخبر
بعدّة الرسلِ صَحَّ واشتهر

بأنها في خمسةٍ وعشره
مع ثلاثمائة مُنْحصِره

وإنما خالفتُ فيما ذُكِرا
لما عليه النَّسَفيُّ قد جرى
لأنه صحَّ الحديثُ بعددْ
كُلٌ فواجبٌ إذا أن يُعْتَقَدْ

أولو العزم من الرسل:

وأولو العزم من هؤلاء الرسل خمسة فقط، وهم: محمد، إبراهيم، نوح، عيسى، وموسى، وهؤلاء الخمسة هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾ **(الأحزاب: ٧)**.

وإنما سُمُّوا بأولى العزم دون غيرهم من الرسل لصبرهم وتحملهم المشاق أثناء تأديتهم لرسالتهم، أكثر من غيرهم من الرسل الآخرين.

حكم الإيمان بالرسل والإنكار لهم أو لبعضهم، ودليله:

يجب الإيمان بالخمسة والعشرين المذكورين في القرآن تفصيلا، وبأن الله أرسل رسلا غيرهم كثيرين، مفوض تحديد عددهم لله سبحانه ومنكر أحد الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن، وكذلك المنكر بأن الله أرسل رسلا غيرهم كافر، لقوله سبحانه ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ **(البقرة: ٢٨٥)**.

وقول الرسول ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله ورسله... إلخ**» متفق عليه.

الحكمة في إرسال الرسل:

أرسل الله الرسل تفضلا منه ورحمة إلى الناس لهدايتهم بما يبلغونه إليهم من الشرائع التى أوحى الله إليهم بها، وإرشادهم وتوجيههم إلى ما فيه الخير والسعادة لهم في الدنيا والآخرة.

ويجيب الإمام السيوطى عن سؤال وُجِّهَ إليه عن عدد الأنبياء والرسل بقوله: روى الطبرانى فى الأوسط عن أبى أمامه الباهلى «أن رجلا قال: يا رسول الله أنَبيٌّ كان آدم؟ قال نعم. قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون. قال: كم بين نوح وإبراهيم؟ قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: ثلثمائة وخمسة عشر».
وأخرج ابن حبان في صحيحه، والحاكم عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألفا، قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير».



ترجمة المؤلف
الإمام ابن كثير

اسمه:

هو الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير بن ضَوء بن درع أو زرع القرشى ولتسميته إسماعيل قصة.

فأخوه الأكبر لأبيه اسمه إسماعيل وسبب التسمية يحكيه ابن كثير فيقول: «سُميت باسم الأخ إسماعيل؛ لأنه كان قد قدم دمشق، فاشتغل فيها بعد أن حفظ القرآن على والده، وحصل العلم، ثم سقط من سطح الشامية البرانية، فمكث أياما ومات، فوجد الوالد عليه وجدا كثيرا، فلما وُلدت له أنا بعد ذلك سمانى باسمه، فأكبر أولاده إسماعيل، وآخرهم وأصغرهم إسماعيل».

مولده:

قيل إنه ولد سنة (٧٠١هـ) وقال ابن حجر: «ولد سنة (٧٠٠هـ) أو بعدها بيسير. وقد حدد ابن كثير وفاة والده سنة (٧٠٣هـ) وعقب على ذلك فقال: «وكنت إذ ذاك ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم».

ومعناه أن ولادته كانت في أواخر سنة (٧٠٠هـ) أو أوائل سنة (٧٠١هـ) الموافقة لسنة (١٣٠٢م).

نشأته:

ولد في قرية (مجيدل) قرية أمه، وقد عاشت فيها الأسرة مدة طويلة حتى تُوفى عائلها ابن كثير (الأب). و (مجيدل) قرية بشرقى بصرى.

وكان والده يشتغل بالخطابة، وكان شافعى المذهب.

أما أمه، فلا يعرف عنها إلا أنها من (مجيدل) وأنها الزوجة الثانية لأبيه، فقد تزوج قبلها امرأة أنجب منها إسماعيل، وهو أكبرهم، ثم يونس، ثم إدريس.

وكان لابن كثير إخوة وأخوات من أمه، هم: عبد الوهاب، والعزيز، ومحمد، وغيرهم.

بعد وفاة أبيه، انتقلت الأسرة فى سنة (٧٠٧هـ) إلى دمشق، وكان ابن كثير فى السابعة من عمره. وتكفل بشؤون الأسرة ورعايتها: الأخ الأكبر عبد الوهاب، وقد نشأ ابن كثير في دمشق، واستمع أول ما استمع إلى أخيه عبد الوهاب وبه تفقه فى

مبدأ أمره، وتلقى المبادئ الأولى فى الإسلام، وحفظ جزءا كبيرا من القرآن الكريم والسنة النبوية على يديه.

حبه للعلم:

نشأ ابن كثير شغوفا بالعلم منذ صغره، فشب محبًّا للقرآن وتفسيره، والحديث وحفظه ومعرفة سنده ومتنه، والتاريخ وروايته، والفقه وأحكامه، والسيرة وأحداثها، والنحو، وغير ذلك من العلوم وقد أتم حفظ القرآن في حوالي الحادية عشرة عند شيخه ابن غيلان وحفظ (التنبيه) وعرضه وسنه لم يتجاوز الثامنة عشرة كذلك (مختصر ابن الحاجب).

شيوخه:

بعد أن تتلمذ على أخيه كمال الدين عبد الوهاب المتوفى سنة (٧٥٠هـ) تتلمذ على كثير من رجال العلم المشهورين فى عصره وتلقى على أيديهم علومًا شتى، ومن هؤلاء الأساتذة.

١- ابن تيمية:

هو شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى الحنبلى ولد سنة (٦٦١هـ) وتوفى سنة (٧٢٨هـ) وكان زميلا وشيخا للشيخ ابن قيم الجوزية.

وقد أعجب به ابن كثير إعجابا كبيرا، وأخذ ينهل من بحر علمه، ويغترف من تجديده وعبقريته، فأخذ فى أول أمره يفتى برأيه في مسألة الطلاق، وقد أوذى واضطهد بسبب ذلك وعذب كما عذب شيخه ابن تيمية وزميله ابن القيم ولذلك ترى اسم ابن تيمية يتردد كثيرا فى تفسير ابن كثير، فيذكر له رأيا فى إسناد حديث أو متنه، أو شرح آية قرآنية.

أما بعد ذلك فقد كانت له آراؤه الخاصة، ومنهجه ومذهبه القائم على التجديد والاجتهاد.

٢- أبو الحجاج المزى:

هو يوسف بن زكى الدين عبد الرحمن بن يوسف المزى الدمشقى الشافعى ولد سنة (٦٥٤هـ) بحلب. وقد لازمه ابن كثير، وقرأ عليه (تهذيب الكمال) وتوثقت صلة ابن كثير بأستاذه المزى حينما تزوج ابنته زينب.

٣- الذهبى:

هو الحافظ المؤرخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى.

أخذ ابن كثير من شيخه الذهبى، وأفاد منه فى التفسير، وتأثر به فى الحديث والتاريخ وغيرها من العلوم وبالذات كتاب الذهبى (تاريخ الإسلام).

٤- ابن الشحنة:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد توفى سنة (٧٣٠هـ) . يقول عنه ابن كثير: كان شيخا حسنا بهى المنظر، سليم الصدر، متمتعا بحواسه وقواه، فقد عاش مائة سنة محققا سمع ابن كثير من ابن الشحنة البخاري على الزبيدى .

واستفاد ابن كثير من شيخه الحديث وروايته، وعلله وجرحه .

٥- الفزارى:

الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الفزارى الدمشقى ولد فى سنة (٦٦٠هـ) وتوفى سنة (٧٢٩هـ) .

سمع عليه ابن كثير صحيح مسلم، ويقول عنه ابن كثير: (لم أر شافعيا من مشايخنا مثله) فقد كان ابن كثير شافعى المذهب .

٦- ابن قاضى شهبة:

شيخ الإسلام كمال الدين عبد الوهاب الشافعى الدمشقى ولد فى سنة (٦٥٢هـ) وتوفى سنة (٧٢٦هـ) .

٧- ابن الزملكانى:

شيخ الإسلام كمال الدين أبو المعالى محمد بن على الأنصارى ولد سنة (٦٦٦هـ) وتوفى سنة (٧٢٧هـ) كان شيخ الشافعية بالشام وغيرها وقد أفاد منه ابن كثير في التاريخ والحديث .

٨- محيى الدين الشيبانى:

محيى الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل الشيبانى الشافعى توفى سنة (٧٢٤هـ) كان قاضيا وفقيها ومحدثا .

٩- البرزالى:

علم الدين محمد القاسم بن محمد البرزالى، مؤرخ الشام الشافعى، وصاحب التاريخ المشهور باسمه وقد أثر البرزالى فى ابن كثير تأثيرا كبيرا وبخاصة في التاريخ .

١٠- الأصبهاني:

شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهانى (٦٧٤هـ-٧٤٩هـ) كان بارعا في العقليات، صحيح الاعتقاد له تفسير كبير وقد أفاد منه ابن كثير في الأصول .

١١- الآمدى:

عفيف الدين إسحاق بن يحيى بن إسحاق الآمدى أبو محمد شيخ دار الحديث بالظاهرية (٦٤٠هـ - ٧٢٥هـ).

كان طيب الأخلاق، فقيها بارعا، يحبَ الرواية.

١٢- ابن عساكر:

بهاء الدين القاسم بن مظفر بن عساكر (٦٢٩هـ -٧٢٣هـ) كان حسن البشرة، حلو المحاضرة.

١٣- عيسى بن المطعم:

عيسى بن عبد الرحمن بن معالى بن أحمد المسند، شرف الدين أبو محمد السمسار (٦٢٥ أو ٦٢٦هـ - ٧١٩هـ) وهو أستاذ ابن قيم الجوزية أيضًا.

كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه سمع معظم الصحيح واشتهر ذكره فقد كان بارعا في حفظ الرواية ونقلها وكان متواضعًا حسن الخلق.

زواجه وأولاده:

تزوج ابن كثير، زينب، ابنة شيخه المزى كما قلنا وكانت صالحة كأبيها وزوجها تحفظ القرآن الكريم، وتذكر ما يُتْلى فى بيت أبيها وبيت زوجها من آيات الله والحكمة.

وقد أنجب منها ولدا أسماه (محمدا) (٧٥٩هـ) ويعرف أيضًا بابن كثير، وكان محدثا حافظا مؤرخا، وكان زميلا لابن حجر العسقلانى. إلا أن شهرة أبيه طغت عليه.

ولابن كثير ولد آخر اسمه (أحمد) ولد سنة (٧٦٥هـ).

صفاته وأخلاقه:

كان ابن كثير عادلا ورعا.

ويتجلى ذلك فى مواقفه، فقد كان يحب شيخه ابن تيمية حبا جما وخاصة في شبابه، وقد حدث خلاف بين شيخه والقاضى تقى الدين السبكى، فلم يكن يعين عليه، ولا يشعل نار الفتنة بينهما، بل لا ينتصر على خصم شيخه.

وكان الخلاف متصلا بين شيخه ابن تيمية وحميه المزى، ومع ذلك كان لا يقول إلا الحق الخالص، ولا يدخل فى مهاترات قد تحدث أحيانا بين بعض العلماء. ولله فى خلقه شئون.

وليس معنى ذلك أنه كان يقف متفرجا على النزاع، بل كان يتدخل لفض المنازعات بين العلماء.

وكان جريئا فى الحق مُحبا له. فان إذا سُئل عن مسألة، يقول الحق ولو كان مرا. بل قد يدفعه حبه للحق إلى الاعتراف بعدم فهم بعض النقول. أو قد يضع الشىء فى غير موضعه فيعترف بذلك.

وكان نزيها، كثير التعفف، فهو قد نشأ فى أسرة داعية إلى الله.

وكان شديد النفور من الخرافات، وما لا يقبله العقل كالبدع والإسرائيليات والغرائب، وكان ذا عقل حصيف، وفكر ناضج يميز بين الغث والسمين، والصحيح والسقيم، فلا يروج ما يروج على ضعفاء العقول.

كان إذا أحب أحب لله، وإذا كره كره لله، وكان لا يكره أحدا إلا من خالف الشرع، وابتدع المنكر.

تلامذته:

تلاميذ ابن كثير كثيرون.

منهم: ابن حجى علاء الدين بن عيسى الشافعى وقد وصف أستاذه ابن كثير بأنه:

«أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان زملاؤه فضلا عن شيوخه يعترفون له بذلك».

ومنهم محمد بن خضر القرشي المتوفى سنة (٨٠٨هـ).

وممن تلقى على يديه العلم: شرف الدين مسعود بن عمر الأنطاكى النحوى، المتوفى سنة (٨١٥هـ).

وابن الجزرى محمد بن محمد أبو الخير الدمشقى، الذى انتهى إليه رئاسة علم القراءات.

وعبد الله بن عبد القادر الشافعى، المتوفى سنة (٨٣٢هـ).

ومن المعروف أن ابنه محمد بن كثير كان من تلامذته، وقد تمكن من علم الحديث، وصار يدرس فيه بعد وفاة أبيه فى مشيخة أم صالح.

مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة، منها ما هو مفقود وما هو مخطوط، ومما يدعو للأسف أنه لم تعرف كتبه فى الفقه كالكتاب الذى يذكره كثيرا ويحيل عليه فى تفسير القرآن العظيم له، وما وصل إلينا من كتبه فهو أقل القليل.

١- تفسير القرآن العظيم (من تحقيقى) .

٢- فضائل القرآن .

٣- أحاديث الأصول .

٤- شرح البخارى ووصل فيه إلى باب العلم ولكنه لم يصل إلينا . (يذكره في تفسيره كثيرا) .

٥- التكميل فى الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل وهذا الكتاب يعتبر مقدمة لكتاب (جامع المسانيد) .

٦- جامع المسانيد والسنن الهادى لأقوم سنن (ولا يزال مخطوطا) فيما أعرف .

٧- مسند عمر بن الخطاب وهما مسندان حيث ذكر مسنده مع الخلفاء الأربعة ثم أورد مسنداً آخر له مرتباً على أبواب الفقه (لا يزال مخطوطا) .

٨- مسند عبد الله بن عمر (مخطوط) .

٩- مسند عبد الله بن مسعود (مخطوط) .

١٠- مسند أبى هريرة (مخطوط) .

١١- اختصار علوم الحديث .

١٢- البداية والنهاية فى التاريخ .

١٣- الكواكب الدرارى .

١٤- السيرة المطولة .

١٥- السيرة الموجزة .

١٦- شمائل الرسول وهو جزء من البداية والنهاية (انظره من تحقيقنا) .

١٧- طبقات الشافعية .

١٨- الاجتهاد في طلب الجهاد .

١٩- رسالة فى الجهاد .

١٠- أحاديث التوحيد وأثره على الشرك .

٢١- صفة النار .

وغير ذلك كثير كثير .

آراء العلماء فى ابن كثير:

لابن كثير مكانة عظيمة بين علماء التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك وقد أثنى عليه كثير من شيوخه وزملائه وتلاميذه.

فقد قال عنه شيخه الذهبي:

(فهو فقيه متقن محدث محقق ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة).

وقال ابن تغرى بردى:

(لازم الاشتغال ودأب وحصل وكتب وبرع فى الفقه والتفسير والعربية وغير ذلك وأفتى ودرس إلى أن توفى).

وقال ابن حجر العسقلانى صاحب فتح البارى:

(كان كثير الاستحضار حسن المفاكهة، سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته وانتفع الناس بها بعد وفاته).

وقال العينى:

(كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة مفيدة).

وقال الدراوردى:

(أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع فى ذلك وهو شاب).

شعره:

لم يكن ابن كثير متحمسا للإكثار من الشعر، أو تناول أغراضه المألوفة كالمديح والهجاء والغزل، بل كان لا يحب أن يدلى بدلوه فيه.

فمن شعره فى الحديث عن اقتراب الموت، وتولى الشباب قال:

تمرُّ بنا الأيامُ تَتْرَى وإنما نُساق إلى الآجال والعينُ تنظرُ

فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذى مضى ولا زائلٌ هذا المشيبُ المكدَّرُ

وفاته:

تُوفى رحمه الله فى يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة (٧٧٤هـ) الموافق سنة (١٣٧٣م) .

ودفن فى الجهة الغربية ظاهر دمشق، بمقبرة الصوفية، عند شيخه ابن تيمية، حسب وصيته . وكانت له جنازة حافلة مشهورة .

وقد رثاه بعض طلبته فقال :

لفقدك طلابُ العلوم تأسَّفوا وجاءوا بدمعٍ لا يبيدُ غزيرِ

ولو مزجوا ماءَ المدامع بالدِّما لكان قليلاً فيكَ يابنَ كثيرِ

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن المسلمين بعده عامة، وعشاق كتبه خاصة خير الجزاء، وجعل علمه من العلم الذى يُنتفع به فيكتب له ثوابه بعد وفاته – آمين .

وكتبه الخائف وعيد ربه
الراجى منه الوعد
صفوت جودة أحمد
وكيل العلوم الشرعية الأزهر الشريف



باب ما ورد في خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى:

﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠ - ٣٩).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: الآية الأولى).

كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ *

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف: ١١-٢٥).

كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ٥٥).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (الحجر: ٢٦-٤٤).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (الإسراء: ٦١-٦٥).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (الكهف: ٥٠).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا

تضحىٰ * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدىٰ * قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقىٰ * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمىٰ * قال رب لم حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ ﴾ (طه: ١١٥-١٢٦).

وقال تعالى: ﴿ قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون * ما كان لي من علم بالملأ الأعلىٰ إذ يختصمون * إن يوحىٰ إلي إلا أنما أنا نذير مبين * إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلىٰ يوم الدين * قال رب فأنظرني إلىٰ يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلىٰ يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين * قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (ص: ٦٨-٨٨).

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن، وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير، ولنذكر هنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ، والله المستعان[1].

فأخبر تعالى أن خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (البقرة: ٣٠) أعلمُ بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وقال: ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾[2]، فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته، كما يُخبر بالأمر العظيم قبل كونه، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقُّص[3] لبني آدم والحسد لهم، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين، قالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ (البقرة: ٣٠).

قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن، قاله قتادة.

---

(١) هكذا في بعض النسخ. (٢) زيادة من إحدى النسخ. (٣) في إحدى النسخ والنقص.

وقال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة[1] فطردوهم إلى جزائر البحور. وعن ابن عباس نحوهُ. وعن الحسن ألهموا ذلك.

وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ، فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له السِّجلٌ. رواه ابن أبي حاتم عن أبى جعفر الباقر.

وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يُخْلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبًا.

﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ أى نعبدك دائمًا لا يعصيك منا أحد، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفترُ ليلاً ولا نهاراً.

﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أى سيوجد منهم الأنبياء، والمرسلون والصدِّيقون والشهداء (والصالحون)[2].

ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم فقال: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ **(البقرة: ٣١)**. قال ابن عباس: هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان، دابة، وأرض، وسَهْل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وقال مجاهد: علمه اسم الصحفة، والقدر، حتى الفَسْوة والفُسيَّة.

وقال مجاهد: علَّمه اسم كل دابة، وكل طير وكل شيء. وكذا قال سعيد بن جُبَيْر وقتادة وغير واحد.

وقال الربيع: علَّمه أسماء الملائكة. وقال عبد الرحمن بن زيد: علَّمه أسماء ذريته.

والصحيح: أنه علمه أسماء الذَّوات وأفعالها مُكبَّرها ومصغَّرها، كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما.

وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة، عن أنس ابن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا -حتى يريحنا من مكاننا هذا - فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء**»[3] وذكر تمام الحديث.

---

(١) تقديم وتأخير عن المخطوطة. (٢) سقطت من بعض النسخ.

(٣) تمام الحديث: «... اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناك - ويذكر لهم خطيئته التى أصاب - ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحًا فيقول: لست هناك - ويذكر خطيئته التى أصاب - ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناك - ويذكر لهم خطاياه التى أصابها - ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلمه تكليمًا. فيأتون موسى=

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . قال الحسن البصري : لما أراد الله خلق آدم، قالت الملائكة : لا يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أعلم منه، فابتُلوا بهذا وذلك قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك، كما قال : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ **(البقرة: ٢٥٥).**

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل: إن المراد بقوله : ﴿ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ ما قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها، وبقوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ المراد بهذا الكلام إبليس حين أسرَّ الكِبْر والتخيرة[1] على آدم عليه السلام. قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسُّدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير.

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قولهم : لن يخلق ربنا خَلقًا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ **(البقرة: ٣٣)** هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، كما قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ **(الحجر: ٢٩)** فهذه أربع تشريفات : خلقه له بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء.

= فيقول: لست هناك - ويذكر لهم خطيئته التى أصابها - ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول: لست هناك. ولكن ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوننى. فانطلق، فاستأذن على ربى فيؤذن لى عليه، فإذا رأيت ربى وقعت له ساجدًا، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقال لى: ارفع يا محمد، قل يسمع، وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها، ثم يحد لى حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود، فقال النبى ﷺ يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه ما يزن من الخير ذرة» راجع الأحاديث رقم ٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٥١٦ فى فتح البارى ط الكليات الأزهرية، ودار الغد العربى، وعالم الكتب/ بيروت - تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد.

(١) أى المنافسة لآدم عليه السلام وقوله «أنا خير منه».

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملإ الأعلى وتناظرا كما سيأتي: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجدَ لك ملائكته، وعلمك أسماءَ كل شيء. وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال في الآية الأخرى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ **(الأعراف: ١١، ١٢).**

وقال الحسن البصري: قاس إبليسُ، وهو أول من قاسَ، وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير.

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له، كما قال: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ **(الحجر: ٢٨-٣٥)** استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقُّصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي، ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين.

وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئًا، وكان اعتذاره أشد من ذنبه.

كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ **(الإسراء: ٦١-٦٥).**

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ **(الكهف: ٥٠).**

أى خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها، فإنه مخلوق من نار كما قال، وكما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم**»[1].

قال الحسن البصرى: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط. وقال شهر بن حَوْشَب: كان من الجن، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه.

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا. قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل، وفي رواية عنه: الحارث. قال النقاش: وكنيته أبو كردوس. قال ابن عباس: وكان من حيٍ من الملائكة يقال لهم الجن، وكانوا خُزَّان الجنان، وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علماً وعبادة، وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ **(ص: ٧١-٨٥).**

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ **(الأعراف: ١٦-١٧).**

أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مَرْصد، ولآتينهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل – هو عبد الله

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه وراجع فهارسه وضع الدكتور/ قلعجى ط – دار الغد العربى.

ابن عقيل الثقفي – حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه**»[(١)] وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس.

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم.

أَهُمْ جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات؟ وهو قول الجمهور.

أو المراد بهم ملائكة الأرض كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس وفيه انقطاع وفي السياق نكارة، وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه.

ولكن الأظهر من السياقات الأول، ويدل عليه الحديث: «وأسجد له ملائكته» وهذا عموم أيضاً. والله أعلم.

وقوله تعالى لإبليس: ﴿ **اهْبِطْ مِنْهَا** ﴾ و ﴿ **اخْرُجْ مِنْهَا** ﴾ دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها، والخروج من المنزلة والمكان التي كان قد نالها بعبادته، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة، ثم سُلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه. فأهبط إلى الأرض مذءوماً مدحوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجه الجنة فقال: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الأعراف: ١٨-١٩).

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾ (طه: ١١٦-١١٩).

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة لقوله: ﴿ **يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ وهذا قد صرح به إسحاق بن يسار[(٢)] وهو ظاهر هذه الآيات.

ولكن حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عباس عن مُرَّة عن

---

(١) رواه النسائي ٦/٢١، ٢٢ وأحمد في مسنده ٣/٤٨٣.

(٢) وهو الصحيح وقد أوردته بعض النسخ باسم بشار وراجع مقدمة السيرة النبوية لابن هشام من تحقيقنا.

ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحشيًّا ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولِمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إليَّ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولِمَ كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي.

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحم.

ومصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾ الآية. وفى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ** ﴾ الآية وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفى الصحيحين من حديث زائدة، عن مَيسرة الأشجعى، عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرْته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً**»[1].

هذا لفظ البخارى.

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ **(البقرة: ٣٥)**، فقيل هى الكرْم، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جُبير والشعبى وجعدة بن هبيرة، ومحمد ابن قيس والسدى فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة، قال: وتزعم اليهود أنها الحنطة، وهذا مروى عن ابن عباس والحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى، وأبى مالك ومحارب بن دثار، وعبد الرحمن بن أبى ليلى.

وقال الثورى عن أبى حصين، عن أبى مالك: ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ هى النخلة. وقال ابن جُريج عن مجاهد: هى التينة، وبه قال قتادة وابن جريج. وقال أبو العالية: كانت شجرةً من أكل منها أحدث ولا ينبغى فى الجنة حدث.

وهذا الخلاف قريب، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما فى غيرها من المحال التى تُبهم فى القرآن.

وإنما الخلاف الذى ذكروه فى أن هذه الجنة التى أدخلها آدم، هل هى فى السماء أو فى الأرض، هو الخلاف الذى ينبغى فَصْله والخروج منه.

---

(١) رواه البخارى ح ٥١٨٤ – ٥١٨٦ فتح البارى ط الكليات الأزهرية.

والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعًا من جنة المأوى، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ . .» الحديث كما سيأتي الكلام عليه.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي - واسمه سعد بن طارق - عن أبي حازم سلمة بن دينار، عن أبي هريرة، وأبو مالك عن ربْعي، عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تُزلف لهم الجنة. فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة. فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟**»(1) وذكر الحديث بطوله.

وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد، لأنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها وأُخرج منها. ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى.

وهذا القول محكيّ عن أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة، واختاره ابن قتيبة في المعارف، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفًا على حدة، وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله. ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلْخي وأبي مسلم الأصبهاني ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية.

وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في المِلَل والنِّحَل، وأبو محمد بن عطية في تفسيره وأبو عيسى الرّماني في تفسيره، وحكى عن الجمهور الأول، وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال: واختلف في الجنة التي أُسكناها يعني آدم وحواء على قولين: أحدهما أنها جنة الخلد. الثاني أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء.

(1) رواه مسلم في صحيحه ١/٨٤/١٩٥ راجع فهارسه وضع دكتور عبد المعطي قلعجي ط/ دار الغد العربي.

ومن قال بهذا اختلفوا على قولين: أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها، وهذا قول الحسن، والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نُهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهذا قول ابن يحيى. وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم، والله أعلم بالصواب من ذلك.

هذا كلامه. فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة، وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة. ولهذا حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال: هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي، ورابعها، الوقف وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى، عن أبي علي الجُبَّائي.

وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب، فقالوا: لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية، وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته، وإنما هو أمر قدري لا يخالَف ولا يمانع، ولهذا قال: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الأعراف: ١٨). وقال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ (الأعراف:١٣). وقال: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (الحجر: ٣٤) والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة. وأيًّا ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز.

قالوا: ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (طه: ١٢٠).

وبقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف: ٢٠-٢٢).

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما.

وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء.

وفي الثلاثة نظر، والله أعلم.

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة: ما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زيادات المسند عن هدْبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري، عن يحيى بن ضَمرة السعدي، عن أبيّ بن كعب، قال: إن آدم لما احتُضر اشتهى قطفًا من عنب الجنة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟

فقالوا إن أبانا اشتهى قطفًا من عنب الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد كُفيتموه. فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنَّطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه الملائكة ودفنوه، وقالوا: هذه سنتكم في موتاكُم.

وسيأتي الحديث بسنده، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام.

قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم الذي اشتهى منها القطف ممكنًا، لما ذهبوا يطلبون ذلك، فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم.

قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله: ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مُسلَّم، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام، فإن آدم خُلق من الأرض ولم يُقل أنه رُفع إلى السماء، وخلق ليكون في الأرض، وبهذا أعلم الربُّ الملائكة حيث قال: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ **(البقرة: ٣٠).**

قالوا: وهذا قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** ﴾ **(القلم: ١٧).**

فالألف واللام ليسا للعموم، ولم يتقدم معهود لفظي، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان.

قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء.

قال الله تعالى: ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ** ﴾ **(هود: ٤٨).**

كان في السفينة[١] حين استقرت على الجوديّ ونضب الماء عن وجه الأرض وأمر[٢] أن يهبط إليها هو ومن معه مباركًا عليه وعليهم.

وقال الله تعالى: ﴿ **اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ** ﴾ **(البقرة: ٦١).**

وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ **(البقرة: ٧٤).**

وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير.

قالوا: ولا مانع – بل هو الواقع – أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن[٣] سائر بقاع الأرض، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونَضرة وسرور، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ** ﴾ **(طه: ١١٨).** أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى ﴿ **وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴾ **(طه: ١١٩)** أي لا يمس باطنك حرُّ

(١) في إحدى النسخ السفن والصحيح ما أثبتناه.
(٢) في إحدى النسخ (أمر).
(٣) (على) بدل (عن).

الظمأ ولا ظاهرك حرُّ الشمس، ولهذا قرن بين هذا وهذا، وبين هذا وهذا، لما بينهما من الملاءمة.

فلما كان منه ما كان من أكْله من الشجرة التى نُهى عنها، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنَّصَب والكدر والسعى والنكد، والابتلاء والاختبار والامتحان، واختلاف السكان دينًا وأخلاقًا وأعمالاً، وقصودًا وإرادات وأقوالاً وأفعالاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾ **(البقرة: ٣٦)**.

ولا يلزم من هذا أنهم كانوا فى السماء كما قال: ﴿ **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** ﴾ **(الإسراء: ١٠٤)**، ومعلوم أنهم كانوا فيها ولم يكونوا فى السماء.

قالوا: وليس هذا القول مُفرعًا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما، فكل من حُكى عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف، ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتى فى إيرادها فى موضعها، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾ **(البقرة: ٣٦)** أى عن الجنة ﴿ **فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ **(البقرة: ٣٦)** أى من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدريهما، كما قال تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ **(الأعراف: ٢٠)** يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا من الخالدين، أى لو أكلتما منها لصرتما كذلك.

﴿ **وَقَاسَمَهُمَا** ﴾ أي حلف لهما على ذلك ﴿ **إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ **(الأعراف: ٢١)**. كما قال فى آية أخرى ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى** ﴾ **(طه: ١٢٠)** أى: هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم، واستمررت فى ملك لا يبيد ولا ينقضى؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التى إذا أكلت منها خُلدت، وقد تكون هى الشجرة التى قال الإمام أحمد: «حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا شعبة عن أبى الضحاك، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها: شجرة الخلد**»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٤٥٥/٢ واللفظ له ورواه البخاري ح ٣٢٥١ باختلاف فى اللفظ.

وكذلك رواه أيضًا عن غُندر وحجاج، عن شعبة ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة أيضًا به.

قال غُندَر: قلت لشعبة: هي شجرة الخلد؟ قال ليس فيها (هي).

تفرَّد به الإمام أحمد.

وقوله: ﴿ **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ (الأعراف: ٢٢)، كما قال في طه: ﴿ **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ (طه: ١٢١) وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهي التي حردَته على أكلها، والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا بشر بن محمد حدثنا عبد الله، أنبأنا معمر، عن همام بن مُنبه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه: «**لولا بنو إسرائيل لم يَخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»[1].

تفرد به من هذا الوجه، وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة به، ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف، عن أبي وهب، عن عمرو بن الحارث عن أبي يونس، عن أبي هريرة به.

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب، أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام، وليس فيها ذكرٌ لإبليس فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر، وفيها أنهما كانا عريانين، وكذا قال وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها.

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم، وتحريف وخطأ في التعريف، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يتيسر[2] لكل أحد، ولا سيما ممن لا يكاد يعرف كلام العرب جيداً، ولا يحيط علمًا بفهم كتابه أيضًا، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظًا ومعنًى.

وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله: ﴿ **يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا** ﴾ (الأعراف: ٢٧) فهذا لا يرد لغيره من الكلام. والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عَروبة، عن قتادة، عن الحسن عن أبيِّ بن كعب قال: قال

---

(١) رواه البخاري حديث ٣٣٠.

(٢) في إحدى النسخ: لا يكاد يتيسر.

رسول الله ﷺ : «**إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن عز وجل: يا آدم منى تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء**»[1].

وقال الثورى عن ابن أبى ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ **(طه: ١٢١)** ورق التين.

وهذا إسناد صحيح إليه وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب، وظاهر الآية يقتضى أعم من ذلك، وبتقدير تسليمه فلا يضر، والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصرى عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق، ستون ذراعاً كثير الشعر موارى العورة، فلما أصاب الخطيئة فى الجنة بدت له سوأته، فخرج من الجنة، فلقيته شجرة فأخذت بناصيته، فناداه ربه: أفراراً منى يا آدم؟ قال: بل حياء منك يا رب مما جئت به**»[2].

ثم رواه من طريق سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن يحيى بن ضمرة، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ بنحوه.

وهذا أصح، فإن الحسن لم يدرك أبيًّا.

ثم أورده أيضًا من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابُلسى، عن محمد بن عبد الوهاب أبى قرصافة العسقلانى، عن آدم بن أبى إياس، عن شيبان، عن قتادة عن أنس مرفوعًا بنحوه.

﴿ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ **(الأعراف: ٢٢، ٢٣).**

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة، وتذلل وخضوع واستكانة، وافتقار إليه تعالى فى الساعة الراهنة، وهذا السرّ ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير فى دنياه وأخراه.

﴿ **قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ **(الأعراف: ٢٤)** وهذا خطاب لآدم وإبليس، قيل والحية معهم، أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين.

---

(١) راجع طبقات ابن سعد. (٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبرى ١/١٦٠ طبعة دار المعارف.

وقد يُستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات، وقال: «**ما سالمناهن منذ حاربناهن**»(1).

وقوله فى سورة طه: ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ **(طه: ١٢٣)** هو أمر لآدم وإبليس واستتبع آدمُ حواء وإبليسُ الحيةَ.

وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** ﴾ **(الأنبياء: ٧٨)**.

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدَّع ومدَّعى عليه، قال: ﴿ **وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** ﴾.

وأما تكريره الإهباط فى سورة البقرة فى قوله: ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ **(البقرة: ٣٦-٣٩)** فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا، وبالثانى: من السماء الدنيا إلى الأرض.

وهذا ضعيف لقوله فى الأول: ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ **(البقرة: ٣٦)** فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم.

والصحيح أنه كرره لفظًا وإن كان واحدًا، وناط مع كل مرة حُكمًا، فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم، وبالثانى الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقى، وهذا الأسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الحكيم.

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يُخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصنٌ، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو العفو، فقال الله: أفرارًا منى(2)؟ قال: بل حياء منك يا سيدى!

وقال الأوزاعى عن حسان - هو ابن عطية - مكث آدم فى الجنة مائة عام، وفى

---

(1) راجع الحديث فى فتح البارى رقم ٣٢٥٧ تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد.

(2) فى إحدى النسخ (فرارا) بدون همزة الاستفهام وهى مرادة.

رواية ستين عامًا، وبكى على الجنة سبعين عامًا، وعلى خطيئته سبعين عامًا، وعلى ولده حين قُتل أربعين عامًا. رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عثمان بن أبى شَيْبَة، حدثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض يقال لها «دِحنا» بين مكة والطائف.

وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان[1].

رواه ابن أبى حاتم أيضًا.

وقال السدى: نزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة، فبثه فى الهند فنبتت شجرة الطيب هناك[2].

وعن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة. رواه ابن أبى حاتم أيضًا.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبى موسى الأشعرى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شىء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم فى مستدركه على الصحيحين: أنبأنا أبو بكر بن بالويه، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس.

ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفى صحيح مسلم من حديث الزهرى عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها**».

وفى الصحيح من وجه آخر: «**وفيه تقوم الساعة**».

وقال أحمد: حدثنا محمد بن مُصعب، حدثنا الأوزاعى، عن أبى عمار، عن عبد الله بن فرُّوخ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «**خير يوم طلعت فيه الشمس**

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٢) المرجع السابق.

يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة».
على شرط مسلم.

فأما الحديث الذى رواه ابن عساكر من طريق أبى القاسم البغوى، حدثنا محمد ابن جعفر الوركانى، حدثنا سعيد بن ميسرة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«هبط آدم وحواء عُريانين جميعًا، عليهما ورق الجنة، فأصابه الحر حتى قعد يبكى ويقول لها: يا حواء قد آذانى الحرّ، قال فجاءه جبريل بقطن، وأمرها أن تغزل وعلمها، وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج»** وقال: **«وكان آدم لم يجامع امرأته فى الجنة، حتى هبط منها للخطيئة التى أصابتهما بأكلهما من الشجرة»**، قال: **«وكان كل واحد منهما ينام على حدَة، وينام أحدهما فى البطحاء والآخر من ناحية أخرى، حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتى أهله»**، قال: **«وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة»**[1].

فإنه حديث غريب ورفعه منكر جدًا وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد ابن ميسرة هذا هو أبو عمران البكرى البصرى، قال فيه البخارى مُنكر الحديث، وقال ابن حبان: يروى الموضوعات، وقال ابن عَدى مُظلم الأمر.

وقوله: **﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).**

قيل هى قوله: **﴿ ... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣)**. روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى العالية والربيع ابن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٣٧)**. وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن نَجيح، عن مجاهد قال: الكلمات: **«اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربى إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم».**

وروى الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ فَتَلَقَّىٰ

(١) راجع التاريخ لابن عساكر.

آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال: قال آدم: يا رب ألم تخلقنى بيدك؟ قيل له: بلى، ونفخت فىَّ من روحك؟ قيل له: بلى، وعطستُ، فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت علىَّ أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى، قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة، قال: نعم»[1].

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (البخاري ومسلم).

وروى الحاكم أيضًا والبيهقى وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب أسألك بحق محمد ألا غفرت لى**».

فقال الله: فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟

فقال: يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك، ونفخت فىَّ من روحك، رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك.

فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلىَّ، وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك[2].

قال البيهقى: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف. والله أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ**﴾ **(طه: ١٢١، ١٢٢).**

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**حاجَّ موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم**».

قال آدم: «يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه، أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىَّ قبل أن يخلقنى، أو قدَّره علىَّ قبل أن يخلقنى».

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدمُ موسى»[3].

(١) راجع عمدة التفاسير ١/١٣٣٦.
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند فيه ضعف.
(٣) رواه البخارى ح ٤٧٣٨ مكتبة الإيمان.

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد، والنسائي عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن أيوب بن النجار به قال أبو مسعود الدمشقي: ولم يخرجا عنه في الصحيحين سواه.

وقد رواه أحمد، عن عبد الرزاق عن معمر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا أبو شهاب عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة؟**».

فقال له آدم: «**وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، تلومنى على أمر قدِّر عليَّ قبل أن أُخلق؟**».

قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**» مرتين(1).

قلت: وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة**».

قال: «**فقال آدم: وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله، كتبه الله عليَّ قبل أن يخلق السموات والأرض؟**».

قال: «**فحج آدم موسى**»(2).

وقد رواه الترمذي والنسائى جميعًا عن يحيى بن حبيب بن عدى، عن معمر بن سليمان، عن أبيه، عن الأعمش به.

قال الترمذي: وهو غريب من حديث سليمان التيمى عن الأعمش.

قال: وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد.

قلت: هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده، عن محمد بن مثنى، عن معاذ بن أسد، عن الفضل بن موسى، عن الأعمش عن أبى صالح، عن أبى سعيد.

ورواه البزار أيضًا: حدثنا عمرو بن على الفلاس، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، أو أبى سعيد عن النبى ﷺ فذكر نحوه.

---

(1) المرجع السابق ح ٤٣٠٩.

(2) الإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٩٨.

وقال أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاوسًا، سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة**».

قال له آدم: «**يا موسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه -وقال مرة برسالته- وخط لك بيده، أتلومنى على أمر قدره الله علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟**».

قال: «**حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى**».

هكذا رواه البخارى عن على بن المدينى، عن سفيان، قال حفظناه من عمرو عن طاووس، قال سمعت أبا هريرة عن النبى ﷺ قال: «**احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة**».

فقال له آدم: «**يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومنى على أمر قدره الله علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟**».

«**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى هكذا ثلاثًا**».

قال سفيان: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ مثله.

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو ابن دينار، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد، عن عمار، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**لقى آدم موسى، فقال: أنت آدم الذى خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة، ثم فعلتَ ما فعلت؟**».

فقال: «**أنت موسى الذى كلمك الله واصطفاك برسالته، وأنزل عليك التوراة، أنا أقدم أم الذِّكر؟ قال: لا بل الذكر**».

«**فحج آدم موسى**»[1].

قال أحمد: وحدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عمار بن أبى عمار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، وحميد عن الحسن عن رجل - قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلى - عن النبى ﷺ قال: «**لقى آدم موسى**» فذكر معناه.

تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا حسين[2]، حدثنا جرير - هو ابن حازم - عن محمد، هو

(١) المرجع السابق ٢/٤٦٤.

(٢) فى إحدى النسخ (الحسن).

ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقى آدم موسى فقال: أنت آدم الذى خلقك الله بيده وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت؟**».

قال آدم لموسى: «**أنت الذى كلمه الله، وأنزل عليه التوراة؟ قال: نعم. قال: فهل تجده مكتوبا علىَّ قبل أن أخلق؟ قال: نعم**».

قال: «**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»[1].

وكذا رواه حماد بن زيد، عن أيوب، وهشام عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة رفعه. وكذا رواه على بن عاصم، عن خالد، وهشام، عن محمد بن سيرين، وهذا على شرطهما من هذه الوجوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى أنس ابن عياض، عن الحارث بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟**».

قال آدم: «**أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيًا؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها: «وعصى آدم ربه فغوى» قال: نعم. قال: أفتلومنى على أن عملت عملا كتب علىَّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟**».

قال: قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**».

قال الحارث: وحدثنى عبد الرحمن بن هرمز بذلك، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ[2].

وقد رواه مسلم عن إسحق بن موسى الأنصارى، عن أنس بن عياض، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب، عن يزيد بن هرمز والأعرج، كلاهما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهرى، عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى لآدم: يا آدم أنت الذى أدخلت ذريتك النار**».

فقال آدم: «**يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأنزل عليك التوراة فهل وجدت أن أهبط؟ قال: نعم، قال: فحجه آدم**»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٩٢.

(٢) راجع التاريخ لابن عساكر.

(٣) المسند للإمام أحمد ح ٧٦٢٣.

وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه، وفى قوله: أدخلت ذريتك النار، نكارة.

فهذه طرق هذا الحديث عن أبى هريرة، رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان، وطاووس بن كيسان، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وعمار بن أبى عمار، ومحمد بن سيرين، وهمام بن منبه، ويزيد بن هرمز، وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: حدثنا الحارث بن مسكين المصرى، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، عن النبى ﷺ قال: «**قال موسى عليه السلام: يا رب أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة، فأراه آدم عليه السلام، فقال: أنت آدم؟ فقال له آدم: نعم. فقال: أنت الذى نفخ الله فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك الأسماء كلها؟ قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟**».

فقال له آدم: «**من أنت: قال أنا موسى، قال: أنت موسى نبى بني إسرائيل؟ أنت الذى كلمك الله من وراء الحجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم. قال: تلومنى على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبلُ؟**» قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»[1].

ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصرى، عن ابن وهب به.

قال أبو يعلى: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعى، حدثنا عمران، عن الردينى، عن أبى مجلز، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر - قال أبو محمد: أكبر ظني أنه رفعه - قال: «**التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم أنت أبو البشر، أسكنك الله جنته، وأسجد لك ملائكته. قال آدم: يا موسى أما تجده عليَّ مكتوباً؟ قال: فحج آدم موسى فحج آدم موسى**».

وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به، والله أعلم.

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش، عن أبى صالح عن أبى سعيد، ورواية الإمام أحمد له عن عفان، عن حماد بن سلمة عن حميد، عن الحسن عن رجل. قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلى، عن النبى ﷺ: «**لقى آدم موسى**» فذكر معناه. وقد اختلفت مسالك الناس فى هذا الحديث.

فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق[2].

---

(١) السنن الكبرى لأبى داود ٢/٥٢٨.

(٢) راجع للرازى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين أيضا كتاب المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين تأليف/ طه عبد الرءوف سعد وإبراهيم محمد عبد الهادى رحمه الله تعالى.

واحتج به قوم من الجبرية، وهو ظاهر لهم بادى الرأى حيث قال: فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه، وسيأتى الجواب عن هذا.

وقال آخرون: إنما حجه لأنه لامه على ذنب تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقيل: إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم. وقيل لأنه أبوه. وقيل لأنهما فى شريعتين متغايرتين. وقيل لأنهما فى دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمون.

والتحقيق: أن هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى وفيه نظر.

ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة، والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق، هو الله عز وجل، فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبة إلىَّ أكثر من أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون هذا الإخراج مترتبًا على ذلك ليس من فعلى، فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه، وله الحكمة فى ذلك. فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند، لأنه متواتر عن أبى هريرة رضى الله عنه، وناهيك به عدالة وحفظًا وإتقانًا. ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا.

ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة، آنفًا، فهو بعيد عن اللفظ والمعنى، وما فيهم من هو أقوى مسلكًا من الجبرية.

وفيما قالوه نظر من وجوه:

أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله.

الثانى: أنه قد قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله فى ذلك بقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ **(القصص: ١٦).**

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد، لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله، فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود. ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذى ارتكبه فى الأمور الكبار والصغار. وهذا يفضى إلى لوازم فظيعة، فلهذا قال من قال من العلماء، بأن جواب آدم إنما كان احتجاجًا بالقدر على المصيبة لا المعصية. والله تعالى أعلم.

ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنى قسامة بن زهير، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك**»[1].

ورواه أيضًا عن هَوْذَةَ، عن عوف، عن قسامة بن زهير، سمعت الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر، والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**».

وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه، من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى، عن قسامة بن زهير المازنى البصرى، عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى، عن النبى ﷺ بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى، فرجع ولم يأخذ، وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها.

فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط[2] ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين.

فصعد به فبلَّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا، واللازب: هو الذى يلزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ **(ص: ٧١، ٧٢)**.

فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، فخلقه بشرًا، فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعًا إبليس، فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبرى ٩١/١، ٩٢ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٤٠٠/٤، ٤٠٦.
(٢) فى إحدى النسخ: وخلطه.

صلصلة، فلذلك حين يقول: ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: ١٤) ويقول: لأمر مَّا خُلقت، ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكنَّه.

فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس، فقالت الملائكة قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربك، فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٣٠، ٣١) وذكر تمام القصة(١).

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث، وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس أن النبى ﷺ قال: «**لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك**»(٢).

وقال ابن حبان فى صحيحه: حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لما نفخ فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله**»(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن حبيب، عن حفص - هو ابن عاصم ابن عبيد الله بن عمر بن الخطاب - عن أبى هريرة رفعه قال: «**لما خلق الله آدم عطس، فقال الحمد لله، فقال له ربه رحمك ربك يا آدم**»(٤). (**هذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه**).

وقال عمر بن عبد العزيز: لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل، فآتاه الله أن كتب القرآن فى جبهته. (**رواه ابن عساكر**).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد، عن

---

(١) راجع تاريخ ابن عساكر ٢٤١/٢ وما بعدها.

(٢) المسند للإمام أحمد ١٥٢/٣.

(٣) راجع لابن سعد طبقاته الكبرى ٩/١/١.

(٤) المرجع السابق.

إسماعيل بن رافع المقبرى، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً ثم تركه، حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه الله وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلقت لأمر عظيم. ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فلقاه الله رحمة به، فقال الله: يرحمك ربك، ثم قال الله: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم السلام عليكم فانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال: يا آدم! هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال: يا رب وما ذريتى؟ قال: اختر يدى يا آدم، قال: أختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين. فبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن، فإذا رجال منهم أفواههم النور، وإذا رجل يعجب آدم بنوره، قال: يا رب من هذا؟ قال ابنك داود قال: يا رب: فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين، قال: يا رب فأتم له من عمرى حتى يكون عمره[1] مائة سنة، ففعل الله ذلك، وأشهد على ذلك.**

لما نفد عمر آدم بعث الله ملك الموت، فقال آدم: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد ذلك، فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته!»[2].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذُباب، عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ، وقال الترمذى: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقال النسائى: هذا حديث منكر. وقد رواه محمد بن عجلان، عن أبيه وعن أبى سعيد المقبرى، عن عبد الله بن سَلاَم قوله[3].

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلا فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أى رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنة.**

(١) فى إحدى النسخ (حتى يكون له من العمر).
(٢) رواه ابن عساكر بسند ضعيف.
(٣) لم يرفعه إلى النبى ﷺ.

فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته»[1].

ثم قال الترمذي: حسن صحيح. وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين، وقال صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وروى ابن أبى حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة مرفوعًا فذكره، وفيه: «**ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب لمَ فعلت هذا بذريتى؟ قال: كى تشكر نعمتى**».

ثم ذكر قصة داود، وستأتى من رواية ابن عباس أيضًا.

وقال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة، عن أبى إدريس، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «**خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذى فى يمينه: إلى الجنة ولا أبالى، وقال للذى فى كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالى**»[2].

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا الحكم بن سنان، عن حوشب عن الحسن قال: «**خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فألقوا على وجه الأرض، منهم الأعمى والأصم والمبتلى. فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال: يا آدم إنى أردت أن أُشكَر**».

وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة عن الحسن بنحوه.

وقد رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذياب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملإ منهم جلوس فسلم**

(١) رواه الترمذى فى سننه بسند ضعيف.

(٢) المسند للإمام أحمد ٦/٤٤١.

عليهم، فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله». ثم رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم.

وقال الله ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربى، وكلتا يدى ربى يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أى رب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه، وإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو من أضوئهم - لم يكتب له إلا أربعون سنة، قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. وقد كتب الله عمره أربعين سنة، قال: أى رب زد في عمره، فقال: ذاك الذى كتب له. قال: فإنى قد جعلت له من عمرى ستين سنة، قال: أنت وذاك. اسكن الجنة.

فسكن الجنة ما شاء الله ثم هبط منها، وكان آدم يعد لنفسه. فأتاه ملك الموت فقال له آدم: «قد عجلت، قد كتب لى ألف سنة. قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود» هذا لفظه[1].

وقد قال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله. فزادوه ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**»[2].

وهكذا رواه البخارى فى كتاب الاستئذان، عن يحيى بن جعفر، ومسلم، عن محمد بن رافع، كلاهما عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**كان طول آدم ستين ذراعًا فى سبع أذرع عرضًا**»[3] (انفرد به احمد).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: لما نزلت آية الدَّيْن[4] قال رسول الله ﷺ: «**إن**

(١) رواه الإمام أحمد بمعناه ١/ ٢٥٢.
(٢) راجع فتح البارى شرح صحيح البخارى ح ٦٢٢٧.
(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٥٣٥ بسند ضعيف.
(٤) الآية ٢٨٢ البقرة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين....﴾.

أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم، إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر، قال: أي رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قال: أي رب كم عمره؟ قال: ستون عامًا. قال أي رب زد في عمره، قال: لا؛ إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عامًا. فكتب الله عليه بذلك كتابًا وأشهد عليه الملائكة.

فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عامًا، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود قال: ما فعلت، وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة[1].

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول من جحد آدم، قالها ثلاث مرات، إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أي رب زد في عمره. قال: لا، إلا أن تزيده أنت من عمرك، فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى عليه كتابًا وأشهد عليه الملائكة.**

فلما أراد أن يقبض روحه قال: إنه بقي من أجلي أربعون سنة، فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود. قال: فجحد، قال: فأخرج الله الكتاب، وأقام عليه البينة، فأتمها لداود مائة سنة، وأتم لآدم عمره ألف سنة (تفرد به احمد، وعلى بن زيد في حديثه نكارة).

ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس وغير واحد، عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «**إن أول من جحد آدم ثلاثا**» وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه[2] عن زيد بن أبي أنيسة: إن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

فقال ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «**إن الله خلق آدم**

(١) المرجع السابق ١/٢٥٢.

(٢) انظره من تحقيقنا.

عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريته. قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «**إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار**»[1].

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه من طرق، عن الإمام مالك به.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر، وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة، زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة.

وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى، عن بقية، عن عمر بن جثعم، عن زيد ابن أبى أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة، قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سُئل عن هذه الآية فذكر الحديث.

قال الحافظ الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوى. عن زيد بن أبى أنيسة قال: وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين: أهل اليمين وأهل الشمال: وقال: هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى.

فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية، فلم يجئ في الأحاديث الثابتة. وتفسير الآية التى فى سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها، فمن أراد تحريره فليراجعه ثَمَّ (في تفسير القرآن العظيم)، والله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه أحمد[2]: حدثنا حسين بن محمد - حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٤٥/١.

(٢) المرجع السابق ٢٧/١.

من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ **(الأعراف: ١٧٢، ١٧٣).**

فهو إسناد جيد قوى على شرط مسلم، رواه النسائى وابن جرير والحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزى به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر روى عنه مرفوعًا وموقوفًا، وكذا روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا. وهكذا رواه العوفى والوالبى والضحاك وأبو جمرة، وعن ابن عباس قوله: وهذا أكثر وأثبت والله أعلم، وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفًا ومرفوعًا والموقوف أصح.

واستأنس القائلون بهذا القول – وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور – بما قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنى شعبة، عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول نعم. فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم ألا تشرك بى شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بى**»[1] **(أخرجاه من حديث شعبة به).**

وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ **(الأعراف: ١٧٢)** الآية والتى بعدها.

قال: فجمعهم له يومئذ جميعًا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهد عليهم أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ **(الأعراف: ١٧٢)** الآية.

قال: فإنى أُشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، ألا تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى، ولا تشركوا بى شيئًا، وإنى سأرسل إليكم رسلاً ينذرونكم عهدى وميثاقى، وأنزل عليكم كتابى.

قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا يومئذ بالطاعة.

ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو سويت بين عبادك؟ فقال: إنى أحببت أن أُشكر.

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول الله تعالى:

﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ **(الأحزاب: ٧).**

وهو الذى يقول: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ **(الروم: ٣٠).**

وفى ذلك قال: ﴿ **هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ** ﴾ **(النجم: ٥٦).**

وفى ذلك قال: ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾ **(الأعراف: ١٠٢).**

رواه الأئمة: عبد الله بن أحمد وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه، فى تفاسيرهم من طريق أبى جعفر، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والسدى، وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث.

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الإلهى، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له، فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملوثًا شيطانًا رجيمًا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، ويعلى ومحمد ابنا عبيد، قالوا حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكى يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار**»[1].

رواه مسلم من حديث وكيع وأبى معاوية عن الأعمش به.

ثم لما أسكن آدم الجنة التى أسكنها، سواء، أكانت فى السماء أم فى الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه، أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام، يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس، وأهبطا إلى الأرض، وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها.

واختلفوا فى مقدار مقامه في الجنة: فقيل بعض يوم من أيام الدنيا، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «**خلق آدم فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة**» وتقدم أيضاً حديثه عنه وفيه – يعنى يوم الجمعة – خلق آدم وفيه أخرج منها.

---

(١) راجع مسند الإمام أحمد ٢/٤٤٣.

فإن كان اليوم الذى خلق فيه أخرج فيه – وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام – فقد لبث بعض يوم من هذه الجمعة، وفى هذا نظر. وإن كان إخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه، أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، واختاره ابن جرير، فقد لبث هناك مدة طويلة.

قال ابن جرير: ومعلوم أنه خلق فى آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث مصوراً طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق، عن هشام بن حسان، عن سوار خبر عطاء بن أبى رباح: أنه كان لما أهبط رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء، فحطه الله إلى ستين ذراعًا وقد روى عن ابن عباس نحوه.

وفى هذا نظر، لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**» وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعًا، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خَلقهم حتى الآن[1].

وذكر ابن جرير عن ابن عباس: أن الله قال: يا آدم إن لى حرمًا بحيال عرشى، فانطلق فابن لى فيه بيتًا، فطف به كما تطوف ملائكتى بعرشى، وأرسل الله له ملكًا فعرفه مكانه وعلمه المناسك، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك.

وعنه: أن أول طعام آدم فى الأرض، أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة، فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التى نهيت عنها فأكلت منها، فقال: وما أصنع بهذا؟ قال: ابذره فى الأرض، فبذره، وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف، فنبتت فحصده، ثم درسه ثم ذراه، ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ **(طه: ١١٧)**.

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن: جزّاه ثم غزلاه، فنسج آدم له جبة ولحواء درعًا وخماراً.

واختلفوا: هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد؟ فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض، وقيل بل ولد لهما فيها، فكان قابيل وأخته ممن ولدا بها والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التى ولدت معه، والآخر بالأخرى، وهلم جرا، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذى وُلدت معه.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٣٤٥/٢.

ذكر قصة ابني آدم: قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧-٣١).

وقد تكلمنا على هذه القصة فى سورة المائدة فى التفسير بما فيه كفاية. ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف فى ذلك.

فذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة، أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانا، وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السموات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من ذرع من ردىء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختى، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين.

وروى عن ابن عباس من وجه آخر، وعن عبد الله بن عمرو. وقال عبد الله بن عمرو وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده!.

وذكر أبو جعفر الباقر: أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لى، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذ هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل منى. فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته. وقيل: بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما تفعل السباع، فمات والله أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ

لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٨) دل على خُلق حسن، وخوف من الله تعالى وخشية منه تعالى، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. قالوا يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1].

وقوله: ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ **(المائدة: ٢٩)** أى إنى أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى، إذ قد عزمت على ما عزمت عليه، أن تبوء بإثمى وإثمك، أى تتحمل إثم قتلى مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك، قاله مجاهد والسدى وابن جرير وغير واحد.

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض الناس، فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك.

وأما الحديث الذى يورده بعض من لا يعلم عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما ترك القاتل على المقتول من ذنب**»[2] فلا أصل له، ولا يعرف فى شىء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضًا.

ولكن قد يتفق فى بعض الأشخاص يوم القيامة، أن يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفى بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل، كما ثبت به الحديث الصحيح فى سائر المظالم، والقتل من أعظمها والله أعلم. وقد حررنا هذا كله فى التفسير، ولله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى، عن سعد بن أبى وقاص، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الساعى**»[3].

قال: أفرأيت إن دخل على بيتى فبسط يده إلىّ ليقتلنى.

قال: «**كن كابن آدم**».

ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا، وقال: كن كخير ابنى آدم. وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائى عن أبى ذر نحو هذا.

---

(١) الحديث أخرجه البخارى ح ٦٨٧٥ فتح البارى من تحقيقنا.

(٢) الحديث ضعفه الإمام ابن حجر فى لآلئه وراجع لابن القيم المنار المنيف فى الصحيح والضعيف - من تحقيقنا - ط/ دار المسلم - القاهرة.

(٣) راجع المسند للإمام أحمد ١٦٩/١.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ووكيع. قالا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل**»(1).

ورواه الجماعة سوى أبى داود من حديث الأعمش به. وهكذا روى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعى أنهما قالا مثل هذا سواء.

وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن كثير - وقال إنه كان من الصالحين - أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء، فأجابه إلى ذلك، وصدقه فى ذلك رسول الله ﷺ وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس.

وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا، لم يترتب عليه حكم شرعى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ **(المائدة: ٣١)** ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة، وقال آخرون حمله مائة سنة! ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين. قال السدى بإسناده عن الصحابة: غرابين أخوين، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك قال: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى. ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنًا شديداً. وأنه قال فى ذلك شعراً، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح(2)

فأجيب آدم:

أبا هابيل قد قتلا جميعا ... وصار الحى كالميت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

---

(1) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣٨٣/١.

(2) رواية يشك فيها وهل كان آدم يتكلم العربية؟!.

وهذا الشعر فيه نظر. وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاما يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال والله أعلم.

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»[1].

والذى رأيته فى الكتاب الذى بأيدى أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة: أن الله عز وجل أجله وأنظره، وأنه سكن فى أرض «نود» فى شرقى عدن وهم يسمونه قنين. وأنه ولد له خنوخ، ولخنوخ عندر، ولعندر محوايل، ولمحوايل متوشيل، ولمتوشيل لامك. وتزوج هذا امرأتين: عدا وصلا. فولدت «عدا» ولداً اسمه ابل، وهو أول من سكن القباب واقتنى المال. وولدت أيضاً نوبل، وهو أول من أخذ فى ضرب الونج والصنج. وولدت «صلا» ولداً اسمه توبلقين، وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنتا اسمها «نعمى».

وفيها أيضاً أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه «شيث» وقالت من أجل أنه قد وهب لى خلفا من هابيل الذى قتله قابيل، وولد لشيث أنوش.

قالوا: وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمسا وستين[2]، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين. وولد له بنون وبنات غير أنوش.

فولد لأنوش «قينان» وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة، وولد له بنون وبنات. فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له «يرد» وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات. فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له «خنوخ» وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات. فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلخ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وولد له بنون وبنات. فلما كان لمتوشلخ مائة وسبع وثمانون سنة ولد له «لامك» وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنتين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات. فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له «نوح» وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمسا وتسعين سنة، وولد له بنون وبنات. فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون: سام وحام ويافث. هذا مضمون ما فى كتابهم صريحاً.

(١) رواه أبو داود فى سننه ٢/٥٧٤.

(٢) الصحيح أنه مائة وخمس سنين.

وفى كون هـذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر. كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم فى ذلك. والظاهر أنها مقحمة فيها، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير وفيها غلط كثير كما سنذكره[1] فى مواضعه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطناً. قاله ابن إسحاق وسماهم والله تعالى أعلم. وقيل مائة وعشرين بطناً فى كل واحد ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته قليما، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث.

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا، وامتدوا في الأرض ونموا، كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (النساء الآية الأولى).

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨٩). الآيات فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم، ثم استطرد إلى الجنس، وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢، ١٣).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ (الملك: ٥).

ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هى أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن، عن سمرة، عن النبى ﷺ قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره**»[2].

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم عند هذه الآية، وأخرجه الحاكم فى مستدركه، كلهم من حديث عبد الصمد بن

---

(١) فى بعض النسخ: كما سنبينه.

(٢) رواه الإمام أحمد ١/١٥ بسند ضعيف.

عبد الوارث به، فقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

فهذه علة قادحة فى الحديث أنه روى موقوفًا على الصحابى وهذا أشبه. والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روى موقوفًا عن ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار[1] وذويه والله أعلم.

وقد فسر الحسن البصرى هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه إلى غيره. والله أعلم.

وأيضًا فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر، وليثبت منهما رجالاً كثيرًا ونساء، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر فى هذا الحديث إن كان محفوظًا؟!.

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبى ﷺ خطأ، والصواب وقفه والله أعلم وقد حررنا هذا فى كتابنا التفسير ولله الحمد.

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما فى هذا، فإن آدم أبو البشر الذى خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه جنته.

وقد روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا**» قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر: جم غفير**» قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: «**آدم**»، قلت: يا رسول الله نبى مرسل؟ قال: «**نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا**».

وقال الطبرانى: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع ابن هرمز، عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل، وأفضل النبيين آدم، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الشهور شهر رمضان، وأفضل الليالى ليلة القدر، وأفضل النساء مريم بنت عمران**»[2].

وهذا إسناد ضعيف، فإن نافعا أبا هرمز كذبه ابن معين، وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم والله أعلم.

وقال كعب الأحبار: ليس أحد فى الجنة له لحية إلا آدم، لحيته سوداء إلى سرته، وليس أحد يكنى فى الجنة إلا آدم، كنيته فى الدنيا أبو البشر وفى الجنة أبو محمد!!.

(١) يروى كثيرا من الإسرائيليات.
(٢) رواه الطبرانى عن ابن عباس بسند فيه متروك.

وقد روى ابن عدى من طريق سبع بن أبى خالد، عن حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله مرفوعًا: أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد.

ورواه ابن عدى أيضًا من حديث عليّ بن أبى طالب... وهو ضعيف من كل وجه. والله أعلم.

وفى حديث الإسراء الذى فى الصحيحين، أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو فى السماء الدنيا، قال له مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح، قال: وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، فقال يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه، فإذا نظر قِبَل أهل اليمين -وهم أهل الجنة- ضحك، وإذا نظر قبل أهل الشمال -- وهم أهل النار - بكى[1]. وهذا معنى الحديث.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنى يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء فى قوله ﷺ: «**فمررت بيوسف وإذ هو قد أعطى شطر الحسن**» قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمر أيضًا موقوفًا ومرفوعًا: أن الله تعالى لما خلق الجنة، قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه، فإنك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون، فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان.

وقد ورد الحديث المروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم على صورته**» وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها. والله أعلم.

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام

ومعنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قُتل هابيل.

قال أبو ذر فى حديثه عن رسول الله ﷺ: «**إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة**».

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

(١) راجع الحديث بطوله مع شرحه برقم ٣٣٤٢ من تحقيقنا ط - دار الغد العربى القاهرة.

قال: ويقال إن أنساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى شيث وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا. والله أعلم.

ولما توفى آدم عليه السلام -وكان ذلك يوم الجمعة- جاءته الملائكة بحنوط وكفن - من عند الله عز وجل - من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام، قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن.

وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن يحيى -هو ابن ضمرة السعدى- قال: رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا هذا أُبَىٌّ بن كعب، فقال إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أى بنى! إنى أشتهى من ثمار الجنة.

قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل، فقالوا لهم: يا بنى آدم ما تريدون وما تطلبون؟ أو ما تريدون؟ وأين تطلبون؟ قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم. فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عنى فإنى إنما أتيت من قبلك، فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه، وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه فى قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بنى آدم هذه سنتكم[1] **(إسناده صحيح إليه).**

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون ابن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**كَبَّرتْ الملائكة على آدم أربعا، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعا، وكبر عمر على أبى بكر أربعا، وكبر صهيب على عمر أربعا**»[2].

قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال عن ابن عمر.

واختلفوا فى موضع دفنه، فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط فيه فى الهند، وقيل بجبل أبى قبيس بمكة، ويقال إن نوحا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوت، فدفنهما ببيت المقدس، حكى ذلك ابن جرير.

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس. وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

(١) راجع المسند للإمام أحمد ١٣٦/٥.
(٢) رواه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين البخارى ومسلم كما قال السيوطى فى الفتح الكبير ٣١٦/٢.

واختلف في مقدار عمره عليه السلام، فقدَّمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعًا: أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة.

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة، لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود، إذ خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

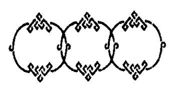
وأيضًا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث، فإن ما في التوراة إذا كان محفوظًا - محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط، وذلك تسعمائة سنة وثلاثون سنة شمسية، وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره، فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عطاء الخراساني: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام، رواه ابن عساكر.

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام وكان نبيًّا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه، عن أبي ذر مرفوعًا أنه أنزل عليه خمسون صحيفة.

فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش[1] فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده قينن ثم من بعده ابنه مهلاييل - وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار، وبنى المدائن والحصون الكبار. وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السُّوس الأقصى. وأنه قهر إبليس وجنوده وشرَّدهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقًا من مردة الجن والغيلان، وكان له تاج عظيم، وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة.

فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ، وهو إدريس عليه السلام على المشهور.



(١) وقيل يانش.

ذكر إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ **(مريم: ٥٦، ٥٧).**

فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية، وهو خنوخ، وهو فى عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب.

وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام[1].

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمانى سنين. وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه فى حديث معاوية بن الحكم السُّلَمى لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال: «**إنه كان نبى يخط به فمن وافق خطَّه فذاك**».

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك، ويسمونه هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ **(مريم: ٥٧)** هو كما ثبت فى الصحيحين فى حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر به وهو فى السماء الرابعة. وقد روى ابن جرير عن يونس، عن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبًا وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ **(مريم: ٥٧)**؟ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه: إنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم – لعله من أهل زمانه – فأحبَّ أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلىَّ كذا وكذا فكلِّم ملك الموت حتى ازداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهرى، فقال ملك الموت: يا للعجب! بعثتُ وقيل لى اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف اقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض؟! فقبض روحه هناك، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ **(مريم: ٥٧).**

ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها. وعنده فقال لذلك الملك: سَل لى ملك الموت

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد بسند ضعيف.

كم بقى من عمرى؟ فسأله وهو معه: كم بقى من عمره؟ فقال: لا أدرى حتى أنظر، فنظر فقال: إنك لتسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلى طرفة عين، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وهذا من الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة.

وقول ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧)، قال: إدريس رُفِع ولم يمت كما رفع عيسى، إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففى هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حيًّا إلى السماء ثم قبض هناك. فلا ينافى ما تقدم من كعب الأحبار. والله أعلمْ.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧)، رفع إلى السماء السادسة فمات بها، وهكذا قال الضحاك، والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصح، وهو قول مجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصرى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧)، قال: إلى الجنة، وقال قائلون: رفع فى حياة أبيه يرْد بن مهلاييل والله أعلم، وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل فى زمان بنى إسرائيل.

قال البخارى: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام قال له: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبًا بالنبى الصالح والابن الصالح، قالوا: فلو كان فى عمود نسبه لقال كما قالا له[1].

وهذا لا يدل ولا بد، لأنه قد يكون الراوى حفظه جيداً، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع، ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر، وإبراهيم الذى هو خليل الرحمن وأكبر أولى العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.



(١) رواه ابن عساكر فى تاريخه.

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ – وهو إدريس – بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام.

وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره.

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه: حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة: أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم مُكَلَّم. قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون.

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه[1].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام.

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة – كما هو المتبادر عند كثير من الناس – فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيَّد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كانوا على الإسلام.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار. والله أعلم.

وإن كان المراد بالقَرْن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**﴾ **(الإسراء: ١٧)** وقوله: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ**﴾ **(المؤمنون: ٤٢)** وقال تعالى: ﴿**وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا**﴾ **(الفرقان: ٣٨)** وقال: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ**﴾ **(مريم: ٧٤)** وكقوله عليه السلام: «**خير القرون قرني...**» الحديث، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عُبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناسُ في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض، كما يقول له أهلُ الموقف يوم القيامة.

---

(١) يراجع هنا المستدرك على الصحيحين للحاكم.

وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جُبير وغيره.

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث، فقيل كان ابن خمسين سنة وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه، وما أنزل فيمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز، في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة (سورة نوح).

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٩-٦٤).

وقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ (يونس: ٧١-٧٣).

وقال الله تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٢٥-٤٩).

وقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٦-٧٧).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٣-٣٠).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ

حسابُهُمْ إلاَّ علَىٰ ربِّي لوْ تشعُرُونَ * وما أنا بطارد الْمُؤْمنين * إنْ أنا إلاَّ نذيرٌ مُّبينٌ * قالُوا لئن لَّمْ تنته يا نُوحُ لتكُونَنَّ من الْمرْجُومين * قال ربِّ إنَّ قوْمي كذَّبُون * فافْتحْ بيْني وبيْنهُمْ فتْحًا ونجِّني ومن مَّعي من الْمُؤْمنين * فأنجيْناهُ ومن مَّعهُ في الْفُلْك الْمشْحُون * ثُمَّ أغْرقْنا بعْدُ الْباقين * إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكْثرُهُم مُّؤْمنين * وإنَّ ربَّك لهُو الْعزيزُ الرَّحيمُ ﴾ (الشعراء: ١٠٥-١٢٢).

وقال تعالى: ﴿ ولقدْ أرْسلْنا نُوحًا إلىٰ قوْمه فلبث فيهمْ ألْف سنةٍ إلاَّ خمْسين عامًا فأخذهُمُ الطُّوفانُ وهُمْ ظالمُون * فأنجيْناهُ وأصْحاب السَّفينة وجعلْناها آيةً لِّلْعالمين ﴾ (العنكبوت: ١٤-١٥).

وقال تعالى: ﴿ ولقدْ نادانا نُوحٌ فلنعْم الْمُجيبُون * ونجَّيْناهُ وأهْلهُ من الْكرْب الْعظيم * وجعلْنا ذُرِّيَّتهُ هُمُ الْباقين * وتركْنا عليْه في الآخرين * سلامٌ علىٰ نُوحٍ في الْعالمين * إنَّا كذلك نجْزي الْمُحْسنين * إنَّهُ منْ عبادنا الْمُؤْمنين * ثُمَّ أغْرقْنا الآخرين ﴾ (الصافات: ٧٥-٨٢).

وقال تعالى: ﴿ كذَّبتْ قبْلهُمْ قوْمُ نُوحٍ فكذَّبُوا عبْدنا وقالُوا مجْنُونٌ وازْدُجر * فدعا ربَّهُ أنِّي مغْلُوبٌ فانتصرْ * ففتحْنا أبْواب السَّماء بماءٍ مُّنْهمرٍ * وفجَّرْنا الأرْض عُيُونًا فالْتقى الْماءُ علىٰ أمْرٍ قدْ قُدر * وحملْناهُ علىٰ ذات ألْواحٍ ودُسُرٍ * تجْري بأعْيُننا جزاءً لِّمن كان كُفر * ولقد تَّركْناها آيةً فهلْ من مُّدَّكرٍ * فكيْف كان عذابي ونُذُر * ولقدْ يسَّرْنا الْقُرْآن للذِّكْر فهلْ من مُّدَّكرٍ ﴾ (القمر: ٩-١٧).

وقال تعالى: ﴿ إنَّا أرْسلْنا نُوحًا إلىٰ قوْمه أنْ أنذرْ قوْمك من قبْل أن يأْتيهُمْ عذابٌ أليمٌ * قال يا قوْم إنِّي لكُمْ نذيرٌ مُّبينٌ * أن اعْبُدُوا اللَّه واتَّقُوهُ وأطيعُون * يغْفرْ لكُم مِّن ذُنُوبكُمْ ويُؤخِّرْكُمْ إلىٰ أجلٍ مُّسمًّى إنَّ أجل اللَّه إذا جاء لا يُؤخَّرُ لوْ كُنتُمْ تعْلمُون * قال ربِّ إنِّي دعوْتُ قوْمي ليْلاً ونهارًا * فلمْ يزدْهُمْ دُعائي إلاَّ فرارًا * وإنِّي كُلَّما دعوْتُهُمْ لتغْفر لهُمْ جعلُوا أصابعهُمْ في آذانهمْ واسْتغْشوْا ثيابهُمْ وأصرُّوا واسْتكْبرُوا اسْتكْبارًا * ثُمَّ إنِّي دعوْتُهُمْ جهارًا * ثُمَّ إنِّي أعْلنتُ لهُمْ وأسْررْتُ لهُمْ إسْرارًا * فقُلْتُ اسْتغْفرُوا ربَّكُمْ إنَّهُ كان غفَّارًا * يُرْسل السَّماء عليْكُم مِّدْرارًا * ويُمْددْكُم بأمْوالٍ وبنين ويجْعل لَّكُمْ جنَّاتٍ ويجْعل لَّكُمْ أنْهارًا * ما لكُمْ لا ترْجُون للَّه وقارًا * وقدْ خلقكُمْ أطْوارًا * ألمْ تروْا كيْف خلق اللَّهُ سبْع سمواتٍ طباقًا * وجعل الْقمر فيهنَّ نُورًا وجعل الشَّمْس سراجًا * واللَّهُ أنْبتكُم مِّن الأرْض نباتًا * ثُمَّ يُعيدُكُمْ فيها ويُخْرجُكُمْ إخْراجًا * واللَّهُ جعل لكُمُ الأرْض بساطًا * لِّتسْلُكُوا منْها سُبُلاً فجاجًا * قال نُوحٌ رَّبِّ إنَّهُمْ عصوْني واتَّبعُوا من لَّمْ يزدْهُ مالُهُ وولدُهُ إلاَّ خسارًا * ومكرُوا مكْرًا كُبَّارًا * وقالُوا لا تذرُنَّ آلهتكُمْ ولا تذرُنَّ ودًّا ولا سُواعًا ولا يغُوث ويعُوق ونسْرًا * وقدْ أضلُّوا كثيرًا ولا تزد الظَّالمين إلاَّ ضلالاً * مِّمَّا خطيئاتهمْ أُغْرقُوا فأُدْخلُوا نارًا فلمْ يجدُوا لهُم مِّن دُون اللَّه أنصارًا * وقال نُوحٌ رَّبِّ لا تذرْ على الأرْض من الْكافرين ديَّارًا * إنَّك إن تذرْهُمْ يُضلُّوا عبادك ولا يلدُوا إلاَّ فاجرًا كفَّارًا * رَّبِّ اغْفرْ لي ولوالديَّ ولمن دخل بيْتي مُؤْمنًا ولِلْمُؤْمنين والْمُؤْمنات ولا تزد الظَّالمين إلاَّ تبارًا ﴾ (سورة نوح كلها).

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه (السورة) في التفسير. وسنذكر مضمون القصة مجموعًا من هذه الأماكن المتفرقة، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار.

وقد جرى ذكره أيضًا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٥).

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٣-٨٦).

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٧).

وتقدمت قصته في الأنبياء (والمؤمنون) والشعراء والعنكبوت.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب: ٧).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (ص: ١٢-١٤).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (غافر: ٥-٦).

وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (ق: ١٢-١٤).

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (الذاريات: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ (النجم: ٥٢).

وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة (القمر).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (التحريم: ١٠).

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسُّنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، رواه البخاري وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سَلَف.

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام.

وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح: ٢٣).

هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخَ العلم عُبدت[1].

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ.

وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقطون المطر. فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: ودّ ويغوث ويُعوق وسُواع ونسر، أولاد آدم وكان «ود» أكبرهم وأبرّهم به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا

---

(١) راجع فهارس البخاري (مفاتيح القاري) من تأليفنا.

يعقوب عن أبى المطهَّر، قال: ذكروا عند أبى جعفر - هو الباقر - وهو قائم يصلى يزيدَ ابن المهلب، قال فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قُتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى. قال ذكر ودًّا قال: كان رجلاً صالحًا وكان محببًا فى قومه، فلما مات عكفوا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبَّه فى صورة إنسان ثم قال: إنى أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصوِّر لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل أجعل لكم فى منزل كلٍّ واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له فى بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثَّل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به. قال: وتناسوا ودرس أمرُ ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولادُ أولادهم فكان أول ما عبد غير الله «ودٌّ» الصنم الذى سموه ودًّا.

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبدَه طائفة من الناس وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان، جعلوا تلك الصورة تماثيل مجسَّدة ليكون أثبت لها، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل، ولهم فى عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها فى مواضعها من كتابنا التفسير. ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذَكَرَتْ عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأتاها بأرض الحبشة، ويقال لها مارية، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوَّروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل**»[1].

والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعمَّ البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

فكان أولَ رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان، عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى حديث الشفاعة، قال: «**فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمرَ الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تَشْفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربى قد غضب غضبًا شديداً لم**

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٦/٥١.

يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهانى عن شجرة فعصيت، نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح».

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسى نفسى»[1] وذكر تمام الحديث كما أورده البخارى فى قصة نوح.

فلما بعث الله نوحًا عليه السلام، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته.

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ **(الصافات: ٧٧).**

وقال تعالى فيه وفى إبراهيم: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ **(الحديد: ٢٦).**

أى كل نبى من بعد نوح فمن ذريته. وكذلك إبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ **(النحل: ٣٦).**

وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ **(الزخرف: ٤٥).**

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ **(الأنبياء: ٢٥).**

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ **(الأعراف: ٥٩).** وقال: ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ **(هود: ٢٦)** وقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ **(الأعراف: ٦٥)** وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ إلى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ **(نوح: ١٤)** الآيات الكريمات.

فذكر أنهم دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان، وتنقصوه ومن آمن به، وتوعدوهم بالرجْم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم.

---

(١) المرجع السابق ٢/٣٩٨.

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ أى السادة الكبراء منهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأعراف: ٦٠).

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٦١) أى لست كما تزعمون من أنى ضال، بل على الهدى المستقيم رسولٌ من رب العالمين، أى الذى يقول للشيء كن فيكون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٦٢) وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا، أى فصيحًا ناصحًا، أعلم الناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود: ٢٧).

تعجَّبوا أن يكون بشر رسولاً، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلَهم. وقد قيل إنهم من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم، كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ (هود: ٢٧) أى بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية. وهذا الذى رموهم به هو عينُ ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى رويَّة ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحًا للصدِّيق: «**ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوة غير أبى بكر، فإنه لم يتلعثم**» ولهذا كانت بيعته يوم السَّقيفة أيضًا سريعةً من غير نظر ولا روية، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جَليَّة عند الصحابة رضى الله عنهم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه، قال: «**يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[1] رضى الله عنه.

وقول كفرة نوح له ولمن آمن به: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ (هود: ٢٧) أى لم يظهر لكم أمرٌ بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزيةَ علينا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (هود: ٢٧-٢٨).

وهذا تلطف فى الخطاب معهم: وترفق بهم فى الدعوة إلى الحق.

قال تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[2] (طه: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

---

(١) السنن لأبى داود ١١/١٦.

(٢) فقولا: أى موسى وهارون.

يقول لهم: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أى النبوة والرسالة، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أى أنغصبكم بها ونجبركم عليها؟ ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (هود: ٢٨) أى ليس لى فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ (هود: ٢٩) أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خيرٌ لى، وأبقى مما تعطوننى أنتم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (هود: ٢٩) كأنهم طلبوا منه أن يُبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ أى فأخاف إن طردتُهم أن يشكونى إلى الله عز وجل ولهذا قال: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٣٠).

ولهذا لما سأل كفارُ قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين، كعمَّار وصُهَيب وبلال وخَبَاب وأشباههم، نهاه الله عن ذلك، كما بيناه فى سورتى الأنعام والكهف[1].

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي بل أنا عبد رسول، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه، ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ﴿ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ يعنى من أتباعه ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٣١) أى لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة. الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، كما قالوا فى المواضع الأخرى: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء: ١١١-١١٥).

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٤) أى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلَّما انقرض جيلٌ وصَّوْا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته.
وكان الوالد إذا بلغ ولدُه وعقل عنه كلامه، وصاه فيما بينه وبينه، ألا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقى.

---

(١) يقصد فى تفسيره (تفسير القرآن العظيم) المعروف بتفسير ابن كثير انظره من تحقيقنا.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (نوح: ٢٧).

ولهذا: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (هود: ٣٢، ٣٣).

أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل، فإنه الذى لا يعجزه شىء ولا يكترثه أمر، بل هو الذى يقول للشىء كن فيكون، ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود: ٣٤) أى من يريد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ (هود: ٣٦) تسلية له عما كان منهم إليه ﴿ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (هود: ٣٦) وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، أى لا يَسُوأنَّك ما جرى فإن النصر قريب والنَّبأ عَجَب عجيب.

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (هود: ٣٧).

وذلك أن نوحًا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق، من فعال ومَقال، دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الصافات: ٧٥، ٧٦) وقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنبياء: ٧٦) وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١١٧، ١١٨) وقال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ (القمر: ١٠) وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (المؤمنون: ٣٩) وقال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: ٢٥-٢٧).

فاجتمع عليهم خطاياهم من كُفرهم وفجورهم ودعوةُ نبيهم عليهم.

فعند ذلك أمره الله أن يصنع الفُلْك، وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدَّم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحلَّ بهم بأسه الذى لا يُردُّ عن القوم المجرمين، أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عندَ معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة. ولهذا قال: ﴿ **وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ **(المؤمنون: ٢٧)**.

﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** ﴾ أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به، ﴿ **قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ** ﴾ **(هود: ٣٨)** أى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم. ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ **(هود: ٣٩)**.

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا، وهكذا فى الآخرة فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول.

كما قال البخارى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجىء نوح عليه السلام وأمته، فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أى رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبى، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فنشهد أنه قد بلغ**»[1].

وهو قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ **(البقرة: ١٤٣)**.

الوسط العدل فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق، بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحقَّ وأمره به، وأنه بلَّغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل، حتى أنه حذَّر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه فى زمانه، حذَرًا عليهم وشفقة ورحمة بهم.

كما قال البخارى: حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهرى، قال سالم قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إنى لأنذركموه، وما من نبى إلا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوحٌ قومه،

---

(١) رواه البخارى ح ٣٣٣٩ فتح البارى - من تحقيقنا.

ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لقومه: تعلمون أنه أعْور، وأن الله ليس بأعور»[1].

وهذا الحديث فى الصحيحين أيضًا من حديث شيبان بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: **«ألا أحدثكم عن الدجال حديثًا ما حدّث نبىٌّ قومه؟ إنه أعور وإنه يجىء معه بمثال الجنة والنار والتى يقول عليها الجنة هى النار، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه»**[2] **(لفظ البخارى).**

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له، أمره أن يغرس شجرًا ليعمل منه السفينة، فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره فى مائة أخرى، وقيل فى أربعين سنة. والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق عن الثّورى: وكانت من خشب الساج، وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة.

قال الثّورى: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعًا، وأن يعْلى ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤا أزْور يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع فى عرض خمسين ذراعًا. وهذا الذى فى التوراة على ما رأيته وقال الحسن البصرى: ستمائة فى عرض ثلاثمائة وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة ذراع وقيل كان طولها ألفى ذراع، وعرضها مائة ذراع.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعًا، وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ﴾ **(المؤمنون: ٢٦-٢٧).**

أى بأمرنا لك، وبمرأى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك، لنرشدك إلى الصواب فى صنعتها.

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾ **(هود: ٤٠).**

فتقدَّم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء أمره وحلَّ بأسه، أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه من روحٌ من المأكولات

(١) رواه البخارى فى أواخر صحيحه ح ٧١٢٧ فتح البارى.
(٢) المرجع السابق.

وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي أهل بيته، إلا من سبق عليه القول منهم، أى إلا من كان كافرًا فإنه قد نفذَت فيه الدعوةُ التى لا تردّ، ووجب عليه حلول البأس الذى لا يُردّ وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حلَّ بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذى قد حتَّمه عليهم الفعَّالُ لما يريد. كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتَّنور عند الجمهور وجهُ الأرض، أى نبعت الأرضُ من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التى هى محالُّ النار. وعن ابن عباس: التنور عينٌ فى الهند، وعند الشعبى بالكوفة، وعن قتادة بالجزيرة.

وقال على بن أبى طالب: المراد بالتنور فَلق الصبح وتنوير الفجر، أى إشراقه وضياؤه. أى عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين، وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ **(هود: ٤٠)**.

هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وفى كتاب أهل الكتاب: أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج، وما لا يؤكل زوجين: ذكر وأنثى.

وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى فى كتابنا الحق: ﴿ **اثْنَيْنِ** ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولاً به، وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافى والله أعلم.

وذكر بعضهم - ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدُّرة[1] وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ودخل إبليس متعلقًا بذنب الحمار.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لما حمل نوحٌ فى السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه. وكيف نطمئن؟ أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أولُ حمى نزلت فى الأرض. ثم شكوا الفأرة، فقالوا: الفُويسقة[2] تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها**» **(هذا مرسل)**.

وقوله: ﴿ **وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ** ﴾ أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر، فكان منهم ابنه «يام» الذى غرق كما سيأتى بيانه.

(١) الدرَّة: الببغاء الصغيرة طائر لونه أخضر له صوت جميل.

(٢) الفويسقة: الفارة سميت بذلك لخروجها على الناس بالفساد وأصل الفسق الخروج.

﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعيد أخرى.

وقد اختلف العلماء فى عدد من كان معه فى السفينة.

فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرة.

وقيل إنما كانوا نوحًا وبنيه الثلاثة وكنائنه (زوجات أبنائه) الأربع بامرأة « يام » الذى انخزل وانعزل، وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل.

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية، بل هى نص فى أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به، كما قال : ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **(الشعراء: ١١٨).**

وقيل كانوا سبعة.

وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم: وهم حام وسام، ويافث، ويام، ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق، وعابر، فقد ماتت قبل الطوفان، وقيل إنها غرقت مع من غرق، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها.

وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أُنظرت إلى يوم القيامة. والظاهر الأول لقوله : ﴿ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ **(نوح: ٢٦).**

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ **(المؤمنون: ٢٨-٢٩).**

أمره أن يحمد ربه على ما سخَّر له من هذه السفينة، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه.

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ **(الزخرف: ١٢-١٤).**

وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور: أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة.

كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيراً ﴾ **(الإسراء: ٨٠).**

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **(هود: ٤١)**، أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى وذو عقاب أليم، مع كونه غفوراً رحيماً، لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحلَّ بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ **(هود: ٤٢)** وذلك إن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده، كان كأفواه القرَب، وأمر الأرض فنَبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها.

كما قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ **(القمر: ١٠-١٣)**.

والدسر المسامير ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ **(القمر: ١٤)** أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لهم ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾.

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ **(الحاقة: ١١)** أى السفينة ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ **(الحاقة: ١٢)**.

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعًا وهو الذى عند أهل الكتاب. وقيل ثمانين ذراعًا، وعمَّ جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحَزْنها[2]، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عينٌ تطرف، ولا صغير ولا كبير.

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملئوا السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة فى الأرض إلا ولها مالك وحائز. **(رواهما ابن أبى حاتم)**.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ **(هود: ٤٢-٤٣)**.

وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث، وقيل اسمه كنعان، وكان كافراً

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١/١٨٩.

(٢) حزنت الأرض خشنت وغلظت.

عمل عملاً غير صالح، فخالف أباه فى دينه، فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانبُ فى النَّسب، لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

أى لما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ أى نقص عما كان ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره، من إحلاله بهم ما حلَّ بهم.

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى نودى عليهم بلسان القدرة: بُعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٦٤).

وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ (يونس: ٧٣).

وقال تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٧).

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ١١٩-١٢٢).

وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت: ١٥).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ (الصافات: ٨٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٥-١٧).

وقال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: ٢٥-٢٧).

وقد استجاب الله تعالى - وله الحمد والمنة - دعوته، فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى، عن قائد مولى عبد الملك بن أبى رافع، أن إبراهيم

ابن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : «**فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى !**» .

قال رسول الله ﷺ : «**مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة - يعنى إلا خمسين عاماً - وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ، ويقولون تعمل سفينة فى البر : كيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون .**

فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبًّا شديداً ، فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى !»[١] .

وهذا حديث غريب . وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفًا متلقى عن مثل كعب الأحبار[٢] والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً .

فكيف يعزم بعض المفسرين أن عوج بن عنق - ويقال ابن عناق - كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى . ويقولون : كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً . ويقولون : كان لغير رشدة، بل ولدته أمه بنت آدم من زنا (كذا)، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه فى عين الشمس، وأنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة : ما هذه القصعة التى لك ويستهزئ به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلثا إلى غير ذلك من الهذيانات التى لولا أنها مسطرة فى كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها، لسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول، فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره، وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق، ويقال عناق، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا؟ .

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبى ولا الصبى، ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر، الشديد الكافر، الشيطان المريد على ما ذكروا؟

وأما المنقول فقد قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ** ﴾ وقال : ﴿ **رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾ .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبرى ١/ ١٨٠ .

(٢) كان يروى عن أهل الكتاب.

ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن**».

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ **(النجم: ٤)**.

إنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن، أى لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة. وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه.

فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة والكذبة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقًا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف.

ووجه السؤال: أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق؟ فأجيب بأنه ليس من أهلك، أى الذين وعدت بنجاتهم. أى إنا قلنا لك: ﴿**وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾**(هود: ٤٨)**.

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، ﴿**بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ**﴾ أى اهبط سالمًا مباركًا عليك، وعلى أمم ممن سيولد بعد، أى من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقبًا سوى نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**﴾ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن

سُمَرَةَ، أن النبى ﷺ قال: «**سام: أبو العرب، وحام: أبو الحبش، ويافث: أبو الروم**»(1).

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى، عن يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة مرفوعًا نحوه.

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وقد روى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله. قال: والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: ولد نوح ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة: فولد سام: العرب وفارس والروم. وولد يافث: الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وولد حام: القبط والسودان والبربر(2).

قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد ابن حسين بن عباد أبو العباس قالا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى، حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ولد لنوح: سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث: يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد لحام: القبط والبربر والسودان**».

ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعًا إلا من هذا الوجه تفرد به عن محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه، ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً ولم يسنده، وإنما جعله من قول سعيد.

قلت وهذا الذى ذكره أبو عمر(3)، هو المحفوظ عن سعيد قوله: «وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم». ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعيف بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل إن نوحًا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الأولاد الثلاثة إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذى غرق، وعابر مات قبل الطوفان.

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة.

---

(1) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٥/٨.

(2) الطبرى - تاريخ الأمم والملوك ١/٢١٠.

(3) يقصد ابن عبد البر.

وقد ذكر أن « حاماً » واقع امرأته فى السفينة، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان. وقيل بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته، وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفًا من ذلك التراب بكفه. وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله. فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت، قال: لا، ولكنى مت وأنا شاب. ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ (هنا) شبت.

قال: حدثنا عن سفينة نوح قال: كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام: أن اضرب بين عينى الأسد، فخرج من منخره سنور (قط) وسنورة فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها، فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التى فى عنقها، ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان، فمن ثَمَّ تألف البيوت. قال: فقالوا يا رسول الله ألا تنطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله فعاد تراباً[1].

وهذا أثر غريب جداً.

وروى علباء بن أحمر، عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه،

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/١٨١ وما بعدها.

فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها العربية. وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال قتادة وغيره، ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يومًا واستقرت بهم على الجودى شهرًا، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم. وقد روى ابن جرير خبرًا مرفوعًا يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد، حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبل، عن أبى هريرة قال: مر النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال ما هذا الصوم؟ فقالوا: هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا اليوم استوت فيه السفينة على الجودى، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكرًا لله عز وجل، فقال النبى ﷺ: «**أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم**» (فأمر أصحابه بالصوم)[1] وقال لأصحابه: «**من كان منكم أصبح صائمًا فليتم صومه، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه**»[2].

وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر، والمستغرب ذكر نوح أيضًا. والله أعلم.

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم، ومن حبوب كانت معهم قد اصطحبوها، وطحنوا الحبوب يومئذ، واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا فى ظلمة السفينة - فكل هذا لا يصح فيه شىء، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بنى إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها. والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان - أرسل ريحًا على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودى فيما يزعم أهل التوراة - فى الشهر السابع لعشر ليالٍ مضت منه وفى أول يوم من الشهر العاشر رؤيت رءوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يومًا فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء

(١) المسند للإمام أحمد ٢/٣٥٩.
(٢) المرجع السابق ٥/٣٥٩.

فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعًا، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع، فرجعت حين أمست وفيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، برز وجه البر وكشف نوح غطاء الفلك.

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بأيدى أهل الكتاب.

وقال ابن إسحاق: وفي الشهر الثانى من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ **(هود: ٤٨).**

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحًا قائلاً له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التى معك، ولينموا وليكثروا فى الأرض. فخرجوا وابتنى نوح مذبحًا لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانًا إلى الله عز وجل وعهد الله إليه ألا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام، وهو قوس قزح الذى روى عن ابن عباس أنه أمان من الغرق. قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر، أى أن هذا الغمام لا يوجد طوفان كأول مرة.

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان، واعترف به آخرون منهم وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر، من لدن كيومرث -يعنون آدم- إلى زماننا هذا.

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع للشيطان. وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ، ومكابرة للمحسوسات، وتكذيب لرب الأرض والسماوات.

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد، استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق فى القدر المحتوم.



ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ **(الإسراء: ٣)**.

قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبى زائدة عن سعيد بن أبى بردة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»(١).

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبى أسامة.

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه: باب صيام نوح عليه السلام: حدثنا سهل بن أبى سهل حدثنا سعيد بن أبى مريم، عن ابن لهيعة، عن جعفر بن ربيعة، عن أبى فراس، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى**»(٢).

وهكذا رواه ابن ماجه عن طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج، حدثنا عمر بن خالد الحرانى، حدثنا عن لهيعة، عن أبى قتادة، عن يزيد بن رباح أبى فراس، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر**».

ذكر حَجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبى، عن زمعة - هو ابن أبى صالح - عن سلمة بن دهران(٣)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادى عسفان قال: «يا أبا بكر أى واد هذا»؟ قال: هذا وادى عسفان، قال: «لقد مر بهذا الوادى نوح وهود وإبراهيم على بكران لهم حمر خطمهم الليف، أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق»، فيه غرابة.

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣/١٠٠.

(٢) (رواه ابن ماجه فى سننه الكبرى بسند ضعيف).

(٣) في بعض النسخ (وهران).

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الصقعب ابن زهير، عن زيد بن أسلم - قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: «**ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ورفع كل راع ابن راع**».

قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «**ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟!**» ثم قال: «**إن نبي الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله، وبسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر**» قال: قلت - أو قيل - يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**» قلت - أوقيل - يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سفه الحق وغمط الناس**»[1]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «**كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين**» فذكر نحوه.

وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد، عن أبي معاوية الضرير، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ بنحوه، والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، كما رواه أحمد والطبراني، والله أعلم.

ويزعم أهل الكتاب أن نوحًا عليه السلام لما ركب السفينة - كان عمره ستمائة سنة. وقدمنا عن بن عباس مثله، وزاد: وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وفي هذا القول نظر، ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض. فإن

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/١٦٩، ١٧٠ والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٢٢٠.

القرآن يقتضى أن نوحًا مكث فى قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك؟

فإن كان ما ذكر محفوظًا عن ابن عباس - من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة - فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأما قبره ﷺ، فروى ابن جرير والأزرقى عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

هذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين، من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر والله أعلم.



قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبد الله ابن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ذكره ابن جرير.

وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف - وهى جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيث.

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ **(الفجر ٦، ٧)** أى عاد إرم وهم عاد الأولى، وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه. وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ **(الفجر ٧، ٨)** أى مثل القبيلة، قيل مثل العمد. والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير.

ومن زعم أن «إرم» مدينة تدور فى الأرض، فتارة فى الشام، وتارة فى اليمن، وتارة فى الحجاز، وتارة فى غيرها، فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يعول عليه، ولا مستند يركن إليه.

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر».

ويقال: إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية، وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها، وقال غيره: أول من تكلم بها نوح، وقيل آدم وهو الأشبه، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ

والمقصود أن عاداً – وهم عاد الأولى – كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صمداً وصموداً، وهراً.

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ **(الأعراف: ٦٥، ٧٢).**

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ **(هود: ٥٠، ٦٠).**

وقال تعالى بعد قصة قوم نوح: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(المؤمنون: ٣١، ٤١).

وقال تعالى بعد قصة نوح أيضا: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(الشعراء: ١٢٣، ١٤٠).

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾.

(فصلت: ١٥، ١٦)

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(الأحقاف: ٢١، ٢٥).

وقال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾(الذاريات: ٤١، ٤٢).

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾(النجم: ٥٠، ٥٥).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(القمر: ١٨، ٢٢).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٦، ٨).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ٦، ١٤).

وقد تكلمنا عن كل من هذه القصص فى أماكنها من كتابنا التفسير، ولله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة (التوبة) وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفى سورة ص، وفى سورة ق.

ولنذكر مضمون القصة مجموعًا من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وذلك بين فى قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ (الأعراف: ٦٩) أى جعلكم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش، وقال فى (سورة) المؤمنون: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣١) وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ (المؤمنون: ٤١) قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٦) وهذا الذى قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم، كما سيأتى فى قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع العقوبات، ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود أن عاداً كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين فى عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ (الأعراف: ٦٦) أى هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف: ٦٧) أى ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(الأعراف: ٦٨) والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغة بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغى منهم أجرًا ولا يطلب منهم جُعلا، بل هو مخلص لله عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(هود: ٥١) أى أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذى تشهد به فطركم التى خلقتم عليها، وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحًا وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا ذا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرًا عليه، بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع، ولهذا قال مؤمن «يس»: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس: ٢١، ٢٢)

وقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾(هود: ٥٣، ٥٤) يقولون ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾(هود: ٥٤، ٥٥).

وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر، وتنفع وتضر فها أنا ذا بريء منها لاعن لها فكيدونى ثم لا تنظرون أنتم جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالى بكم ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(هود: ٥٦) أى أنا متوكل على الله

ومتأيد به، وواثق بجنابه الذى لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فلست أبالى مخلوقًا سواه، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هودًا عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهًا فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله فى قوله: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ **(يونس: ٧١)**.

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ **(الأنعام: ٨٠، ٨٣)**.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۞ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ **(المؤمنون: ٣٣، ٣٥)**.

استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديما وحديثا، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ **(يونس: ٢)**.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ۞ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ **(الإسراء: ٩٤، ٩٥)**.

ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ **(الأعراف: ٦٣)** أى ليس هذا بعجيب، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ **(المؤمنون: ٣٥، ٣٩)** استبعدوا الميعاد

وانكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا، هيهات، هيهات، هيهات، أى بعيد بعيد هذا الوعيد، ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أى يموت قوم ويحيا آخرون وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة.

وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ **(الأنعام: ١١٣)**.

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ **(الشعراء: ١٢٨، ١٢٩)** يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلاً كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذلك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ **(الفجر ٦، ٨)** فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام.

ومن زعم أن «إرم» مدينة من ذهب وفضة وهى تنتقل فى البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه[1].

وقوله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ قيل هى القصور، وقيل بروج الحمام وقيل مآخذ الماء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعمارًا طويلة ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ **(الشعراء: ١٣٠، ١٣٥)**.

وقالوا له مما قالوا: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ **(الأعراف: ٧٠)** أى أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه؟ فإن كنت صادقًا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا

---

(١) بل هى أساطير من حكايات العجائز كما تحكيها الجدات إلى أحفادها.

نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٦، ١٣٨) أما على قراءة فتح الخاء، فالمراد به اختلاف الأولين، أى إن هذا الذى جئت به إلا اختلاق منك، أخذته من كتب الأولين، هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين، وأما على قراءة ضم الخاء واللام – فالمراد به الدين، أى إن هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به.

ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

قال: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٧١) أى قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم؟ اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم، ما نزل الله بها من سلطان، أى لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً، وإذ أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذى لا يرد ونكاله الذى لا يصد.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٩، ٤١) وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٢، ٢٥).

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً، كقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعرف: ٧٢) وكقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود: ٥٨، ٦٠).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤١).

وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ١٣٩، ١٤٠).

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأحقاف: ٢٤) كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين مسنتين (مجدبين من قلة المطر)، فطلبوا السقيا فرأوا عارضا فى السماء وظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أى من وقوع العذاب وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٢) ومثلها فى الأعراف.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر الذى ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار[1] قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل، أمسك عنهم القطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبون بحرمه ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذلك رجلاً يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبرى، قال: فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً، يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية، وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف – عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به، فقال:

ألا يا قيْل ويحك قم فَهينْم ... لعلَّ الله يُصْحبنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عاداً ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهارا ... ولا يخشى لعاد سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم تماما
فقبّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقُّوا التحية والسلاما[2]

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا

---

(١) من مؤلفى السيرة الأقدمين راجع ترجمته فى مقدمة السيرة النبوية لابن هشام تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد – ط/ دار الجيل بيروت.

(٢) راجع الموضوع فى المرجع السابق.

داعيهم وهو قيل بن عنز، فأنشأ الله سحابات ثلاثًا: بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب، فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: اخترت رماداً رمدداً،لا تبقى من عاد أحداً، لا والداً يترك ولداً إلا جعلته همداً إلا بنى اللوذية الهمدا قال: وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم، قال: ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا، فيقول تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ **(الأحقاف: ٢٤، ٢٥)** أى تهلك كل شىء أمرت به.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها «مهد»، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا مهد؟ قالت رأيت ريحاً فيها شهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك.

قال: واعتزل هود عليه السلام - فيما ذكر لى - فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وإنا لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا فى مسنده[1] يشبه هذه القصة فقال: حدثنا زيد ابن الحباب، حدثنى أبو المنذور سلام بن سليمان النحوى، حدثنا عاصم بن أبى النجود، عن أبى وائل، عن الحارث - وهو ابن حسان - ويقال ابن يزيد البكرى، قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟.

قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها؟.

قال: فجلست، قال فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه فأذن لى،

---

(١) راجع المسند للإمام أحمد ٣/٤٨٢.

فدخلت فسلمت فقال: «هل كان بينكم وبين بنى تميم شيء»؟ فقلت: نعم: وكانت لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك وها هى بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزا، فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا، قال: فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: فقلت: إن مثلى ما قال الأول: معزى حملت حتفها، حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث منى ولكن يستطعمه.

قلت: إن عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قَيْل، فمر بمعارية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلي جبال تهامة، فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت بَسقيه، فمرت به سحابات سود فنودى منها: اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها: خذها رمداً، لا تبق من عاد أحدا، قال: فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل: وصدق، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد[1].

وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به، ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر عن عاصم بن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه، وهكذا أورد هـذا الحـديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة، فإن فيما كره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم كما سيأتى، وعاد الأولى قبل الخليل، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، ولا يشبه كلام المتقدمين وفيه أن فى تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر، وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هى الباردة والعاتية الشديدة الهبوب.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾(الحاقة: ٧) أى كوامل متتابعات، قيل كان أولها الجمعة، وقيل الأربعاء.

---

(١) لأنه يضرب به المثل فى الشر.

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٧) شبههم بأعجاز النخل التى لا رءوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ (القمر: ١٩) أى فى يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم.

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (القمر: ٢٠) ومن قال إن اليوم النحس المستمر يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالف القرآن، فإنه قال فى الآية الأخرى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ (فصلت: ١٦) ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد فى أيام نحسات، أى عليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (الذاريات: ٤١) أى التى لا تنتج خيراً، فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً، بل هى عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات: ٤٢) هى كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأحقاف: ٢١) فالظاهر أن عاداً هذه هى عاد الأولى، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى، ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم عاد الثانية، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشة رضى الله عنها.

وأما قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ (الأحقاف: ٢٤) فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ أى من العذاب، ثم فسروه بقوله: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التى استمرت عليهم سبع ليال بأيامها

---

(١) أخرجه البخارى راجع ح (١٠٣٥) فتح البارى من تحقيقنا.

الثمانية فلم تبق منهم أحداً، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة، فكما منّوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟! سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لما بقى منهم، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً، كما ذكره غير واحد، ويكون هذا، كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التى ذكرها فى سورة قد أفلح المؤمنون، والله أعلم.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا ابن فضيل عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد، الريح وما فيها: ﴿ **قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** ﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة.

وقد رواه الطبرانى عن عبدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفى عن أبى مالك، عن مسلم الملائى، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا، وكان أهل البوادى فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا**».

قال: عتت على خزَّانها[1] حتى خرجت من خلال الأبواب قلت: وقال غيره: خرجت بغير حساب.

والمقصود أن هذا الحديث فى رفعه نظر ثم اختلف فيه على مسلم الملائى، وفيه نوع اضطراب، والله أعلم.

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه لغة السحاب[2]، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكرى، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة.

وأصرح منه فى ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه حيث قال: حدثنا أبو بكر الطاهر، حدثنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج، حدثنا عن عطاء بن أبى رباح، عن

(١) فى بعض النسخ (خزنتها).

(٢) فى بعض النسخ لمة السحاب.

عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» قالت: «وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته قال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد**: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾» **(الأحقاف: ٢٤)**.

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث ابن جريج[1].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث - أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحاً عرف ذلك فى وجهه، قلت يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية؟ فقال: «**يا عائشة ما يؤمنى أن يكون فيه عذاب! قد عذب قوم نوح بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا**»[2] فهذا الحديث كالصريح فى تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً، فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات فى القرآن خبراً عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب.

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف، وأخرجه البخارى وأبو داود من حديث ابن وهب.

وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام، وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام فى بلاد اليمن، وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان فى حائطه القبلى يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام، والله أعلم.



(١) ورواه مسلم أيضا (١٥/٣/٩).

(٢) رواه مسلم (١٦/٣/٩).

قصة صالح عليه السلام

نبى ثمود

وهم قبيلة مشهورة، يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود أخى جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح.

وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر الذى بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله: صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئًا، فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، وتناولوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٣، ٧٩).

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ *

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود: ٦١، ٦٨).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الحجر: ٨٠، ٨٤).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ١٤١، ١٥٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (النمل: ٤٥، ٥٣).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (فصلت: ١٧، ١٨).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ٢٣، ٣٢).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (الشمس: ١١، ١٥).

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود، كما في سورة براءة (التوبة) وإبراهيم والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم، والفجر.

ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما.

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (إبراهيم: ٨، ٩).

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام، وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير مستقصى، ولله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهما وما كان من أمرهما، وكيف نجى الله نبيه صالحًا عليه السلام ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام.

وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً، وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم، ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٣، ٧٤) أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته، فإن عاقبة ذلك وخيمة.

ولهذا وعظهم بقوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ (الشعراء: ١٤٦، ١٤٨) أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ

بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ (الشعراء: ١٤٩، ١٥٢).

وقال لهم أيضًا: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١) أى هو الذى خلقكم فأنشأكم فى الأرض، وجعلكم عُمَّارَها، أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذى يستحق العبادة وحده لا ما سواه، ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (هود: ٦٢، ٦٣).

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾.

وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين الجانب، وحسن تأتى فى الدعوة لهم إلى الخير، أى فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب علىَّ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بينى وبينكم.

وقالوا له أيضًا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أى من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدرى ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد، وهذا القول عليه الجمهور، وهو أن المراد بالمسحرين المسحورين، وقيل من المسحرين: أى ممن له سَحَر – وهو الرئى[1] – كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سَحَر، والأول أظهر لقولهم بعد هذا: ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وقولهم: ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: ١٥٥، ١٥٦)، كما قال: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ (الإسراء: ٥٩).

---

(١) والمفرد رئة.

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة، من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طالبوا، أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿ **فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها، أي أكثرهم، وكان رئيس الذين آمنوا: جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس وكان من رؤسائهم وهَمَّ بقية الأشراف بالإسلام فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صعر بن جلمس، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم، فهم بالإسلام فنهاه أولئك، فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله:

وكانت عصبة من آل عمرو	**إلى دين النبي دعوا شهابًا**
عزيز ثمود كلهم جميعًا	**فَهَمَّ بأن يجيب ولو أجابا**
لأصبح صالح فينا عزيزًا	**وما عدلوا بصاحبهم ذؤابًا**
ولكن الغواة من آل حجر	**تولوا بعد رشدهم ذبابا**

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿ **هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ** ﴾ **(الأعراف: ٧٣)** أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم، كقوله بيت الله وعبد الله ﴿ **لَكُمْ آيَةً** ﴾ **(الأعراف: ٧٣)** أي دليل على صدق ما جئتكم به ﴿ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ **(الأعراف: ٧٣)**.

وحزن على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا

يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال: ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء: ١٥٥).

ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون، ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ (القمر: ٢٨).

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٧).

كان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب، وكان يقال إنه ولد زانية[١] ولد على فراش سالف، وهو ابن رجل يقال له صيبان، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم[٢].

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صدوق»[٣] ابنة المحيا بن زهير بن المختار، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له «مصرع» بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، واسم الأخرى «عنيزة» بنت غنيم بن مجلز، وتكنى أم غنمة وكانت عجوزاً كافرة، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعيا في قومهم بذلك، فاستجاب لهما سبعة آخرون فصاروا تسعة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (النمل: ٤٨)، وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها «مصرع»، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يذمرن[٤] القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم في ذلك فأسرعهم قدار بن سالف، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة

---

(١) ووردت. زنية أي من سفاح.

(٢) وردت: كلهم جميعا.

(٣) وردت في بعض النسخ (صدوقة).

(٤) يحضضن ويهيجن.

واحدة عظيمة تحذروا لها، ثم طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق سقبها - وهو فصيلها - فصعد جبلاً منيعًا ورغا ثلاثًا.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عمن سمع الحسن أنه قال: يارب أين أمي؟ ثم دخل فى صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضًا.

قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ **(القمر: ٢٩، ٣٠)** وقال الله تعالى: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ **(الشمس: ١٢، ١٣)** أى احذروها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ **(الشمس: ١٤، ١٥)**.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - أبو عروة - عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ **(الشمس: ١٢)** «انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة»(١).

أخرجاه من حديث هشام به. عارم: أى شهم، عزيز: أى رئيس. منيع: أى مطاع فى قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يزيد بن محمد بن خثيم، عن محمد بن كعب، عن محمد بن خيثم بن يزيد، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: «**ألا أحدثك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال: رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا عَلِيُّ عَلَى هذا - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعنى لحيته**». رواه ابن أبى حاتم.

وقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ **(الأعراف: ٧٧)** فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما الشرط عليهم فى قوله: ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ **(هود: ٦٤)** وفى آية ﴿ عظيم ﴾ وفى الأخرى ﴿ أليم ﴾ والكل حق، والثانى استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذى قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١٧/٤).

ووقوع العذاب بهم، قال الله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود: ٦٥).

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا قدار بن سالف، لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها - وهو ولدها - شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات.

فلهذا قال صالح: ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ أى غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضًا فى هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة، ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ (النمل: ٤٩) أى لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه، ولهذا قالوا: ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (النمل: ٤٩).

قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (النمل: ٥٠، ٥٣).

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل، ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل.

فلما كانت صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم! ولا من أى جهة يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها، قالوا ولم يبلق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها «كلبة» بنت السلق - ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.

قال الله تعالى: ﴿ **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾**(هود:٦٨)** أى لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء ﴿ **أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ** ﴾ أى نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان ابن خثيم، عن أبى الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجْر قال: «**لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت** - يعنى الناقة - **ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله (عز وجل) من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان فى حرم الله (عز وجل) قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**»[1].

وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو فى شيء من الكتب الستة، والله تعالى أعلم.

وقد قال عبد الرزاق أيضًا: قال معمر: أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال، فقال: «**أتدرون من هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**هذا قبر أبى رغال، رجل من ثمود، كان فى حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ها هنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن**».

قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهرى: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقال جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحق فى السيرة عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبى بجير، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «**إن هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج عنه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن**»[2].

وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا حافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٢٩٦).

(٢) راجع الموضوع بتمامه فى السيرة النبوية لابن هشام تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد - ط/ دار الجيل - بيروت.

قلت: تفرد به بجير بن أبى بجير هذا، ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية، قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم فى رفعه، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه، والله أعلم.

قلت: لكن فى المرسل الذى قبله وفى حديث جابر أيضًا شاهد له، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** ﴾ **(الأعراف: ٧٩)** إخبار عن صالح عليه السلام، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿ **يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ** ﴾ أى جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى، وحرصت على ذلك بقولى وبعملى ونيتى.

﴿ **وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** ﴾ أى لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان، والذى وجب علىّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبى ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال: وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال: «**يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا**» وقال لهم فيما قال: «**بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم**».

فقال له عمر: يا رسول الله تخاطب أقوامًا قد جيفوا؟ فقال: «**والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون**».

ويقال إن صالحًا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال: «**يا أبا بكر أى واد هذا؟**» قال: وادى عسفان قال: «**لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق**»[1].

إسناد حسن، وقد تقدم فى قصة نوح عليه السلام من رواية الطبرانى، وفيه نوح وهود وإبراهيم.

---

(١) المسند للإمام أحمد (١/٢٣٢) (وزمعة) فى رواته ضعيف راجع الضعفاء الكبير للعقيلى من مراجعتنا.

ذكر مرور النبى ﷺ
بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال «**إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم**»[1].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»[2]. أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه.

وفى بعض الروايات: أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين، وفى رواية: «**فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هرون، حدثنا المسعودى، عن إسماعيل بن أوسط عن محمد بن أبى كبشة الأنبارى عن أبيه - واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر ابن سعد - رضى الله عنه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس: «**الصلاة جامعة**».

قال: فأتيت النبى ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «**ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم**» فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «**أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً**».

إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم، فنحتوا لهم بيوتاً فى الجبال.

وذكروا أن صالحًا عليه السلام لما سألوه آية، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة،

---

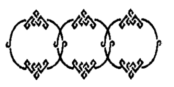
(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/٧٢). (٢) المرجع السابق (٢/٦٦).

أمرهم بها وبالولد التى كان فى جوفها، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك، وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب، فبعثوا القوابل فى البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه، فكانوا على ذلك دهراً طويلاً.

وانقرض جيل وأتى جيل آخر، فلما كان بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله فى الرياسة، فزوجه، فولد بينهما عاقر الناقة، وهو قدار بن سالف، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم، فنشأ نشأة سريعة، فكان يشب فى الجمعة كما يشب غيره فى شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعا فيهم رئيسا بينهم، فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم، وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام.

فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة، وبلغ ذلك صالحًا عليه السلام، جاءهم باكيًا عليها، فتلقوه يعتذرون إليه، ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأ منا، وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداق فينا، فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه، ثم استقبل صالحًا عليه السلام ورغا ثلاثًا، فعندها قال صالح: ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾، وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفرا، ثم تحمر وجوههم فى الثانى، وفى اليوم الثالث تسود وجوههم، فلما كان فى اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة، فأخذتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين.

وفى بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن فى شأنهم وقصتهم كما قدمنا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب[1].



(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام - تحقيق / طه عبد الرءوف سعد - ط/ دار الجيل - بيروت.

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راغو « ٢٣٩ » بن فالغ « ٤٣٠ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرفخشذ « ٤٣٨ » بن سام « ٦٠٠ » بن نوح عليه السلام.

هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندى كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر[1] فى ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحق بن بشر الكاهلى صاحب كتاب المبتدأ، أن اسم أم إبراهيم « أمبلة » ثم أورد عنه فى خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبى: اسمها « بونا » بنت كربتا بن كرثى، من بنى أرفخشذ بن سام بن نوح.

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى « أبا الضيفان »[2].

قالوا: ولما عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام، وناحور وهاران، وولد لهاران « لوط ».

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها، وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر، بعدما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، فى قرية يقال لها برزة، في جبل يقال له قاسيون ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينا للوط عليه السلام[3].

قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وناحور « ملكا » ابنة هاران يعنون ابنة أخيه.

قالوا: وكانت سارة عاقراً لا تلد.

قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهى بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران وهى أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً، وكانوا

(١) راجع له تاريخه (٢/١٤١). (٢) نفس المرجع. (٣) المرجع السابق (٢/١٣٧).

يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام.

وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً فى كبره.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴾ **(الأنبياء: ٥١).**

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ **(العنكبوت: ١٦، ٢٧).**

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ **(مريم: ٤١، ٤٨).**

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه، فكيف تغنى عنه شيئًا أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟ ثم قال له منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سنًا من أبيه : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أى مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك .

فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قيل بالمقال وقيل بالفعال، ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أى واقطعنى وأطل هجرانى .

فعندما قال له إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ أى لا يصلك مني مكروه ولا ينالك منى أذى، بل أنت سالم من ناحيتى، وزاده خيراً فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾، قال ابن عباس وغيره : أى لطيفاً، يعني في أن هدانى لعبادته والإخلاص له، ولهذا قال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده فى أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأمنه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ **(التوبة: ١١٤).**

وقال البخارى: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنى أخى عبد الحميد، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار**»[1]، هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفرداً .

وقال فى التفسير : وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذئب[2]، عن سعيد المقبرى، عن أبيه عن أبى هريرة .

وهكذا رواه النسائى عن أحمد بن حفص بن عبد الله، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان به، وقد رواه البزار عن حديث حماد بن سلمة عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه، وفى سياقه غرابة، ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبى سعيد عن النبى ﷺ بنحوه .

---

(١) رواه البخارى فى الصحيح راجع مفاتيح القارى لأبواب فتح البارى/ طه عبد الرءوف سعد والذيخ: الضبع.
(٢) في بعض النسخ ابن أبى ذؤيب وهو خطأ.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ **(الأنعام: ٧٤)**،هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب، منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح، وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة، فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمين علمين، أو أحدهما لقب والآخر علم. وهذا الذى قاله محتمل، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ **(الأنعام: ٧٥، ٨٣)**.

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة، لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عز وجل، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقى بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك قيل هو الزُّهْرة، ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ **(فصلت: ٣٧)**.

ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ أى طالعة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ أى لست أبالى هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئًا ولا تسمع ولا تعقل، بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران، فإنهم كانوا يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً، كما ذكره ابن إسحاق وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق.

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم، وأهانها وبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٥١، ٧٠).

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٦٩، ٨٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (الصافات: ٨٣، ٩٨).

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها، فقال: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾؟ أى معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا: ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد.

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ **(الأنبياء: ٥٢، ٥٤)** كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ **(الصافات: ٨٥، ٨٧)**

قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟.

وقال لهم: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ **(الشعراء: ٧٢، ٧٤)** سلموا له أنها لا تسمع داعيًا ولا تنفع ولا تضر شيئًا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال، ولهذا قال لهم: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ **(الشعراء: ٧٥، ٧٧)**.

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام، لأنه تبرأ منها وتنقص بها، فلو كانت تضر لضرته، أو تؤثر لأثرت فيه.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴾؟ **(الأنبياء: ٥٥)** ويقولون: هذا الكلام الذى تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا، وتطعن بسببه فى آبائنا أتقوله[1] محقًّا جادًّا فيه أم لاعبًا؟

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ **(الأنبياء: ٥٦)** يعنى بل أقول لكم ذلك جادًّا محقًّا، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو، ربكم ورب كل شىء، فاطر السموات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ **(الأنبياء: ٥٧)** أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم.

قيل: إنه قال هذا خفية فى نفسه، وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم.

وكان لهم عيد يذهبون إليه كل عام[2] مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره فقال إنى سقيم، كما قال تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ **(الصافات: ٨٨، ٨٩)** عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

---

(١) في بعض النسخ بدون همزة الاستفهام وهى مقدرة مرادة.
(٢) في بعض النسخ فى كل عيد.

فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو في بلدهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ أى ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعًا من الأطعمة قربانًا إليها فقال لها على سبيل التهكم والازدراء ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ (الصافات: ٩١، ٩٣) لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أى حطامًا، كسرها كلها ﴿ إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥٨) قيل إنه وضع القدوم فى يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار!.

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وهـذا فيـه دليل ظاهـر لهـم لو كانـوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها، فلـو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٩).

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء: ٦٠) أى يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها، فهو المقدم عليها والكاسر لها، وعلى قول ابن مسعود، أى يذكرهم بقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٧).

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦١) أى فى الملإ الأكبر على رؤوس الأشهاد، لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (طه: ٥٩).

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، قيل معناه: هو الحامل لى على تكسيرهم، وإنما عرض لهم فى القول[1] ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾.

وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

---

(١) وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى فعادوا على أنفسهم بالملامة، فقالوا إنكم أنتم الظالمون، أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها.

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ قال السدى: أى ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى فى عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء أى فأطرقوا ثم قالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أى لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها!؟

فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

كما قال: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال مجاهد: يسرعون، قال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أى كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وسواء كانت: «ما» مصدرية أو بمعنى الذى، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله؟ فإنه ليست عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم، إذ ليست العبادة لا تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ (الصافات: ٩٧، ٩٨) عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جل جلاله، وأعلى كلمته ودينه، وبرهانه كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٦٨، ٧٠).

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حوبة[1] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق[2] صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هيزن» وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

---

(١) أى حفرة ضخمة. (٢) آلة كانت تستعمل فى الحروب ترمى بها الحجارة الكبيرة.

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك ﴿رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل عليه السلام فى كفة المنجنيق مقيداً مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ **(آل عمران: ١٧٣، ١٧٤)**.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرفاعى، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبى جعفر الرازية، عن عاصم بن أبى النجود، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم: «**لما ألقى إبراهيم فى النار قال: اللهم إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك!**».

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا!.

ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول متى أؤمر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ **(الأنبياء: ٦٩)** قال علىّ بن أبى طالب: أى لا تضر به.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: وسلامًا على إبراهيم لآذى إبراهيم بردها.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لَمْ يصبه منها شيء غيره.

وقال السدى: كان معه أيضًا ملك الظل، وصار إبراهيم عليه السلام فى ميل الحوبة حوله نار وهو فى روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول ولا هو يخرج إليهم.

فعن أبى هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نِعْمَ الرب ربك يا إبراهيم!.

وروى ابن عساكر عن عكرمة [1]، أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بنى إنى أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك، فقال: نعم، فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

---

(١) راجع النص كاملا فى تاريخ ابن عساكر (٢/٤٥).

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أُخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يومًا، وأنه قال: ما كنت أيامًا ولياليَ أطيب عيشًا إذ كنت فيها، وودت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها، صلوات الله وسلامه عليه.

فأرادوا أن يَنتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن ينتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ** ﴾ **(الأنبياء: ٧٠)** وفي الآية الأخرى ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يلقون فيها تحية ولا سلامًا، بل هي كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ **(الفرقان: ٦٦).**

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جريج، عن عبد الحميد بن جبير، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك، أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «**كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام**».

ورواه مسلم من حديث ابن جريج، وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أمية، أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «**اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم**»، قال: فكانت عائشة تقتلهن.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: «**أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه**»[1]. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جرير، حدثنا نافع، حدثتني سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة، قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحًا موضوعًا، فقلت يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإن رسول الله ﷺ حدثنا: «أن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله»[2].

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به.

---

(١) رواه البخاري انظر الحديث (٣٣٥٩) فتح الباري بشرح صحيح البخاري من تحقيقنا - والوزغة هي السام الأبرص.
(٢) راجع تاريخ ابن عساكر (١٤٦/٢).

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل

فى إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية؛

وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ **(البقرة: ٢٥٨).**

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد، الذى ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد، وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر.

وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة، وكان طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ **(البقرة: ٢٥٨).**

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق: يعنى أنه إذا أوتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع فى الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، على وجود فاعل ذلك الذى لا بد من استنادها إلى وجوده، ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة، من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة، ثم إماتتها، ولهذا قال إبراهيم: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ **(البقرة: ٢٥٨).**

فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع معارضة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ **(البقرة: ٢٥٨)** أى هذه الشمس مسخرة كل يوم، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها.

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به،بل انقطع وسكت ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**(البقرة: ٢٥٨)**.

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم أن خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ - فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم، أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة[1]، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام.

فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب - فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا، فعملت منه طعامًا، ولما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال: أنَّى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

---

(١) أصل الميرة جمع الطعام.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار، ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعا الثانية فأبى عليه ثم دعا الثالثة فأبى عليه وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بادية، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة! عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها.

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام

ودخوله الديار المصرية واستقراره بالأرض المقدسة

قال الله: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٦، ٢٧).

وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧١، ٧٣).

لما هجر قومه فى الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقرًا لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر - وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب، فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده، فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه.

والأرض التى قصدها بالهجرة أرض الشام، وهى التى قال الله عز وجل: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧١).

قال أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم.

وروى العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:٧١) مكة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وزعم كعب الأحبار أنها حران.

وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب: أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط،

وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه «ملكا» فنزلوا حران، فمات تارخ أبو إبراهيم بها.

وقال السدى: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقى إبراهيم سارة - وهى ابنة ملك حران - وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها[1].

رواه ابن جرير وهو غريب.

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذى تنسب إليه حران.

ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط، كما حكاه السهيلى عن القتيبى والنقاش، فقد أبعد النجعة وقال بلا علم.

ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعًا فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعًا فى وقت - كما هو منقول عن الربانيين من اليهود - فإن الأنبياء لا تتعاطاه، والله أعلم.

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرًا من بلاده كما تقدم، والله أعلم.

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه: (**إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك**) فابتنى إبراهيم مذبحًا لله شكرًا على هذه النعمة، وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً، إلى اليمن، وإنه كان جوع، أى قحط وشدة وغلاء، فارتحلوا إلى مصر.

وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها: قولى أنا أخته، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر، ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعنى أرض بيت المقدس وما والاها، ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبى هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله، قوله: ﴿ **إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ **(الصافات: ٨٩)** وقوله: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ **(الأنبياء: ٦٣)**، وقال: بينا هو إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: مَن هذه؟ قال: أختى فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى.

فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعى الله لى

(١) والشروط في النكاح ملحوظ فيها الصحة إلا ما أحل حراما أو حرم حلالا.

ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية مثلها أو أشد، فقال ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتونى بإنسان، وإنما أتيتمونى بشيطان فأخدمها هاجر.

فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده، مهيم؟ فقالت: رد الله يد الكافر أو الفاجر فى نحره، وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بنى ماء السماء[1]. تفرد به من هذا الوجه موقوفًا.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن على الفلاس، عن عبد الوهاب الثقفى، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**إن إبراهيم لم يكذب قط الا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩) وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار فقيل له: إنه قد نزل ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، أرسل إليه فسأله عنها فقال إنها أختى، فلما رجع إليها قال: إن هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى، وإنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك، وإنك أختى، فلا تكذبينى عنده.**

فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أُخذ، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأُرسل، فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها، فقال ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت فأرسل، ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه فقال: إنك لم تأتنى بإنسان، ولكن أتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر.

فجاءت وإبراهيم قائم يصلى، لما أحس بها انصرف، فقال: مهيم؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم، وأخدمنى هاجر»[2].

وأخرجاه من حديث هشام، ثم قال البزار: لا يعلم أسنده عن محمد عن أبى هريرة إلا هشام ورواه غيره موقوفًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن حفص، عن ورقاء -هو أبو عمر اليشكرى- عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات[3] قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾** (الصافات: ٨٩) **وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾** (الأنبياء: ٦٣) **وقوله لسارة: «إنها أختى»**.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه وانظر فتح البارى ح (٣٣٥٧).

(٢) التاريخ لابن عساكر (١٤٣/٢).

(٣) ما هى إلا تعريض وذلك في سبيل الله تعالى.

قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختى، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل به إليه، وقال: لا تكذبى قولى، فإنى قد أخبرته أنك أختى، إن ما على الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى، فلا تسلط على الكافر، قال: فغط حتى ركض برجله.

قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة إنها قالت: اللهم إن يمت يقل هى قتلته، قال: فأُرسل.

قال: ثم قام إليها، قال فقامت تتوضأ وتصلى وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى، فلا تسلط على الكافر، قال فغط حتى ركض برجله، قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبى هريرة إنها قالت: اللهم إن يمت يقل هى قتلته، قال: فأرسل.

قال: فقال فى الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إلىّ إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر.

قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة!

تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح.

وقد رواه البخارى عن أبى اليمان، عن شعيب بن أبى حمزة، عن أبى الزناد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ به مختصراً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أُبَىٌّ، حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: «**ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله، فقال: إنى سقيم، وقال: بل فعله كبيرهم هذا وقال للملك حين أراد امرأته هى أختى**».

فقوله فى الحديث: «**هى أختى**» أى فى دين الله، وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك» يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ويتعين حمله على هذا لأن لوطًا كان معهم وهو نبى عليه السلام.

وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم، معناه ما الخبر، فقالت: إن الله رد كيد الكافرين، وفى رواية: الفاجر وهو الملك، وأخدم جارية.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك، قام يصلى لله عزّ وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هى أيضًا، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرًا قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾ **(البقرة: ٤٥)** فعصمها الله وأصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام[1].

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام. والذى عليه الجمهور أنهن صدِّيقات رضى الله عنهن وأرضاهن.

ورأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يرها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبًّا شديدًا، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها، رضى الله عنها، ولله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخًا للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر، ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وذكر ابن هشام فى التيجان: أن الذى أرادها عمرو ابن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ، وكان على مصر، نقله السهيلى والله أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض اليمن، وهى الأرض المقدسة التى كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

ثم إن لوطًا عليه السلام نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك، إلى أرض الغور، والمعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً.

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل، فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وستكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، قل ما كملت ولا كانت أعم منها فى هذه الأمة المحمدية.

ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها**».

---

(١) وهكذا زوجات الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام.

قالوا: ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطًا عليه السلام واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقًا كثيراً وهزمهم وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة، وأظن مقام إبراهيم إنما سمى بذلك لأنه كان موقف جيش الخليل، والله أعلم.

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده، صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة، وإن الله بشره بذلك، وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد حرمنى الولد، فأدخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولداً.

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلى بها ما شئت فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك. فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً، وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنًا وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس، يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته. فشكرت الله عز وجل على ذلك.

وهذه البشارة انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذى به سادت العرب، وملكت جميع البلاد غربًا وشرقًا، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته ويمن سفارته وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته إلى جميع أهل الأرض. ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام.

قالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة.

ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر لله ساجداً، وقال له: قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيمًا. وأجعله رئيسًا لشعب عظيم.

وهذه أيضًا بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمًا هم الخلفاء

الراشدون الاثنا عشر، المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة،عن النبى ﷺ قال: «**يكون اثنا عشر أميراً**»، ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبى ما قال، قال: «**كلهم من قريش**»[1]. أخرجاه فى الصحيحين.

وفى رواية: «**لا يزال هذا الأمر قائماً، وفى رواية عزيزاً، حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش**».

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً، ومنهم بعض بنى العباس، وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقاً بل لا بد من وجودهم.

وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة، الذين أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا - وهو محمد بن الحسن العسكرى فيما يزعمون فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علىّ وابنه الحسن بن على، حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأخمد نار الفتنة، وسكن رحى الحرب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا، فذاك هوس فى الرؤوس، وهذيان فى النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل، اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بها حتى وضعها حيث مكة اليوم. ويقال إن ولده كان إذ ذاك رضيعاً.

فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعلم، قالت: فإذن لا يضيعنا!

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد رحمه الله فى كتاب النوادر: أن سارة غضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها فتبر قسمها.

قال السهيلى: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقب أذنها منهن. وأول من طولت ذيلها[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد بمعناه (٩٨/٥).

(٢) تستتر به لئلا تتكشف.

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل
وأمه هاجر إلى جبال فاران
وهى أرض مكة، وبنائه البيت العتيق

قال البخارى: قال عبد الله بن محمد - هو أبو بكر بن أبى شيبة - حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبَل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ **(إبراهيم: ٣٧).**

ورجعت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : «**فلذلك سعى الناس بينهما**».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : «**يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم،**

أو قال لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عينًا معينًا»[1] قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن ها هنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبى ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأَنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيت منهم.

وشبَّ الغلام وتعلَّم العربية منهم، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شَبَّ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك، قال: ذاك أبى، وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم بأخرى، ولبث عنه إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت خرج يبتغى لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: «اللهم بارك لهم فى اللحم والماء».

قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه» قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

---

(١) والعين هى التى تنبع وتجرى على وجه الأرض.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبى وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر، قال: فأصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

ثم قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا إبراهيم ابن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، وذكر تمامه بنحو ما تقدم.

وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه، وفى بعض غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات، وفيه أن إسماعيل كان رضيعًا إذ ذاك.

وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم، وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل فى أهله، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر فى موضعه.

وقد ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى، عن أبى الزناد عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «**اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**»[1].

تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبى الزناد، وتابعه عجلان، عن أبى هريرة، ورواه محمد بن عمرو عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، وهكذا رواه مسلم عن قتيبة.

---

(١) راجع كتاب أحاديث الأنبياء فى فتح البارى ح (٢٣٥٦) ج١٣ ص ٢٤٥ تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد - ط/ مكتبة الكليات الأزهرية ومكتبة القاهرة - مصر.

وفى بعض الألفاظ: «**اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم**» والقدوم هو الآلة، وقيل موضع.

وهذا اللفظ لا ينافى الزيادة على الثمانين، والله أعلم، لما سيأتى من الحديث عند ذكر وفاته، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة**». رواه ابن حبان فى صحيحه.

وليس فى هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل، ولم يذكر فى قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات: أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف تركهم من حين صغر الولد – على ما ذكر – إلى حين تزويجه لا ينظر فى حالهم، وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم فى غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة؟!

وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشىء من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح فى سورة الصافات[1].

قصة الذبيح

قال الله تعالى: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ** ﴾ **(الصافات: ٩٩، ١١٣).**

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحًا، فبشره الله بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام، لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** ﴾ **(الصافات: ١٠٢)** أى شب وصار يسعى فى مصالحه

---

(١) يقصد تفسيره (تفسير القرآن العظيم) المعروف بتفسير ابن كثير وأكد فيه أن الذبيح إسماعيل إذ بعض علماء المسلمين يؤكد أنه إسحاق والصحيح ما ذكره مؤلفنا.

كأبيه، قال مجاهد: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ (الصافات: ١٠٢) أى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل.

فلما كان هذا، رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعًا: «**رؤيا الأنبياء وحى**»[1] قاله عُبَيْد بن عُمَيْر أيضًا.

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر، وقد طعن فى السن، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله فى ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجًا، ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره، أجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرًا: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (الصافات: ١٠٢).

فبادر الغلام الحليم، سر والده الخليل إبراهيم، فقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٢)، وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ (الصافات: ١٠٣) قيل: أسلما: أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك، وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر، والمعنى: «تله للجبين» أى ألقاه على وجهه، قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حال ذبحه، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك، وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاصقا بالأرض «وأسلما» أى سمى إبراهيم وكبَّر، وتشهد الولد للموت، قال السدى وغيره: أمرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا، ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس، والله أعلم.

فعند ذلك نودى من الله عز وجل: ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ (الصافات: ١٠٤، ١٠٥) أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلت ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبذول للضيفان! ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ (الصافات: ١٠٦) أى الاختبار الظاهر البين.

وقوله: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠٧) أى وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

---

(٢) الحديث رواه البخارى بسنده عن ابن عباس راجع فتح البارى من تحقيقنا ح (٨٥٩).

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن، رآه مربوطًا بسمرة فى ثبير، قال الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفًا[1]، وقال سعيد بن جبير: كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر، وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه[2]. رواه ابن أبى حاتم. قال مجاهد: فذبحه بمنى، وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام.

فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلاً؟ وعن الحسن أنه كان تيسًا من الأروى واسمه جرير، فلا يكاد يصح عنهما.

ثم غالب ما ها هنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات، وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر، وأنه فدى بذبح عظيم، وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشًا.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مسافح، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عليه أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لمَ دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لى رسول الله: «**إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى**».

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند ميزاب الكعبة قد يبس.

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل، لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل، لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ **(الصافات: ١١٢)**، ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما ها هنا قطعًا لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة من المعربة بكره إسحاق، فلفظة إسحاق ها هنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل.

---

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبرى (٢٧٧/١).

(٢) الإمام أحمد فى مسنده (٦٨/٤).

وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذى ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كبيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم- من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب.

وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظى على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ **(هود: ٧١)** قال فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟

هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة. والله أعلم.

وقد اعترض السهيلى على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ** ﴾ جملة تامة، وقوله: ﴿ **وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ **(هود: ٧١)** جملة أخرى ليست فى حيز البشارة، قال: لأنه لايجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر، فلا يجوز أن مررت بزيد ومن بعده عمرو، حتى يقال ومن بعده بعمرو وقال: فقوله: ﴿ **وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ **(هود: ٧١)** منصوب بفعل مضمر تقديره ﴿ **ووهبنا لإسحاق يعقوب** ﴾ وفى هذا الذى قاله نظر.

ورجح أنه إسحاق، واحتج بقوله: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** ﴾ **(الصافات: ١٠٢)** قال: وإسماعيل لم يكن عنده وإنما كان فى حال صغره هو وأمه بجبل مكة فكيف يبلغ معه السعى؟

وهذا أيضًا فيه نظر، لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكبًا البراق إلى مكة، يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله تعالى أعلم[1].

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق كعب الأحبار، وروى عن عمر والعباس، وعلى وابن مسعود، ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد، وعطاء والشعبى ومقاتل وعبيد بن عمير، وأبى ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق، والزهرى والقاسم وابن أبى بردة، ومكحول، وعثمان بن حضر والسدى والحسن وقتادة، وأبى الهذيل وابن سابط، وهو اختيار ابن جرير، وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس.

---

(١) فقد روت لنا السنن أيضا أنه ذهب إلى هناك بعد أن كبر إسماعيل مرتين، فبالأحرى أن يذهب له وهو صغير يتفقد شأنه إذ العطف على الصغير أحرى وأوجب.

ولكن الصحيح عنه – وعن أكثر هؤلاء – أنه إسماعيل عليه السلام قال مجاهد وسعيد والشعبى ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل، وقال ابن أبى حاتم: سألت أبى حاتم: وروى عن على وابن عمر وأبى هريرة، وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن، ومجاهد والشعبى ومحمد بن كعب، وأبى جعفر محمد بن على وأبى صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وحكاه البغوى أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبى وأبى عمرو بن العلاء.

قلت: وروى عن معاوية، وجاء عنه: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يابن الذبيحين: فضحك رسول الله ﷺ[1].

وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار، وكان الحسن البصرى يقول: لا شك فى هذا.

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى، عن محمد بن كعب: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام – يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ – فقال له عمر: إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت.

ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل: والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها فى كتابنا التفسير، ولله الحمد والمنة.

---

(١) ذكرها الحاكم فى المستدرك على الصحيحين بسند ضعيف ويقصد بالذبيح الآخر أباه عبد الله حينما نذر أبوه أن يذبح أحد أبنائه إن رزقه الله بعشرة من الولد راجع السيرة النبوية لابن هشام تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد – ط/ دار الجيل بيروت.

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ (الصافات: ١١٢، ١١٣).

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: ٦٩، ٧٣).

وقال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر: ٥١، ٥٦).

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (الذاريات: ٢٤، ٣٠).

يذكر تعالى: أن الملائكة -- قالوا: وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل -- لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافًا فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلاً سمينًا من خيار بقره[1]، فلما قربه إليهم وعرضه عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ (هود: ٧٠) إبراهيم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود: ٧٠) أى لندمر عليهم، فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا لله عليهم، وكانت نائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشارًا بذلك، قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧١) أى

(١) وهو الذى أطلق عليه سبحانه وتعالى فى القرآن ﴿فجاء بعجل سمين﴾ وهو العجل الحنيذ أيضا ﴿قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ والحنيذ المشوى الذي يقطر دهنه.

بشرتها الملائكة بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ (الذاريات: ٢٩) أى فى صرخة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أى كما يفعل النساء عند التعجب وقالت: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ (هود: ٧٢) أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضًا، وهذا بعلي، أى زوجي، شيخًا؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه، ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٢، ٧٣).

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها، ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ (الحجر: ٥٤، ٥٥) أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما ﴿ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ (الحجر: ٥٣) وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر، وقال فى الآيه الأخرى ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧١).

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ، وهو المشوى، رغيفًا من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن، وعندهم أنهم أكلوا، وهذا غلط محض، وقيل: كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى فى الهواء.

وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم: أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة، وأبارك عليها وأعطيك منها ابنًا، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه، فخر إبراهيم على وجهه - يعنى ساجداً - وضحك قائلاً فى نفسه: أبعد مائة سنة يولد لى غلام؟ أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة؟!.

وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك، فقال الله لإبراهيم: بحق إن امرأتك سارة تلد لك غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل، وأوثقه ميثاقى إلى الدهر وخلفه من بعده، وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيمًا وأجعله رئيسًا لشعب عظيم. وقد تكلمنا على هذا بما تقدم. والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧١) دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب، أى يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب

وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله.

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ **(الأنعام: ٨٤)**.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ **(مريم: ٤٩)**.

وهذا إن شاء الله ظاهر قوى، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان ابن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه، عن أبى ذر، قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أى؟ قال: «**المسجد الأقصى**» قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**» قلت: ثم أى؟ قال: «**ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد**».

وعند أهل الكتاب: أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله.

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو - إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا، قال فى دعائه:

كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ **(إبراهيم: ٣٥، ٤١)**.

وما جاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ **(ص: ٣٥)**، وكما سنورده فى قصته - فالمراد من ذلك والله أعلم، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه، وهذا القول لم يوافَق عليه ولا سُبق إليه.

ذكر بنائه البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٦، ٢٧).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٤، ١٢٩).

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد لعموم الناس، يعبدون الله فيه، وبوأه الله مكانه، أى أرشده إليه ودله عليه.

وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره: أنه أرشد إليه بوحى من الله عز وجل، وقد ذكرنا فى صفة خلق السموات: أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السموات السبع، كما قال بعض السلف: إن فى كل سماء بيتًا يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض.

فأمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبنى له بيتًا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في الصحيحين[1]، «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**».

---

(١) البخارى ح (٣٤٢٥).

ولم يجئ فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًّا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك فى هذا بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ **(الحج: ٢٦)** فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله، المقرر فى قدره، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد ذكر أن آدم نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة طافت به أربعين يومًا أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل. وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها، فأما إن ردها الحق فهى مردودة.

وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ **(آل عمران: ٩٦)** أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى، البيت الذى ببكة، وقيل محل الكعبة ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ **(آل عمران: ٩٧)** أى على أنه بناء الخليل، والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به ويتمسكون بسننه، ولهذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ **(آل عمران: ٩٧)** أى الحجر الذى كان يقف عليه قائمًا لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور، ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء، كما ذكر فى حديث ابن عباس الطويل.

وقد كان هذا الحجر ملصقًا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأخره عن البيت قليلاً، لئلا يشغل المصلين عنده الطائفون بالبيت، واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا، فإنه قد وافقه ربه فى أشياء: منها قوله لرسوله ﷺ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ **(البقرة: ١٢٥)** (1) وقد كانت آثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام، وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة:

وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه ... وراق ليرقى فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم فى الصخر عنده ... على قدميه حافيًا غير ناعل

يعنى أن رجله الكريمة غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أى فى حال

---

(١) راجع تفسير الدر المنثور للإمام السيوطى ١١٨/١ فقد خرجه فى أكثر من موضع.

قولهما : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل، وهما يسألان من الله عز وجل السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧، ١٢٨).

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع، فى واد غير ذى زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزرع والثمار، وأن يجعله حرمًا محرمًا وآمنًا محتمًا.

فاستجاب الله وله الحمد له مسألته، ولبى دعوته، وآتاه طلبته، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٦٧) وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (القصص: ٥٧).

وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم، أى من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة، لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية، سعادة الأولى والأخرى.

وقد استجاب الله له : فبعث فيهم رسولاً وأى رسول! ختم به أنبياءه ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء، لشرفه فى نفسه وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته، وكريم محتده وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده.

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض، أن يكون منصبه ومحله وموضعه، فى منازل السموات ورفيع الدرجات، عند البيت المعمور، الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور، الذى يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور.

وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بنائه للبيت، وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية، فمن أراد فليراجعه ثَم، ولله الحمد.

فمن ذلك ما قال السدى: لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت لم يدريا أين مكانه، حتى بعث الله ريحًا يقال لها الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة من أساس البيت الأول، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس، وذلك حين يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ (الحج: ٢٦).

فلما بلغا القواعد وبنيا الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب لى حجراً حسناً أضعه ها هنا، قال يا أبت إنى كسلان تعب، قال على ذلك فانطلق، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة[1]، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاء إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك، فبنيا وهما يدعوان الله: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ **(البقرة: ١٢٧).**

وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة أجبل، وأن ذا القرنين - وكان ملك الأرض إذ ذاك - مر بهما وهما يبنيانه فقال: من أمركما بهذا؟ فقال إبراهيم: الله أمرنا به، فقال: وما يدرينى بما تقول؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق، وذكر الأزرقى: أنه طاف مع الخليل بالبيت.

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش، فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ما هى عليه اليوم.

وفى الصحيحين من حديث مالك، عن ابن شهاب، عن سالم: أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر أخبره عن ابن عمر، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟**» فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: «**لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت**»، وفى رواية: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، أو قال بكفر، لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر**»[2].

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله فى أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة، أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار فى جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية، كما هو مشاهد إلى اليوم.

ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك.

ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس فى ردها

---

(١) زهرة بيضاء.

(٢) راجع ح (١٥٨٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى من تحقيقنا.

على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة، يعنى: كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد، فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم.

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٢٤) لما وفى ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة، جعله الناس إمامًا يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية فى نسبه، وخالدة فى عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام وسلمت إليه الإمامة بزمام، واستُثنى من نيلها الظالمون، واختُص بها من ذريته العلماء العاملون، كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٧).

وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ٨٤، ٨٧).

فالضمير فى قوله «ومن ذريته» عائد على إبراهيم على المشهور، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل فى الذرية تغليبا، وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمنا فى قصته. والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (الحديد: ٢٦).

فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل، فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سنية لا تضاهى، ومرتبة عليه لا تباهى، وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد له يعقوب – وهو إسرائيل – الذى ينسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذى بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بنى إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى: ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بنى آدم فى الدنيا والآخرة، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، المكى ثم المدنى، صلوات الله وسلامه عليه.

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت عنه فى صحيح مسلم أنه قال: «**سأقوم مقامًا يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم**».

فمدح إبراهيمَ أباه مدحة عظيمة فى هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق، فى هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق.

وقال البخارى: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن منصور عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**»[1]. ورواه أهل السنن من حديث منصور به.

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ **(البقرة: ٢٦٠).**

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابًا بسطناها فى التفسير وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل، أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور،واختلفوا فى تعيينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه فى بعض، ثم يقسمه قسمًا ويجعل على كل جبل منهم جزءاً ففعل ما أمر به، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن،فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل ريشة تأتى إلى أختها، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذى يقول للشىء كن فيكون، فأتين إليه سعيًا، ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا.

ويقال إنه أمر أن يأخذ رءوسهن فى يده، فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان، فلا إله إلا الله.

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علمًا يقينًا لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين! فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

(١) راجع فتح البارى بشرح صحيح البخارى ح (٣٣٧١) من تحقيقنا.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٥، ٦٨).

ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين، كون الخليل على ملتهم وطريقتهم، فبرأه الله منهم، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (آل عمران: ٦٥) أى فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة؟ ولهذا قال: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٥) إلى أن قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٧).

فبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص، والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية.

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٠، ١٤١).

فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا، وبين أنه إنما كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن من المشركين، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ

بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ (آل عمران: ٦٨) يعنى الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه، ومن تمسك بدينه من بعدهم، ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ يعنى محمداً ﷺ، فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل، وكمله الله تعالى له، وأعطاه ما لم يعط نبيًا ولا رسولاً من قبله.

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١، ١٦٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٠، ١٢٣).

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: «**قاتلهم الله! والله إن استقسما بالأزلام قط!**»[1]. لم يخرجه مسلم.

وفى بعض ألفاظ البخارى: «**قاتلهم الله! لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط**»[2].

وقوله: ﴿ أُمَّةً ﴾ (النحل: ١٢٠)، أى قدوة إمامًا مهتديًا داعيًا إلى الخير، يقتدى به فيه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أى خاشعًا له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته، ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى مخلصًا على بصيرة، ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أى قائمًا بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله، ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته، واتخذه خليلاً، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (النساء: ١٢٥).

يرغب تعالى فى اتباع إبراهيم عليه السلام، لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه، ومدحه تعالى بذلك فقال: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ (النجم: ٣٧) ولهذا اتخذه الله خليلاً، والخلة هى غاية المحبة كما قال بعضهم:

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليلاً

وهكذا نال هذه المرتبة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه

---

(١) فتح البارى ح (٣٣٥٢).

(٢) المرجع السابق ح (١٦٠١).

عليه، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلى وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أيها الناس، إن الله اتخذنى خليلاً**».

وقال أيضاً فى آخر خطبة خطبها «**أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»(١). أخرجاه من حديث أبى سعيد.

وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود، وروى البخارى فى صحيحه: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن عمرو بن ميمون، قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿ **وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ **(النساء: ١٢٥)** فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم!.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى بمكة، حدثنا عبد الله الحنفى، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتنظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول: عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلاً! فإبراهيم خليله، وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً. وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته، وقال آخر: آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلم وقال: «**قد سمعت كلامكم وعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى كليمه وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته، وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وإنى حبيب الله ولا فخر، ألا وإنى أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر**».

هذا حديث غريب من هذا الوجه(٢)، وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم.

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم؟ والكلام لموسى؟ والرؤية لمحمد؟ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمود بن خالد السلمى، حدثنا الوليد عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى فى قلبه الوجل حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء.

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ح (١٩٠٤) من تحقيقنا.

(٢) فيه زمعة بن صالح ضعفوه - راجع الضعفاء الكبير للعقيلى من مراجعتنا.

وقال عبيد بن عمير: كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يومًا يلتمس إنسانًا يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائمًا فقال: يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير إذنى؟ قال: دخلتها بإذن ربها، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ملك الموت، أرسلنى ربى إلى عبد من عباده، أبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً، قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أبرح له جاراً، حتى يفرق بيننا الموت، قال: ذلك العبد أنت، قال: أنا! قال: نعم، قال: فبم اتخذنى ربى خليلاً؟ قال بأنك تعطى الناس ولا تسألهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقد ذكره الله تعالى فى القرآن كثيراً فى غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل: إنه مذكور فى خمسة وثلاثين موضعًا، منها خمسة عشر فى البقرة وحدها.

وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصًا من بين سائر الأنبياء فى آيتى الأحزاب والشورى، وهما قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ **(الأحزاب: ٧)**، وقوله: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ **(الشورى: ١٣)** الآية.

ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ﷺ.

وهو الذى وجده عليه السلام فى السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وما وقع فى حديث شريك بن أبى نمير عن أنس فى حديث الإسراء، من أن إبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة، فمما انتقد على شريك فى هذا الحديث، والصحيح الأول.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن**»[1]. تفرد به أحمد.

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذى قال فيه:

«**وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم**»[2]. رواه مسلم من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه.

وهذا هو المقام المحمود الذى أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «**أنا سيد**

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٣٢ وراجع كتاب تأملات فى سورة يوسف للأستاذ/ أحمد رضوان.

(٢) حديث طويل رواه مسلم في صحيحه ٦/٤٨/٢٧٣.

ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: «**أنا لها، أنا لها**» الحديث بتمامه.

وقال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبيد الله، حدثنى سعيد، عن أبى هريرة قال: قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**» فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**أفعن معادن العرب تسألونى؟**» قالوا: نعم، قال: «**فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا**»[1].

وهكذا رواه البخارى فى مواضع أخر، ومسلم والنسائى من طرق، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله – وهو ابن عمر العمرى به.

ثم قال البخارى: ثم قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله، عن سعيد، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ.

قلت: وقد أسنده فى موضع آخر من حديثهما، وحديث عبيدة بن سليمان، والنسائى من حديث محمد بن بشر، أربعتهم عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ «**ولم يذكروا أباه**».

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمر، حدثنا أبو سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله**» تفرد به أحمد.

وقال البخارى: إسحاق بن منصور، أخبرنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**». تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبيد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر به.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى مغيرة ابن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ: «**يحشر الناس عراة غرلا، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام**» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ **(الأنبياء: ١٠٤)** [2]، فأخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان الثورى وشعبة بن

---

(٣) رواه البخارى ح (٣٣٧٤) فتح البارى من تحقيقنا.

(٢) المرجع السابق ح (٣٣٤٩).

الحجاج، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود، الذى يغبطه به الأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذى قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو نعيم، حدثنا سفيان - هو الثورى - عن مختار بن فُلْفُل[1]، عن أنس بن مالك، قال: قال رجل للنبى ﷺ: يا خير البرية، فقال: «**ذاك إبراهيم**»[2] فقد رواه مسلم من حديث الثورى وعبد الله بن إدريس، وعلى بن مسهر ومحمد بن فضيل، أربعتهم عن المختار بن فلفل.

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام، كما قال: «**لا تفضلونى على الأنبياء**» وقال: «**لا تفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور؟**».

وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أبى بن كعب فى صحيح مسلم: «**وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم**».

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أمر المصلى أن يقول فى تشهده، ما ثبت فى الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره، قال: قلنا يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: «**قولوا اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**».

وقال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾**(النجم: ٣٧)** قالوا: وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾**(البقرة: ١٢٤)** قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد، فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك،

---

(١) وقعت فى بعض النسخ (ابن مختار) والصحيح المختار بن فلفل.

(٢) رواه أحمد فى مسنده ١٧٨/٣، ١٨٤.

والاستنشاق، وفرق[1]، وفي الجسد: تقليم الأظفار وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء[2]. رواه ابن أبي حاتم.

وقال: وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك.

قلت: وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الفطرة خمس: الختان، والاستحداد[3]، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط**»[4].

في صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع، عن زكريا بن أبي زائدة، عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحجبي، عن طلق بن حبيب العنزي، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**عشرة من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء، يعني الاستنجاء**»[5].

وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان.

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة، عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين، من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ.

فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ **(النجم: ٣٧)**

ذكر قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ومحمد بن موسى القطان قالا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة قصرا - أحسبه قال من لؤلؤة - ليس فيه فصم ولا وهْي[6] أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نُزُلاً**» قال البزار: وحدثنا أحمد بن جميل المروزي، حدثنا النضر بن شُمَيْل، حدثنا حماد بن سلمة، عن سماك عن عكرمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم من رواه عن حماد بن سلمة فأسنده، إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل، وغيرهما يرويه موقوفاً.

قلت: لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح. ولم يخرجوه[7].

---

(١) أي في الرأس. (٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/٢٦٦. (٣) حلق العانة.

(٤) راجع السنن الكبرى للنسائي ١/١٠. (٥) السنن لأبي داود ١/١٣ والبراجم في الحديث مفاصل الأصابع.

(٦) يعني صحيحا سليما لا عيب فيه. (٧) أي أصحاب كتب الصحاح.

ذكـر صفـة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس وحجين قالا: حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**عُرض عليَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية**»(1). تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ.

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ورأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم**»، قالوا له: فإبراهيم؟ قال: «**انظروا إلى صاحبكم**» يعني نفسه.

وقال البخاري: حدثنا بيان بن عمرو، حدثنا النضر، أخبرنا ابن عون، عن مجاهد، أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال وأنه مكتوب بين عينيه كافر أو «**ك ف ر**»، فقال: لم أسمعه، ولكنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «**أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوط بخلبة كأني أنظر إليه انحدر في الوادى**»(2).

ورواه البخارى أيضًا ومسلم، عن محمد بن المثنى، عن ابن أبى عدى، عن عبد الله بن عون به، وهكذا رواه البخارى أيضًا فى كتاب الحج وفى اللباس، ومسلم، جميعًا عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى، عن عبد الله بن عون به.

ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل فى عمره

ذكر ابن جرير فى تاريخه(3): أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان، وهو - فيما قيل - الضحاك الملك المشهور، الذى يقال إنه ملك ألف سنة، وكان فى غاية الغشم والظلم.

وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا، وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك، فقالوا: يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن

---

(1) رواه الإمام أحمد ٣/٣٢٤ بسند فيه ضعف وراجع لابن حجر طبقات المدلسين من تحقيقنا.

(2) رواه البخارى وراجع لنا كتاب مفاتيح القارى لأبواب فتح البارى.

(3) يقصد تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبرى.

النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين، فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين، فحماه، الله عز وجل وصانه من كيد الفجار، وشب شبابًا باهرًا وأنبته الله نباتًا حسنًا، حتى كان من أمره ما تقدم.

وكان مولده بالسوس، وقيل ببابل، وقيل بالسواد من ناحية كوثى، وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقى دمشق، فلما أهلك الله نمرود على يديه هاجر إلى حران، ثم إلى أرض الشام، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا، وولد له إسماعيل وإسحاق، وماتت سارة قبله بقرية حبرون التى فى أرض كنعان، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام، ورثاها رحمها الله، واشترى من رجل من بنى حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك.

قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه «رفقا» بنت بتوئيل بن ناحور ابن تارخ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل.

قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام «قنطورا» فولدت له: زمران، ويقشان، ومادان، ومدين، وشياق، وشوح، وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب، فى صفة مجىء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخبارًا كثيرة الله أعلم بصحتها، وقد قيل إنه مات فجأة، وكذا داود وسليمان والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك.

قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن مائة وخمس وسبعين، وقيل وتسعين سنة، ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى عند امرأته سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتى سنة كما قاله ابن الكلبى.

فقال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه: أنبأنا المفضل بن محمد الجندى بمكة، حدثنا على بن زياد اللخمى، حدثنا أبو قرة، عن ابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة**»(1).

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمرى عن يحيى بن سعيد، عن سعيد، عن أبى هريرة موقوفًا.

(1) راجع تاريخ ابن عساكر والقدوم قيل هي الآلة وقيل اسم موضع.

ثم قال ابن حبان: ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم، أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن ابن عجلان، عن أبيه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم حين بلغ عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، واختتن بقدوم**».

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، عن أبيه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ. ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال: القدوم اسم القرية.

قلت: الذى فى الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة، وفى رواية وهو ابن ثمانين سنة، وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم.

وقال محمد بن إسماعيل الحسانى الواسطى: زاد فى تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات، حدثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: كان إبراهيم أول من تسرول[1]، وأول من فرق، وأول من اتحد، وأول من اختتن بالقدوم، وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأول من قرى الضيف، وأول من شاب. هكذا رواه موقوفًا، وهو أشبه بالمرفوع خلافًا لابن حبان والله أعلم.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول (الناس ضَيَّف) الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص الشارب، وأول الناس رأى الشيب فقال: يا رب ما هذا؟ فقال الله تبارك وتعالى: «**وقار (يا إبراهيم)**» فقال: رب زدنى وقاراً[2].

وزاد غيرهما: وأول من قص شاربه، وأول من استحد، وأول من لبس السراويل.

فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولده يعقوب فى المربعة التى بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم، وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا، أن قبره بالمربعة تحقيقاً، فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم، فينبغى أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل، وأن نجل أن يداس فى أرجائها، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قال: وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة:

---

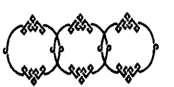
(1) أى لبس السراويل زيادة فى التستر.

(2) موطأ الإمام مالك ٤/٣/٤٩ من تحقيقنا.

إلهي جهولا أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخراً من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له: إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدهما «قنطورا» بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ولم يسم السادس، ثم تزوج بعدهن «حجون» بنت أمين، فولدت له خمسة: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه: «التعريف والإعلام»[1].



(1) راجع لنا مقدمة السيرة النبوية لابن هشام – ط/ دار الجيل – بيروت.

قصة لوط عليه السلام

ومما وقع فى حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة لوط عليه السلام، وما حل بقومه من النقمة العميمة.

وذلك أن لوطا بن هاران بن تارح - وهو آزر[1] كما تقدم - ولوط ابن أخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا، ويقال إن هاران هذا هو الذى بنى حران وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب والله أعلم.

وكان لوط قد تزوج من محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون.

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم، وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة فى العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين. ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم فى غير ما موضع فى كتابه المبين.

قال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ **(الأعراف: ٨٠ - ٨٤).**

وقال تعالى فى سورة هود: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ**

---

(١) اى أن تارح هو آزر.

وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ **(هود: ٦٩ - ٨٣).**

وقال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ * فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ **(الحجر: ٥١ - ٧٦).**

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ **(الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥).**

وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ

شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ (النمل: ٥٤ – ٥٨).

وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢٨ – ٣٥).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات: ١٣٣– ١٣٨).

وقال تعالى بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (الذاريات: ٣١ – ٣٧).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ٣٣ – ٤٠).

وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السور فى التفسير.

وقد ذكر الله لوطا فى مواضع أخر من القرآن، تقدم ذكرها مع نوح وعاد وثمود.

والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، وما أحل الله بهم، مجموعًا من الآيات والآثار، وبالله المستعان.

وذلك أن لوطا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يرتدعوا[1]

---

(١) فى إحدى النسخ ولم يرعووا.

عن غيهم وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم - إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل: ٥٦) فجمعوا غاية المدح ذمًّا يقتضى الإخراج! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج.

فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم فى محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملح أجاج.

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا، ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها.

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون فى ناديهم، وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم، المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسيهم،وربما وقعت الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل، وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضى، ولا راموا فى المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٩) فطلبوا منه وقوع ما حذرهم منه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم.

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين.

فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الذاريات: ٣١، ٣٤) وقال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣١، ٣٢)، وقال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ **(هود: ٧٤)**، وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ **(هود: ٧٥، ٧٦)** أى أعرض عن هذا وتكلم غيره، فإنه قد حتم أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى قد أمر به من لا يُرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة ومحمد بن إسحاق[1]: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: فأربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا. قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ **(العنكبوت: ١٣٢)** الآية.

وعند أهل الكتاب أنه قال: يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحًا؟ فقال الله: «لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحًا» ثم تنازل إلى عشرة فقال الله: «لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون».

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ **(هود: ٧٧)** قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، فى صور شبان حسان، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم. فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس، و ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ **(هود: ٧٧)** قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه. وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم فى غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحداً، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وذكر قتادة: أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها، فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم، وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون فى غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

---

(١) يقصد محمد بن إسحاق بن يسار صاحب أصل سيرة ابن هشام.

وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: اسم الكبرى «ريثا» والصغرى «زغرتا». فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟فقالت لهم: نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم. فَرَقَتْ[1] عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه! أرادك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا: خل عنا فلنضف الرجال. فجاء بهم لم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط. فجاءه قومه يُهرعون إليه.

وقوله: ﴿ **وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ **(هود: ٧٨)** أى هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة، ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً، لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد فى الحديث، وكما قال تعالى: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ **(الأحزاب: ٦)** وفى قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ **(الشعراء ١٦٥، ١٦٦).**

وهذا هو الذى نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب.

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم كما أخطأوا فى قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده. وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبيطاً عظيماً.

وقوله: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ﴾ **(هود: ٧٨)** نهى لهم عن تعاطى ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء[2].

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه.

فقال قومه، عليهم لعنة الله الحميد المجيد، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ **(هود: ٧٩).** يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا فى نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ذى العذاب الأليم. ولهذا قال عليه السلام: ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ **(هود: ٨٠).**

---

(١) فى نسخة (شفقة).

(٢) فى إحدى النسخ: أعتياء.

ود أن لو كـان له بهم قـوة، أو له منعـة وعـشـيـرة ينصـرونه عليـهـم، ليـحل بهـم مـا يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعًا: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى**»[1]. ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة[2].

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمة الله على لوط، إن كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه**».

وقال تعالى: ﴿**وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ **(الحجر: ٦٧، ٧١)**. فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم.

هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعوون، بل كلما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ماحم به القدر مما هم إليه صائرون وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون.

ولهذا قال تعالى مقسمًا بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ **(الحجر: ٧٢)** وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ **(القمر: ٣٦، ٣٨)**.

ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبى الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه - وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم فى إلحاح وإنحاح، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال (ما قال) ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ **(هود: ٨٠)** لأحللت بكم النكال.

قالت الملائكة: ﴿**يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ**﴾ **(هود: ٨١)** وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن!.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ **(القمر: ٣٧، ٣٨)**.

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام، آمرين له بأن يسرى هو وأهله

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ح (٣٣٧٢).

(٢) أيضا وبنفس السند رواه ابن أبى الدنيا.

من آخر الليل: ﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ يعنى عند سماع صوت العذاب إذا أحل بقومه، وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة (المؤخرة) لهم.

وقوله: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾ على قراءة النصب: يحتمل أن يكون مستثنى من قوله ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ كأن يقول إلا امرأتك فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾ أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر فى المعنى. والله أعلم.

قال السهيلى: واسم امرأة لوط «والهة»، واسم امرأة نوح «والغة».

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائن مريب: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ **(هود: ٨١).**

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله، وهم ابنتاه، لم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال إن امرأته خرجت معه. فالله أعلم.

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

وعند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده، وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم، فقالوا اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها، ثم نحل بهم العذاب. فذكروا أنه ذهب إلى قرية «صوعر»[1] التى يقول الناس: غور زغر، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ **(هود: ٨٢، ٨٣).**

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن – وكن سبع مدن – بمن فيهن من الأمم، فقالوا إنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل أربعة آلاف[2] نسمة، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ **(هود: ٨٢)** والسجيل فارسى معرب الشديد الصلب القوى، ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أى يتبع بعضها بعضًا فى نزولها عليهم من السماء. ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أى معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه، كما قال: ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ **(الذاريات: ٣٤)** وكما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ

---

(١) أو قرية صغر.

(٢) وفى نسخة أربعة آلاف ألف نسمة – ولا شك فى خطئها.

الْمُنذَرِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٣)، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ (النجم: ٥٣، ٥٥) أى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل، متتابعة، مسومة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه، من الحاضرين منهم فى بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عن لوط من الضيفان.

كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠) أى خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة - حاشا وكلا - ولمَ فإن الله لا يقدر على نبى قط أن تبغى امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبى قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرًا.

قال الله تعالى فى قصة الإفك، لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، زوج رسول الله ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر، ووعظ وحذر قال فيما قال تعالى:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥، ١٦).

أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

وقوله هنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٣) أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم.

ولها ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم، سواء كان محصنًا أو لا، ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة.

واحتجوا أيضًا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**[1].

---

(١) الحديث فيه عمرو بن أبى عمرو قال عنه ابن حجر فى تقريب التهذيب (ثقة ربما وهم) والحديث رواه أبو داود ٢/٤٦٨.

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة، كما فعل بقوم لوط، لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾.

وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته وفي انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ **(الشعراء: ٨، ٩)**.

وقال الله تعالى: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ **(الحجر: ٧٣ - ٧٧)** أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم[1]، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالة غامرة؟.

كما روى الترمذي وغيره مرفوعًا: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» ثم قرأ: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾.

وقوله: ﴿ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴾ **(الحجر: ٧٦)** أي لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن كما قال: ﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ **(الصافات: ١٣٧، ١٣٨)**، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ **(العنكبوت: ٣٥)**، وقال تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ **(الذاريات: ٣٥، ٣٧)**.

أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر من محارم الله وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق الله له من الزوجات الحلال، والجواري من السراري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ **(هود: ٨٣)**.

(١) راجع الدر المنثور للإمام السيوطي ٤/١٣٠ والحديث رواه الترمذي ٣١٢٧/١٦.

قصة مدين

قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة قوم لوط: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ **(الأعراف: ٨٥، ٩٣).**

وقال تعالى بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ **(هود: ٨٤، ٩٥).**

وقال تعالى بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ **(الحجر: ٧٨، ٧٩).**

وقال تعالى بعد قصتهم: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(الشعراء: ١٧٦، ١٩١)

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم «مدين» التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلى ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل.

وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن، ذكره ابن إسحاق.

قال: ويقال له بالسريانية يترون، وفى هذا نظر، ويقال شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم، ويقال شعيب ابن صيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، وقيل غير ذلك فى نسبه.

قال ابن عساكر: ويقال جدته، ويقال أمه، بنت لوط.

وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق.

وعن وهب بن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار، وهاجرا معه إلى الشام، فزوجهما بنتى لوط عليه السلام. ذكره ابن قتيبة.

وفى هذا كله نظر. والله تعالى أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة سلمة بن سعد العنزى: «أنه قدم على رسول الله ﷺ، فأسلم، وانتسب إلى عنزة، فقال: نعم الحى عنزة مبغى عليهم منصورون رهط شعيب وأحبار موسى».

فلو صح هذا لدل على أن شعيبًا صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب عاربة يقال لهم عنزة، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل. والله أعلم.

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال: أربعة من العرب: «**هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر**»[1].

---

(١) راجع كتاب الأنبياء فى فتح البارى شرح صحيح البخارى من تحقيقنا - ط/ دار الغد العربى.

وكان بعض السلف يسمى شعيبًا خطيب الأنبياء، يعنى لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: «**ذاك خطيب الأنبياء**»(1).

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها.

وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولى الحميد.

كما قال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ **(الأعراف: ٨٥)** أى دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم ينقل إلينا تفصيلها، وإن كان هذا اللفظ دل عليها إجمالاً.

﴿ **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** ﴾ **(الأعراف: ٨٥).**

أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ **ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** ﴾ **(الأعراف: ٨٥، ٨٦)** أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل.

قال السدى فى تفسيره عن الصحابة: ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** ﴾ **(الأعراف: ٨٦)** أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كانوا قومًا طغاة بغاة يجلسون على الطريق، يبخسون الناس، يعنى يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك.

﴿ **وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ **(الأعراف: ٨٦)** نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية، والمعنوية الدينية.

---

(١) فقد بين لهم رسالته ووضحها واستدل عليها بما لا مزيد عليه من التوضيح النظرى والعقلى.

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٦) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه، كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود: ٨٤) أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما فى أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم.

وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة الخاسرة!.

فنهاهم أولاً عن تعاطى ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم، وعذابه الأليم فى أخراهم، وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (هود: ٨٥، ٨٦).

قال ابن عباس والحسن البصرى: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس، وقال ابن جرير: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان، خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف، قال: وقد روى هذا عن ابن عباس[1].

وهذا الذى قاله وحكاه حسن، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ (المائدة: ١٠٠) يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام ممحوق وإن كثر، كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة: ٢٧٦).

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قلٍّ**»[2]. رواه أحمد، أى إلى قلة.

وقال رسول الله ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**»[3].

والمقصود أن الربح حلال مبارك فيه وإن قَلَّ، والحرام لا يجدى وإن كثر، ولهذا قال نبى الله شعيب: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ٨٦).

وقوله: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (هود: ٨٦) أى افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيرى.

---

(١) راجع فى هذا الموضوع تفسير ابن جرير الطبرى فقد زاد وأفاض.

(٢) راجع مستدرك الحاكم على الصحيحين ٣٧/٢.

(٣) الحديث رواه ابن ماجه ١٧/١٢.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود: ٨٧) يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم: أصلاتك هذه التى تصليها، هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو ألا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود: ٨٧) قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير: يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

(هود: ٨٨)

هذا تلطف معهم فى العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة.

يقول لهم: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أيها المكذبون ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أى على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم، ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعنى النبوة والرسالة، يعنى وعَمَّى عليكم معرفتها، فأى حيلة لى فيكم؟

وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء.

وقوله: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أى لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه.

وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هى المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمنهم، وخطباؤهم الجاهلون، قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٤٤)[1] وذكرنا عندها فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالرجل فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه** - أى تخرج أمعاؤه من بطنه - **فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**».

وهذه صفة مخالفى الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء، والألباء من العلماء، الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبى الله شعيب: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ (هود: ٨٨) أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى.

---

(١) ويقول الشاعر أيضا: يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم... إلخ

﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أى فى جميع أحوالى ﴿إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨) أى عليه أتوكل فى سائر الأمور، وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى. وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[1].

أى لا يحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال، نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٩) قيل معناه: فى الزمان، أى ما بالعهد من قديم، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم. وقيل معناه: وما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان، وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن: فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠) أى أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه، تاب عليه، فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها، «ودود» وهو الحبيب بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ (هود: ٩١).

روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثورى أنهم قالوا: كان ضرير البصر. وقد روى فى حديث مرفوع: أنه بكى من حب الله حتى عمى، فرد الله عليه بصره، وقال: «يا شعيب أتبكى خوفًا من النار؟ أو من شوقك إلى الجنة فقال: بل من محبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالى ماذا يصنع بى. فأوحى الله إليه: هنيئًا لك يا شعيب لقائى، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمى».

رواه الواحدى عن أبي الفتح محمد بن على الكوفى، عن على بن الحسن بن بندار، عن عبد الله محمد بن إسحاق الرملى عن هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عباس، عن يحيى بن سعيد، عن شداد بن أوس عن النبى ﷺ بنحوه. وهو غريب جدًا، وقد ضعفه الخطيب البغدادى.

---

(١) وهكذا يجب عند القيام بالنصيحة على أى مستوى استعمال الترغيب والترهيب معا.

وقولهم: ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود: ٩١) هذا من كفرهم البليغ، وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أى ما نفهمه ولا نعقله، لأنه لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه، وإقبال عليه.

وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (فصلت: ٥).

وقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ أى مضطهداً مهجوراً، ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ ﴾ أى قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود: ٩١).

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وتراعونى بسببهم، ولا تخافون عذاب الله ولا تراعونى لأنى رسول الله؟ فصار رهطى أعز عليكم من الله ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (هود: ٩٢) أى هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (هود: ٩٣).

هذا أمر تهديد ووعيد أكيد، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى فى هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى فى الآخرة ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ (هود: ٩٣) أى منى ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر.

﴿ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (هود: ٩٣) هذا كقوله: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٧).

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨ - ٨٩).

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨) أى هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليكم إن عادوا، اضطراراً مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القوب لا يسخطه أحد، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيد لأحد منه.

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الأعراف: ٨٩) أى فهو كافينا، وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا فى جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم فى تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٩) أى الحاكمين. فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله خالفوه.

ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٠).

قال الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٨) ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة، أى رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها[1] ويوافق طباقها، فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودون فى ملتهم راجعين. فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٨) فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما فى سورة هود: فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود: ٨٧) فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح، الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ

(١) ذلك أنه اللطيف الخبير وهذا من محاسن التكرار فى القرآن الكريم.

مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١٨٥ - ١٨٨).

قال الله تعالى وهو السميع العليم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: ١٨٩).

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف[1].

وإنما عمدتهم شيئان: أحدهما أنه قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ (الشعراء: ١٧٦، ١٧٧) ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ .

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم.

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن.

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن شقيق بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبًا النبي عليه السلام**».

فإنه حديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيه. والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: ١٨٩) ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا

---

(١) راجع أقوال الأئمة في هذا الموضع في تفسير الإمام الطبري رحمه الله.

ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم فى الأسراب: فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح.

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ونجى الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ **(هود: ٩٤، ٩٥).**

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ **(الأعراف: ٩٠، ٩٢).**

ثم ذكر تعالى عن نبيهم: أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومقرعًا، فقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ **(الأعراف: ٩٣).**

أى أعرض عنهم موليًا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ **(الأعراف: ٩٣)** أى قد أديت ما كان واجبًا على من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

ولهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ آسَىٰ ﴾ أى أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أى لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه فحل بهم من بأس الله الذى لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص عنه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس: أن شعيبًا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام، وعن وهب بن منبه: أن شعيبًا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم.

باب ذكر ذرية إبراهيم عليه الصلاة والتسليم

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم، وما آل إليه أمره عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام.

وذكرنا ما وقع فى زمانه من قصة قوم لوط، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام، لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجل فى مواضع متعددة، فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط، قصة مدين، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا، فذكرناها تبعًا لها اقتداءً بالقرآن العظيم.

ثم نشرع الآن الكلام على تفضيل ذرية إبراهيم عليه السلام، لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب، فكل نبى أرسل بعده فمن ولده.

ذكر إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان، أسنهما وأجلهما: الذى هو الذبيح على الصحيح - إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل.

ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق، فإنما تلقاه من نقلة بنى إسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم فى هذا من التنزيل، فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر، وفى رواية: الوحيد.

وأيًّا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل، ففى نص كتابهم: إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة وإنما ولد إسحاق بعد مضى مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة.

أما فى الصورة، فلأنه كان وِلْدَه أزيد من ثلاث عشرة سنة، وأما أنه وحيد فى المعنى، فإنه هو الذى هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر، وكان صغيرًا رضيعًا - فيما قيل - فوضعهما فى وهاد جبال فاران، وهى الجبال التى حول مكة نعم المقيل، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافى والوكيل والكفيل.

فهذا هو الولد الوحيد فى الصورة والمعنى، ولكن أين من يتفطن لهذا السر؟ وأين من يحل هذا المحل؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل!!.

وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ **(الصافات: ١٠١، ١٠٢)**

فطاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعده بأن سيصبر، فوفى بذلك وصبر على ذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ **(مريم: ٥٤، ٥٥).**

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ **(سورة ص: ٤٥، ٤٨).**

وقال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ **(الأنبياء: ٨٥، ٨٦).**

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ **(النساء: ١٦٣).**

وقال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ **(البقرة: ١٣٦).**

وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ **(البقرة: ١٤٠).**

فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون.

وذكر علماء النسب وأيام الناس: أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشًا فانسها وركبها، وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه: حدثنا شيخ من قريش، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «**اتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل**».

وكانت هذه العراب وحوشًا فدعا لها بدعوته التى كان أعطى فأجابته، وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن، من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموى: حدثنى على بن المغيرة، حدثنا أبو عبيدة، مسمع بن مالك، عن محمد بن على بن الحسين، عن آبائه، عن النبى ﷺ أنه قال: «**أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة**»، فقال له يونس: صدقت يا أبا سيار هكذا أبو جرى حدثنى.

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب امرأة من العماليق، وأن أباه أمره بفراقها. ففارقها قال الأموى: هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها، فاستمر بها، وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، وقيل هذه ثالثة، فولدت له اثنى عشر ولداً ذكراً وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم: نابت، وقيذر، وإزيل، وميشى، ومسمع، وماش، ودوصا، وأرر، ويطور، ونبش، وطيما، وقيذما. وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتابهم، وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم، المتقدم ذكرهم وكذبوا فى تأويلهم ذلك.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى تلك الناحية وما والاها، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن، صلوات الله وسلامه عليه. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته «نسمة» من ابن أخيه «العيص» ابن إسحاق، فولدت له الروم، ويقال لهم بنو الأصفر، لصفرة كانت فى العيص، وولدت له اليونان فى أحد الأقوال. ومن ولد العيص الأسبان قيل منهما أيضاً. وتوقف ابن جرير رحمه الله.

ودفن نبى الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة.

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة، فأوحى الله إليه: إنى سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه، يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه: نابت، وقيذار.



ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم

عليهما الصلاة والسلام

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة.

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ **(الصافات: ١١٢، ١١٣).**

وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز.

وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**».

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج «رفقا» بنت بتوابيل في حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت، فولدت غلامين توأمين: أولهما اسمه «عيصو» وهو الذي تسميه العرب «العيص» وهو والد الروم، والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه «يعقوب» وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

قالوا: وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب، لأنه بكره. وكانت أمهما «رفقا» تحب يعقوب أكثر، لأنه الأصغر.

قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعامًا وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له، ليبارك عليه ويدعو له. وكان العيص صاحب صيد، فذهب يبتغي ذلك، فأمرت «رفقا» ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه، ويصنع منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه، ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له، فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين، لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك. فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك، فضمه إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الحس والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه، فقال له: ما هذا يا بني؟ قال: هذا الطعام الذي اشتهيته، فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد في نفسه

عليه وجداً كثيراً، وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوات أخرى، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم.

فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها «لابان» الذى بأرض حران، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه، وأن يتزوج من بناته. وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له، ففعل.

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع فنام فيه، وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى فى نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون، والرب تبارك وتعالى يخاطبه، ويقول له: إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك.

فلما هب من نومه فرح بما رأى، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنين فى هذا الموضع معبداً لله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره.

ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به، وسمى ذلك الموضع: «بيت إيل» أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى.

قالوا: فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران، إذا له ابنتان: اسم الكبرى «ليا» واسم الصغرى «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملهما، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين. فلما مضت المدة على خاله «لابان» صنع طعاماً وجمع الناس عليه، وزف إليه لَيْلاً ابنته الكبرى «ليا» وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هى «ليا» فقال لخاله: غدرت بى؟ وأنا خطبت إليك راحيل. فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها.

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها. وكان سائغًا فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة. وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته، لأنه معصوم. ووهب «لابان» لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب ليا جارية اسمها: «زلفى» ووهب لراحيل جارية اسمها: «بلهى».

وجبر الله تعالى ضعف «ليا» بأن وهب لها أولاداً، فكان أول من ولدت ليعقوب، روبيل، ثم شمعون، ثم لاوى، ثم يهوذا، فغارت عند ذلك «راحيل»

وكانت لا تحبل، فوهبت ليعقوب جاريتها «بلهى» فوطئها فحملت، وولدت له غلامًا سمته «دان»، وحملت وولدت غلامًا آخر سمته «نيفتالى». فعمدت عند ذلك «ليا» فوهبت جاريتها «زلفى» من يعقوب عليه السلام فولدت له: جاد، وأشير، غلامين ذكرين ثم حملت «ليا» أيضًا فولدت غلامًا خامسًا منها وسمته «إيساخر» ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته «زابلون» ثم حملت وولدت بنتًا سمتها «دينار» فصار لها سبعة من يعقوب.

ثم دعت الله تعالى: «راحيل» وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبى الله يعقوب، فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلاً سمته «يوسف».

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، فصارت مدة مقامه عشرين سنة.

فطلب يعقوب من خاله «لابان» أن يسرحه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إنى قد بورك في بسببك فسلنى من مالى ما شئت. فقال: تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع، وكل حمل ملمع أبيض بسواد، وكل أملع ببياض، وكل أجلح أبيض من المعز فقال: نعم.

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس، لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم.

قالوا: فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ولب، فكان يقشرها بلقا، وينصبها فى مساقى الغنم من المياه، لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها، فتصير ألوان حملانها كذلك.

وهذا يكون من باب خوارق العادات، وينتظم فى سلك المعجزات.

فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد، وتغير له وجه خاله وبنيه، وكأنهم انحصروا منه.

وأوحى الله إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها.

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم، لحقهم «لابان» وقومه، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه فى خروجه بغير علمه، وهلا أعلمه فيخرجهم فى فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن، ولم أخذوا أصنامه معهم؟

ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه، فأنكر أن يكونوا أخذوا له أصنامًا فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئًا، وكانت راحيل قد جعلتهن فى برذعة الجمل وهى تحتها، فلم تقم، واعتذرت بأنها طامث، فلم يقدر عليهن.

فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها «جلعاد» على أنه لا يهين بناته، ولا يتزوج عليهن، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر، لا لابان ولا يعقوب، وعملا طعامًا وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر. وتفارقوا راجعين إلى بلادهم.

فلما اقترب يعقوب من أرض «ساعير» تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم. وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيص يترفق له ويتواضع له، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجل.

فخشى يعقوب من ذلك، ودعا الله عز وجل وصلى له، وتضرع إليه وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعده الذى وعده به، وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص. وأعد لأخيه هدية عظيمة وهى: مائتا شاة، وعشرون تيسًا ومائتا نعجة، وعشرون كبشًا، وثلاثون لقحة، وأربعون بقرة، وعشرون من الثيران وعشرون أتانا وعشرة من الحمر، وأمر عبيده أن يسوقوا كلاً من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم العيص فقال للأول. لمن أنت؟ ولمن هذه معك؟ فليقل: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدى العيص وليقل الذى بعده كذلك وكذلك الذى بعده وكذلك الذى بعده، ويقول كل منهم: وهو جاء بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهارًا. فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية، تبدى له ملك من الملائكة فى صورة رجل، فظنه يعقوب رجلاً من الناس، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغلبه، فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل. فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما اسمك؟ فذهب عنه. فعلم أنه ملك من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله. فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا!

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه العيص قد أقبل فى أربعمائة راجل، فتقدم أمام أهله، فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان. وكان مشروعًا لهم، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد إخوة يوسف وأبوه له كما سيأتى.

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى. ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له، ودنت «ليا» وبنوها فسجدوا له. ودنت «راحيل» وابنها يوسف فخرا سجدا له. وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها.

ورجع العيص فتقدم أمامه، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأغنام والمواشي والعبيد قاصدين جبال «ساعير».

فلما مر بساحور ابتنى له بيتًا، ولدوا به ظلالا، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى ثَم (هناك) مذبحا فسماه «إيل» إله إسرائيل وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه، وهو بيت المقدس اليوم، الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام: وهو مكان الصخرة التى علمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك. كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة «دينا» بنت يعقوب بنت «ليا» وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذى قهرها على نفسها، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قومًا غلفًا، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم. فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافًا إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل فولدت غلامًا هو «بنيامين» إلا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب فى «أفراث». وهى بيت لحم، وصنع يعقوب على قبرها حجراً، وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم. وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً. فمن ليا: روبيل، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وإيساخر، وزابلون. ومن راحيل: يوسف، وبنيامين. ومن أمة راحيل: دان، ونفتالى. ومن أمة ليا: جاد وأشير، عليهم السلام.

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم. ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة: ودفنه ابناه: العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها. كما قدمنا.

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة فى حياة إسرائيل فمن ذلك:

قصة يوسف بن راحيل

وقد أنزل الله عز وجل فى شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف: ١، ٣).

وقد تكلمنا على الحروف المقطعة فى أول تفسير سورة البقرة[1]. فمن أراد تحقيقه فلينظره ثَمَّ، وتكلمنا على هذه السورة مستقصى فى موضعها من التفسير، ونحن نذكر ها هنا نبذا مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز.

وجملة القول فى هذا المقام: أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربى فصيح، بين واضح جلى، يفهمه كل عاقل ذكى زكى. فهو أشرف كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق فى أشرف زمان ومكان، فى أصح لغة وأظهر بيان.

فإن كان السياق فى الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودمغ الباطل وزيفه ورده.

وإن كان فى الأوامر والنواهى فأعدل الشرائع وأوضح المناهج، وأبين حِكَمًا وأعدل حُكْمًا.

فهو كما قال تعالى: **﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ (الأنعام: ١١٥).**

يعنى صدقًا فى الأخبار، وعدلاً فى الأوامر والنواهى.

ولهذا قال تعالى: **﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣)** أى بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه.

كما قال تعالى: **﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣).**

وقال تعالى: **﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً ﴾ (طه: ٩٩، ١٠١).**

---

(١) في تفسير القرآن العظيم - انظره من تحقيقنا ط مكتبة الإيمان/ المنصورة - مصر.

يعنى من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد، كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين علىّ، مرفوعًا وموقوفًا: «من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا خالد عن الشعبى، عن جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال: فغضب وقال: «**أتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى**» إسناد صحيح.

ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم أنتم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين**».

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه فى أول سورة يوسف. وفى بعضها: أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال فى خطبته: «**أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى اختصاراً، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون**». ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفًا حرفًا.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف: ٤، ٦).

وقد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسماهم وإليهم تنسب أسباط بنى إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبى غيره، وبقى إخوته لم يوح إليهم. وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على هذا القول.

ومن استدل على نبوتهم بقوله: **﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾** وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى، لأن المراد بالأسباط شعوب بنى إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحى من السماء والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين أخوته بالرسالة والنبوة – أنه ما نص على واحد من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه.

ويستأنس بهذا بما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن، عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**».

انفرد به البخاري: فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والمنة.

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكبًا، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له، فهاله ذلك.

فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر. وهذا يدل على ما ذكرناه.

ولهذا جاء في بعض الآثار «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معًا، وهو غلط منهم.

﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ** ﴾ أي وأراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿ **يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ** ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة، ﴿ **وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك.

﴿ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** ﴾ أي بالوحي إليك ﴿ **وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ أي بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. ﴿ **كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطاها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل، ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾.

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: «**يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**».

وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما، وأبو يعلى والبزار فى مسنديهما، من حديث الحكم بن ظهير - وقد ضعفه الأئمة - عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبى ﷺ رجل من اليهود يقال له: بستانة اليهودى، فقال: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبى ﷺ فلم يجبه بشىء، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها؟ قال: فبعث إليه رسول الله فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» قال: نعم. فقال: هى جريان، والطارق، والذيال، وذو الكتفين، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء والنور».

فقال اليهودى: إى والله إنها لأسماؤها، وعند أبى يعلى، فلما قصها على أبيه قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله، والشمس أبوه والقمر أمه.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (يوسف: ٧ - ١٠).

ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحكم، والدلالات والمواعظ والبينات. ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه ولأمه بنيامين - أكثر منهم، وهم عصبة أى جماعة يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين **﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾** أى بتقديمه حبهما علينا.

ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلوا لهم وجه أبيهم أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك.

فلما تمالئوا على ذلك وتوافقوا عليه **﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾** قال مجاهد: هو شمعون وقال السدى: هو يهوذا، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم روبيل: **﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾** أى المارة من المسافرين **﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾** ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذى أقول لكم، فهو أقرب حالاً من قتله، أو نفيه وتغريبه.

فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك **﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾**. طلبوا

من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم.

فأجابهم الشيخ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بنى يشق علىّ أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا فى لعبكم وما أنتم فيه، فيأتى الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه.

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ أى لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذًا لخاسرون، أى عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن طريق حتى أرشده رجل إليهم، وهذا أيضًا من غلطهم وخطئهم فى التعريب، فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه فى غيابة الجب، أى فى قعره على راعوفته، وهى الصخرة التى تكون فى وسطه يقف عليها المائح، وهو الذى ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء، والذى يرفعها بالحبل يسمى الماتح.

فلما ألقوه فيه، أوحى الله إليه: أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا فى حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك، وعن ابن عباس: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أى لتخبرنهم بأمرهم هذا فى حال لا يعرفونك فيها رواه ابن جرير عنه.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون، أى على أخيهم، ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون، أى فى ظلمة الليل، ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أى ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أى فى غيبتنا عنه فى استباقنا، وقولهم ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أى وما أنت بمصدق لنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك. فكيف وأنت تتهمنا فى هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت فى عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى مكذوب مفتعل، لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه، وآفة الكذب النسيان[1]! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم، فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التى كانت عليه فى صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته. ولما راودوه عن أخذه فبمجرد أن أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه جاءوا وهم يتباكون، على ما تمالؤوا يتواطؤون. ولهذا قال ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن روبيل أشار بوضعه فى الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدى فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف، فلما علم يعقوب شق ثيابه، ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة. وهذه الركاكة جاءت من خطئهم فى التعبير والتصوير.

وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(يوسف: ١٩- ٢٢).

ويخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع فى الجب: أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة، أى مسافرون. قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف.

فلما رآه ذلك الرجل ﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ ﴾ أى يا بشارتى ﴿ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾

(١) ولذا يقولون من كان كذوبا فليكن ذكورا.

أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ أى هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم. ومع هذا لا يغيره تعالى، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر، بما يجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزِمَّةَ الأمور وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف.

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا هذا غلامنا أبق منا، فاشتروه منهم بثمن بخس، أى قليل نزر، وقيل هو الزيف ﴿ **دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾.

قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى: باعوه بعشرين درهمًا، اقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. والله أعلم.

﴿ **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾ أى أحسنى إليه ﴿ **عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خير الدنيا والآخرة.

قالوا: وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها، الذى الخزائن مسلمة إليه. قال ابن إسحاق: واسمه إطفير بن روحيب قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق. قال: واسم امرأة العزيز: «راعيل» بنت رمايل. وقال غيره: كان اسمها «زليخا» والظاهر أنه لقبها، وقيل «فكا» بنت ينوس، رواه الثعلبى عن ابن هشام الرفاعى.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن السائب، عن أبى صالح، عن ابن عباس: كان اسم الذى باعه بمصر – يعنى الذى جلبه إليها – مالك بن زعر بن نويت بن مديان ابن إبراهيم. فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى: ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا، وقيل بوزنه مسكًا ووزنه حريرًا ووزنه ورقًا (فضة). فالله أعلم.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له فى أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أى فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ أى إذا أراد شيئًا فإنه يقيض له أسبابًا وأمورًا لا هتدى إليها العباد. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذى يوحى الله فيه إلى عباده النبيين، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين.

وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الأشد: فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبى: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (يوسف: ٢٣ - ٢٩).

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهى فى غاية الجمال والمال. والمنصب والشباب. وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت - ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهى مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه من الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء، فى قوله عليه

الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله**»[1].

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص، فقال: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي**﴾ يعنى زوجها صاحب المنزل سيدى ﴿**أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ أى أحسن إلىَّ وأكرم مقامى عنده ﴿**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ وقد تكلمنا عن قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ بما فيه كفاية ومقنع فى التفسير.

وأكثر أقوال المفسرين ها هنا متلقى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا.

والذى يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾.

﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ**﴾ أى هرب منها طالبا الباب ليخرج منه فرارا منها فاتبعته فى أثره ﴿**وَأَلْفَيَا**﴾ أى وجدا ﴿**سَيِّدَهَا**﴾ أى زوجها لدى الباب، فبدرته بالكلام وحرضته عليه، ﴿**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ اتهمته وهى المتهمة، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها. فلهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿**هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**﴾، احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة.

﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا**﴾. قيل كان صغيرا فى المهد. قاله ابن عباس وروى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك. واختاره ابن جرير، وروى فيه حديثا مرفوعا عن ابن عباس، ووقفه غيره عنه.

وقيل كان رجلا قريبا إلى «قطفير» بعلها، وقيل قريبا إليها. وممن قال إنه كان رجلا: ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وزيد ابن أسلم.

فقال: ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ أى لأنه يكون قد

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه (١٠/٣٦/٦٦٠- فتح) كما رواه أيضا في (١٦/٢٤) (٢٤/٨١) (١٩/٨٦). ورواه مسلم فى صحيحه (١٢/٣٠/٩١) ورواه الترمذي فى سننه (٣٧/٥٣/٢٣٩١) ورواه النسائى (٢/٤٩) ورواه مالك فى الموطأ (١٤/٥١). ورواه أحمد في مسنده (٢/٤٣٩) باختلاف في ألفاظه.

راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك، وكذلك كان. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أى هذا الذى جرى من مكركن، أنت راودتيه عن نفسه، ثم اتهمتيه بالباطل.

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحًا فقال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أى لا تذكره لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها، والتوبة إلى ربها، فإن العبد الذى إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام. إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له فى ذلك. ولهذا قال لها بعلها، وعذرها من بعض الوجوه، لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية فقال: ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ **(يوسف: ٣٠ - ٣٤).**

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوى هذا، لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلاً لهذا. ولهذا قلن: ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى فى وضعها الشىء فى غير محله.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذلة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذمًّا وهى معذورة فى نفس الأمر فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتهن فى منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت من جملة ذلك شيئًا مما يقطع بالسكاكين، كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام، وألبسته أحسن الثياب

وهو فى غاية طراوة الشباب وأمرنه بالخروج عليهن بهذه الحالة، فخرج وهو أحسن من البدر على محالة.

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أى أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح، وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم.

وقد جاء فى حديث الإسراء: «**فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن**» قال السهيلى وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان فى غاية ونهاية الحسن البشرى. ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه. ويوسف كان على النصف من حسن آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره: كان فى الغالب مبرقعًا لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى، من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته.

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى امتنع ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعنى إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى، وحطتنى بحولك وقوتك.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف: ٣٤، ٤١).

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدالهما، أى ظهر لهما من الرأى بعدما علما براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا.

وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم.

ومن هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعى: أن من العصمة أن لا تجد!.

قال الله: ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ** ﴾. قيل: كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل «نبوا» والآخر: خبازه، يعنى الذى يلى طعامه، وهو الذى يقول له الترك: «الجاشنكير» واسمه فيما قيل: «مجلث» وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، ودلُّه وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته لربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا فى ليلة واحدة. أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السل الأعلى.

فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا: ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾. فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها، ﴿ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا** ﴾. قيل: معناه مهما رأيتما من حلم فإنى أعبره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول. وقيل: معناه أنى أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوًا وحامضًا، كما قال عيسى: ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم** ﴾.

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياى، لأنى مؤمن به موحد له، متبع ملة آبائى الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق ويعقوب. ﴿ **مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا** ﴾ أى بأن هدانا لهذا، ﴿ **وَعَلَى النَّاسِ** ﴾ أى بأن أمرنا أن ندعوهم إليه

ونرشدهم وندلهم عليه وهو فى فطرهم مركوز، وفى جبلتهم مغروز ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾.

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الأوثان وحقرها، وضعف أمرها فقال:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ **(يوسف: ٣٩، ٤٠)**.

أى المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد، الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ أى وحده لا شريك له ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى المستقيم والصراط القويم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره.

وكانت دعوته لهما فى هذه الحال فى غاية الكمال، لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ قالوا وهو الساقى ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ قالوا وهو الخباز ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أى وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة. ولهذا جاء فى الحديث: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت**».

وقد روى عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا: لم نر شيئًا، فقال لهما: ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

يخبر تعالى أن يوسف قال للذى ظنه ناجيًا منهما وهو الساقى: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾، يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب.

وقوله: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أى فأنسى الناجى منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام. قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو الصواب، وهو منصوص أهل الكتاب.

﴿ فَلَبِثَ ﴾ يوسف ﴿ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع،

وقيل إلى السبع، وقيل إلى الخمس، وقيل ما دون العشرة، حكاها الثعلبى. ويقال بضع نسوة وبضعة رجال.

ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر. قال وإنما يقال نيف وقال الله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وهذا رد لقوله.

قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف، وخالف الجوهرى فيما زاد على بضعة عشر، فمنع أن يقال بضع وعشرون إلى تسعين. وفى الصحيح: «**الإيمان بضع وستون شعبة**، وفى رواية **وسبعون شعبة، وأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[1].

ومن قال إن الضمير فى قوله: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة.

والحديث الذى رواه ابن جرير فى هذا الموضع ضعيف من كل وجه، تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخورى المكى وهو متروك، ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل، ولا ها هنا بطريق الأولى والأحرى. والله أعلم.

فأما قول ابن حبان فى صحيحه، عند ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسف فى السجن ما لبث: أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى، حدثنا مسدد بن مسرهد، حدثنا خالد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما لبث فى السجن ما لبث، ورحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد، إذ قال لقومه ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾، قال: فما بعث الله نبيًّا بعده إلا فى ثروة من قومه**».

فإنه حديث منكر من هذا الوجه. ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة. وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها والذى فى الصحيحين يشهد بغلطها والله أعلم.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا

(1) الحديث رواه البخارى (٢/٣). ورواه مسلم (٥٨/٥٧/١). ورواه أبو داود (١٤/٣٩). ورواه النسائى (١٦/٤). ورواه ابن ماجه (المقدمة/ ٩).

الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ **(يوسف: ٤٣ - ٤٩).**

هذا ما كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر، وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان،فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت سبع هزال من ذلك النهر، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً.

فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها، بل ﴿ **قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ** ﴾ أى أخلاط أحلام من الليل، لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك. ولهذا قالوا: ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ** ﴾ فعند ذلك تذكر الناجى منهما، الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا، وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك. فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبيرها، تذكر أمر يوسف، وما كان أوصاه به من التذكار.

ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ** ﴾ أى تذكر ﴿ **بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ أى بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك: ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ** ﴾ أى بعد نسيان. وقرأها مجاهد: ﴿ **بَعْدَ أَمْةٍ** ﴾ بإسكان الميم، وهو النسيان أيضاً. ويقال أمه الرجل يأمه أمها وأمها، إذا أنسى. قال الشاعر:

أمهت وكنت لا أنسى حديثاً ... كذاك الدهر يزرى بالعقول

فقال لقومه وللملك: ﴿ **أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** ﴾ أى فأرسلونى إلى يوسف فجاءه فقال ﴿ **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساقى، استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه ففسره له. وهذا غلط. والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران من فرى وهذيان.

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعًا، بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبر لهم ما كان من منام الملك، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ** ﴾ يعنى يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ **وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها.

فعبر لهم وعلى الخير دلهم، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم، وما يفعلونه من إدخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأولى فى سنبله، إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم.

﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ **(يوسف: ٥٠ - ٥٣).**

لما أحاط الملك علمًا بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله، ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته. فلما جاءه الرسول بذلك، أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلمًا وعدوانًا، وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا. ﴿ **قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ يعنى الملك ﴿ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ قيل معناه: إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلىّ، أى فمر الملك فليسألهن: كيف كان امتناعى الشديد عن مراودتهن إياى؟ وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد؟

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر، وما كان منه من الأمر الحميد و ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾.

فعند ذلك ﴿ **قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ** ﴾ وهى زليخا: ﴿ **الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ** ﴾ أى ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿ **أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ أى فيما يقوله، ومن أنه برىء وأنه لم يراودنى، وأنه حبس ظلمًا وعدوانًا، وزورًا وبهتانًا.

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ قيل إنه من كلام يوسف، أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم الوزير أنى لم أخنه بظهر الغيب وقيل إنه

من تمام كلام زليخا، أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة.

وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول.

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل إنه من كلام يوسف، وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى. والله أعلم.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ **(يوسف: ٥٤ - ٥٧).**

لما ظهرت للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته، عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه قال ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أى أجعله من خاصتى، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتى، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى ذو مكانة وأمانة.

قال: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء، لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضى سبع سنى الخصب، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه، من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه حفيظ، أى قوى على حفظ ما لديه أمين عليه، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء.

فى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

وعند أهل الكتاب: أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً، وسلطه على جميع أرض مصر، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى ونودى بين يديه: أنت رب ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف.

وقيل إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء، لأن زوجها كان لا يأتى النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما: أفرايم ومنسا. قال: واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء.

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة، وفى كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها، فأعجبه ذلك مع حداثة سنة. والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أى بعد السجن والضيق والحصر، صار مطلق الركاب بديار مصر، ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أى أين شاء حل منها مكرمًا محسودًا معظمًا.

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ من أى هذا كله من جزاء الله وثوباه للمؤمن، مع ما يدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل.

ولهذا قال: ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

ويقال إن قطفير زوج زليخا كان قد مات، فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا، فكان وزير صدق.

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر - الوليد بن الريان - أسلم على يدى يوسف عليه السلام. فالله أعلم. وقد قال بعضهم:

وراءَ مضيقِ الخوفِ متسعُ الأمْنِ ... وأولُ مفروحٍ بهِ غايةُ الحزنِ

فلا تيأسنْ فاللهُ ملّكَ يوسفا ... خزائنَه بعدَ الخلاصِ من السجنِ

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (يوسف: ٥٨ - ٦٢).

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دينًا ودنيا. فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكان والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

وعند أهل الكتاب: أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم، وأراد ألا يعرفوه فأغلظ لهم فى القول، وقال: أنتم جواسيس، جئتم لنا لتأخذوا خير بلادى فقالوا: معاذ الله، وإنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا، ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد وصغير عند أبينا فقال: لابد أن أستعلم أمركم.

وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر، وفى بعض هذا نظر.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ** ﴾ أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته، من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿ **قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ** ﴾، وكان قد سألهم حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثنى عشر رجلاً، فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم.

﴿ **أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ أى قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ** ﴾ أى فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدى إليهم أولاً.

فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿ **قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ** ﴾ أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن. ﴿ **وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** ﴾ أى وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاءوا به يتعوضون به من الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم، وقيل خشى ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها. وعند أهل الكتاب سيأتى: أنها كانت صررا من ورق (فضة)، وهو أشبه. والله أعلم.

﴿ **فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ **(يوسف: ٦٣ - ٦٨).**

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أى شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومَحْلَهِمْ. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر.

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه.

فلهذا قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أى إلا أن تُغلبوا كلكم عن الإتيان به ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه فى ولده، ولن يغنى حذر من قدر! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة، لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم.

ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة. قيل: أراد ألا يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة. قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى والضحاك.

وقيل، أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر. قاله إبراهيم النخعى.

والأول أظهر، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وعند أهل الكتاب، أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل، وأخذ الدراهم الأولى وعرضا آخر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا

جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ (يوسف: ٦٩ - ٧٩).

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه وإخباره له سرًّا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته، وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام، عن غرة[1] فى متاع بنيامين ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة على رده، حمل بعير، وضمنه المنادى لهم. فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة.

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهذه كانت شريعتهم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه ولهذا قالوا: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ ليكون ذلك أبعد فى التهمة وأبلغ فى الحيلة، ثم قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى لولا اعترافهم بأن جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر، ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أى فى العلم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأيًا وأقوى عزمًا وحزمًا، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك، لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

---

(١) أى خفية.

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف. قيل كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره. وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له. وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك. فلهذا: ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ وهى كلمته بعدها، وقوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أجابهم سرًّا لا جهرًا، حلمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا، فدخلوا معه فى الترفق والتعطف فقالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ أى إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمع به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف تعرف إليهم حينئذ. وهذا مما غلوا فيه ولم يفهموه جيداً.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ **(يوسف: ٨٠ - ٨٧).**

يقول تعالى مخبراً عنهم لما استيأسوا من أخذه منه: خلصوا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾، لتأتننى به إلا يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لى وجه أقابله به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أى لا أزال مقيمًا ها هنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ فى القدوم عليه، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ أى أخبروه بما رأيتم من الأمر فى

ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فإن هذا الذى أخبرناك به – من أخذهم أخانا لأنه سرق – أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقه، وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبًا على صنيعهم فى يوسف قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها!.

ثم قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يعنى يوسف وبنيامين وروبيل، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أى بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقدره ويفعله، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم، وحرك ما كان كامنًا، كما قال بعضهم:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر:

لقد لامنى عندَ القبورِ على البكا ... رفيقي لتَذْرافِ الدموعِ السوافك (1)

فقال أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَه؟ ... لقبرٍ ثوى بين اللّوى فالدكادك (2)

فقلت له إن الأسى يبعثُ الأسَى ... فدَعنى فهذا كله قبرُ مالك

وقوله: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أى من كثرة البكاء، ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قَالُوا ﴾ له على وجه الرحمة والرأفة به والحرص عليه ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾.

يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا لأحد من الناس ما أنا فيه، وإنما أشكو إلى الله عز وجل، وأعلم أن الله

---

(1) السوافك: المذروفة المنصبة بكثرة. (2) اللوى: ما التوى من الرمل. والدكادك: ما استوى منه وتلبد.

سيجعل لي مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى، ولهذا قال: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم قال لهم محرضًا على تطلب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه، وما يقدره من المخرج في المضايق، إلا القوم الكافرون.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ **(يوسف: ٨٨ - ٩٣).**

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه، ورغبتهم فيما لديه من الميرة، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أي ضعيفة لا يُقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا. قيل كانت دراهم رديئة، وقيل قليلة، وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك. وعن ابن عباس: كانت حلق الغرائر والحبال ونحو ذلك.

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾. قيل بقبولها، قاله السدى. وقيل برد أخينا إلينا، قاله ابن جريج. وقال سفيان بن عيينة: إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية. رواه ابن جرير.

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال، تعرف عليهم وعطف عليهم، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف، وما يحويه من الحال الذى يعرفون فيه:

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا ﴾ وتعجبوا كل العجب، وقد ترددوا إليه مرارًا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو: ﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾. يعنى أنا يوسف الذى صنعتم معه ما صنعتم،

وسلف من أمركم فيه ما فرطتم. وقولهُ: ﴿ **وَهَذَا أَخِي** ﴾ تأكيداً لما قال، وتنبيهًا على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال. ولهذا قال: ﴿ **قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ أى بإحسانه إلينا وصدقته علينا، وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا، وصبرنا على ما كان منكم إلينا، وطاعتنا وبرنا لأبينا، ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ أى فضلك وأعطاك ما لم يعطنا، ﴿ **وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ أى فيما أسدينا إليك، وها نحن بين يديك. ﴿ **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ** ﴾ أى لست أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا. ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿ **يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ ومن زعم أن الوقف على قوله: ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ** ﴾ وابتدأ بقوله ﴿ **الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ فقوله ضعيف والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذى يلى جسده، فيضعوه على عينى أبيه، فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب، بإذن الله. وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم بأن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ **(يوسف: ٩٤ - ٩٨).**

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبى سنان، عن عبد الله بن أبى الهذيل، سمعت ابن عباس يقول: ﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ** ﴾ قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام. وكذا رواه الثورى وشعبة وغيرهم عن أبى سنان به.

وقال الحسن البصرى وابن جريج المكى: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخًا، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة.

وقوله: ﴿ **لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾ أى تقولون إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن.

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿ **تُفَنِّدُونِ** ﴾ تسفهون.

وقال مجاهد أيضًا والحسن: تُهَرِّمُون.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قال قتادة والسدى: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ أى بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعدما كان ضريراً. وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف، وسيقر عينى به، وسيرينى فيه ومنه ما يسرنى.

فمنذ ذلك ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم. فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا، وما عليه عولوا قائلاً: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السَّحَر. قال ابن جرير: حدثنى أبو السائب، حدثنا ابن إدريس قال: سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر يأتى المسجد فسمع إنساناً يقول: « اللهم دعوتنى فأجبت، وأمرتنى فأطعت، وهذا السحر فاغفر لى » قال: فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾.

وقد قال تعالى: ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾.

وثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟». وقد ورد فى حديث: «**أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة**».

قال ابن جرير: حدثنى المثنى، قال حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «**سوف أستغفر لكم ربى**» يقول: «**حتى ليلة الجمعة، وهو قول أخى يعقوب لبنيه**».

وهذا غريب من هذا الوجه، وفى رفعه نظر. والأشبه أن يكون موقوفًا على ابن عباس رضى الله عنهما.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي

إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف: ٩٩ - ١٠١).

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة، التى قيل إنها ثمانون سنة! وقيل: ثلاث وثمانون سنة، وهما روايتان عن الحسن وقيل خمس وثلاثون سنة. قاله قتادة وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة.

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريبًا، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة، فيما قاله غير واحد، فامتنع. فكان فى السجن بضع سنين وهى سبع عند عكرمة وغيره. ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس فى السبع البواقى، جاء إخوته يمتارون فى السنة الأولى وحدهم، وفى الثانية ومعهم أخوه (بنيامين)، وفى الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين، فجاءوا كلهم.

﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ** ﴾ واجتمع بهما خصوصًا وحدهما دون إخوته، ﴿ **وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾. قيل هذا من المقدم والمؤخر، تقديره قال: ادخلوا، مصر وآوى إليه أبويه. وضعفه ابن جرير وهو معذور. قيل بل تلقاهما وآواهما فى منزل الخيام، ثم لما اقتربوا من باب مصر، ﴿ **قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾، قاله السدى ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضًا، وإنه ضمن قوله ادخلوا، بمعنى اسكنوا مصر، أو أقيموا بها، ﴿ **إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ لكان صحيحًا مليحًا أيضًا.

وعند أهل الكتاب، أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر - وهى أرض بلبيس - خرج يوسف لتلقيه، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرًا بقدومه، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر، يكونون فيها، ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم. وقد ذكر جماعة من المفسرين، أنه لما أزف قدوم نبى الله يعقوب - وهو إسرائيل - أراد يوسف أن يخرج لتلقيه، فركب معه الملك وجنوده، خدمة ليوسف وتعظيمًا لنبى الله «إسرائيل» وأنه دعا للملك، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سنى الجدب ببركة قدومه إليهم. فالله أعلم.

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم - فيما قاله أبو إسحاق السبيعى عن أبى عبيدة بن مسعود - ثلاثة وستين إنسانًا.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن عبد الله بن شداد: كانوا ثلاثة وثمانين إنسانًا.

وقال أبو إسحاق عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنسانًا.

قالوا: وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل وفى نص أهل الكتاب: أنهم كانوا سبعين نفرًا وسموهم.

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين: أحياها الله تعالى. وقال آخرون: بل كانت خالته «ليا» والخالة بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضى بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فما خالفه، وهذا أقوى والله أعلم.

ورفعهما على العرش أى أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر، تعظيمًا وتكريمًا وكان هذا مشروعًا لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به فى سائر الشرائع حتى حرم فى ملتنا.

﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أى هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتى الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، حين رأيتهم لى ساجدين، وأمرتنى بكتمانها، ووعدتنى ما وعدتنى عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أى بعد الهم والضيق، جعلنى حاكمًا نافذ الكلمة فى الديار المصرية حيث شئت. ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أى البادية. وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخيل ﴿بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أى فيما كان منهم إلىَّ من الأمر الذى تقدم وسبق ذكره.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أى إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد - بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى بجميع الأمر ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده، بأموالهم كلها، من الذهب والفضة، والعقار والأثاث، وما يملكونه كله، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا، ويكون خمس ما يستغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثعلبى، أنه كان لا يشبع فى تلك السنين، حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار. قال: فمن ثَمَّ اقتدى به الملوك فى ذلك. قلت: وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

قال الشافعى، قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة!.

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فانٍ، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله وسأل منه - وهو خير المسئولين - أن يتوفاه، أى حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا كما يقال فى الدعاء: «**اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين**» أى حين تتوفانا.

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبى ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين. كما قال: اللهم فى الرفيق الأعلى ثلاثًا. ثم قضى.

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزاً فى صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغًا فى ملتهم وشرعهم، كما روى عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف.

فأما فى شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن، كما فى حديث معاذ فى الدعاء الذى رواه أحمد: «**وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين**»[1]. وفى الحديث الآخر: «**ابن آدم، الموت خير لك من الفتنة**».

وقالت مريم عليها السلام: ﴿ **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا** ﴾. وتمنى الموت على بن أبى طالب، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال، وكثر القيل

---

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه (٣٢٣٥/٣٩/٤٨) وقال أبو عيسى: هذا الحديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخارى وكان استاذه عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح.

والقال، وتمنى ذلك البخارى أبو عبد الله صاحب الصحيح، لما اشتد عليه الحال ولقى من مخالفيه الأهوال.

فأما فى حال الرفاهية فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إما محسنًا فلعله يزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب ولكن ليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى**»[1] والمراد بالضر هاهنا ما يخص العبد فى بدنه، من مرض ونحوه، لا فى دينه.

والظاهر أن نبى الله يوسف عليه السلام سأل ذلك، إما عند احتضاره، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب: أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفى عليه السلام، وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق. قال السدى: فصبَّره (حنَّطه) وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

عند أهل الكتاب: أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة، ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة.

وهذا نص كتابهم وهو غلط: إما فى النسخة، أو منهم، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقة ها هنا؟

وقد قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ يوصى بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب: أنه أوصى بنيه واحداً واحداً، وأخبرهم بما يكون من

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه (١٩/٧٥) ورواه مسلم (٤٨/١٠-١٣) ورواه أبو داود (٩/٢٠) ورواه الترمذي (٣/٢٠) ورواه النسائى (٢١/١-٢) ورواه ابن ماجه (١٣/٣٧، ٣١)، ورواه أحمد فى المسند (٢٦٣/٢).

أمرهم، وبشر يهوذا بخروج نبى عظيم من نسله تطيعه الشعوب، وهو عيسى ابن مريم. والله أعلم.

وذكروا: أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يومًا، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يومًا. ثم استأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها. فلما وصلوا حبرون دفنوه فى المغارة التى كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى، وعملوا له عزاء سبعة أيام.

قالوا: ثم رجعوا إلى بلادهم، وعزى إخوة يوسف يوسف فى أبيهم، وترفقوا له فأكرمهم وأحسن فأقاموا ببلاد مصر.

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه فى تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام، فدفنه عند آبائه كما سيأتى. قالوا: فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين.

هذا نصهم فيما رأيته وفما حكاه ابن جرير أيضًا. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة. وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا، صلوات الله عليه وسلامه.



قصة أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم. وهو أيوب بن موص بن رازح بن العيص ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحق بن يعقوب، وقيل غير ذلك في نسبه.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام، وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار لحرقه.

والمشهور الأول، لأنه من ذرية إبراهيم، كما قررنا عند قوله تعالى: ﴿**ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون**﴾ الآيات، من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ**﴾ الآية.

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحق وامرأته قيل: اسمها «ليا» بنت يعقوب، وقيل رحمة بنت أفرائيم، وقيل ليا بنت منسا بن يعقوب. وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ها هنا.

ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ**﴾ **(الأنبياء: ٨٣، ٨٤).**

وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ **(سورة ص: ٤١ - ٤٤).**

وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال: أول نبي بُعثَ إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم عرفي بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ثم يونس بن متى من بني يعقوب، ثم أيوب بن زراح بن آموص

ابن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفى بعض هذا الترتيب نظر فإن هوداً وصالحًا: المشهور أنهما بعد نوح وقيل إبراهيم. والله أعلم.

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه؛ من الأنعام والعبيد والمواشى؛ والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران. وحكى ابن عساكر: أنها كلها كانت له. وكان له أولاد وأهلون كثير.

فسلب منه ذلك جميعه، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما. وهو فى ذلك كله صابر محتسب، ذاكرًا الله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها. فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته. وتقوم بمصلحته. وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأوده، رضى الله عنها وأرضاها، وهى صابرة معه على ما حَلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، ضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة. فإنا لله وإنا إليه راجعون!.

وقد ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»، وقال: «**يبتلى الرجل على حسب دينه، فإذا كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه**»[1].

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتسابًا وحمداً وشكرًا حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب خبر طويل؛ فى كيفية ذهاب ماله وولده، وبلائه فى جسده. والله أعلم بصحته.

وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى.

وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلى سبع سنين وأشهراً، وألقى على مزبلة لبنى إسرائيل

---

(١) الحديث رواه الدارمى فى سننه (٢٧٨٦/٦٧/١٠). ورواه أحمد فى مسنده (١٧٢/١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) والترمذي في سننه (٢٣٩٨/٥٦/٣٧) وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه.
وقال حميد: مكث في بلواه ثماني عشرة سنة، وقال السدى: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها، قالت: يا أيوب، ولو دعوت ربك لفرج عنك، فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفًا أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحداً يستخدمها، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناساً. فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به، فأنكره وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقًا قال في دعائه: «رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

وقال ابن أبي حاتم حدثنًا أُبَيّ، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب أخوان، فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع مثله من شيء قط، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعانًا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك وخر ساجداً، فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعًا: حدثنا يونس عن عبد الأعلى نبأنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له؛ كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول؟ غير**

أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا فى حق.

قال: وكان يخرج فى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه: «أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب». فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وعلى أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك! هل رأيت نبى الله هذا المبتلى؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإنى أنا هو، وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض».

هذا لفظ ابن جرير، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن ين قتيبة، عن حرملة، عن ابن وهب به. وهذا غريب رفعه جدًا، والأشبه أن يكون موقوفًا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس فى ناحية، جاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله، أين ذهب هذا المبتلى الذى كان ها هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب؟ قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحك أنا أيوب قد رد الله علىَّ جسدى.

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم.

قال وهب بن منبه: أوحى الله إليه: «قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانًا، واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك». رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمر بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: **«لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل فى ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك»؟.**

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبى داود الطيالسى، وعبد الصمد عن همام، عن

قتادة به. ورواه ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدى، عن إسحاق بن راهويه، عن عبد الصمد به: ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب، وهو على شرط الصحيح فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة: أرسل على أيوب رِجْل (مجموعة) من جراد من ذهب، فجعل يقبضها فى ثوبه، فقيل يا أيوب: ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال: أى رب ومن يستغنى عن فضلك؟

هذا موقوف. وقد روى عن أبى هريرة من وجه مرفوعًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا خرج عليه رجل جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثى فى ثوبه. فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يار رب، ولكن لا غنى لى عن بركتك**» رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به.

وقوله: «اركض برجلك» اى أضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أُمر به. فأنبع الله له عينًا باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذى كان فى جسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالاً تامًّا ومالاً كثيرًا؛ حتى صب له من المال صبًّا، مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهب.

وأخلف الله له أهله، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فقيل أحياهم الله بأعيانهم، وقيل آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى رفعنا عنه شدته، وكشفنا ما به من ضر، رحمة منا به وإحسانًا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده، فله أسوة بنبى الله أيوب؛ حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال: هى «رحمة» من هذه الآية فقد أبعد النجمة وأغرق النزع. وقال الضحاك عن ابن عباس: رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولدًا ذكرًا.

وعاش أيوب عبد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

وقوله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط. فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها، وقيل لأنه عارضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان، فحلف ليضربنها مائة سوط. فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثًا وهو كالعثكال الذى يجمع الشماريخ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث.

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما فى حق امرأته الصابرة والمحتسبة، المكابدة الصديقة البارة الراشدة، رضى الله عنها.

ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾. وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان، وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب وسنذكر طرفًا من ذلك فى كتاب الأحكام[1]، عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ: أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثًا وتسعين سنة، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك.

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء. رواه ابن عساكر بمعناه.

وأنه أوصى إلى ولده «حومل» وقام بالأمر بعده ولده «بشر» بن أيوب، وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه «ذو الكفل» فالله أعلم. ومات ابنه هذا وكان نبيًا فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمسًا وسبعين.

ولنذكر ها هنا قصة ذى الكفل؛ إذ قال بعضهم: إنه ابن أيوب عليهما السلام وهذه هى:



(١) يذكره ابن كثير كثيرا ولم نره.

قصة ذى الكفل الذى زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٥ - ٨٦).

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضًا : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ (سورة ص: ٤٥ - ٤٨).

فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى، عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور.

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًّا، وإنما كان رجلاً صالحًا مقسطًا عادلاً وتوقف ابن جرير فى ذلك. فالله أعلم.

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبيًّا وإنما كان رجلاً صالحًا.

وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل.

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند، عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أنى استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم فى حياتى، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس فقال : من يتقبل منى بثلاث أستخلفه : يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال أنا. فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال : نعم. قال : فرده ذلك اليوم، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل، فقال أنا، فاستخلفه.

قال: فجعل إبليس يقول للشيطان : عليكم بفلان، فأعياهم ذلك. فقال دعونى وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب فقال : من هذا؟ قال : شيخ كبير مظلوم قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه، فقال إن بينى وبين قومى خصومة، وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة. فقال : إذا رحت فإننى آخذ لك بحقك.

فانطلق للرواح فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه. فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة بأخذ مضجعه أتاه فدق الباب، فقال: من هذا، فقال: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك، وإذا قمت أخلفونى. قال: فانطلق فإذا رحت فأتنى.

قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره فلا يراه، وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد شق علىَّ النوم. فلما كان تلك الساعة جاء، فقال له الرجل: وراءك وراءك. فقال: قد أتيته أمس وذكرت له أمرى. فقال: لا والله. لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب، من داخل، فاستيقظ الرجل، فقال: يا فلان ألم آمرك؟ قال: أما من قبلى والله فلم تُؤت، فانظر من أين أُتيت؟

قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه. فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء ففعلت كل ما ترى لأغضبك.

فسماه الله ذا الكفل، لأنه تكفل بأمر فوفى به!

وقد روى ابن أبى حاتم أيضًا عن ابن عباس قريبًا من هذا السياق وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر، وغيرهم من السلف نحو هذا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهير، أنبأنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن كنانة بن الأخنس، قال: سمعت الأشعرى يعنى أبا موسى رضى الله عنه – وهو على هذا المنبر يقول: ما كان ذو الكفل نبيًّا ولكن كان رجل صالحًا يصلى كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل.

ورواه ابن جرير عن طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: قال أبو موسى الأشعرى فذكره منقطعًا.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولى طلحة، عن أبى عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين – حتى عد سبع مرات. لم أحدث

به، ولكنى قد سمعته أكثر من ذلك قال: «كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال لها ما يبكيك؟ أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتنى عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط! ثم نزل وقال: اذهبى بالدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصى الله الكفل أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل!»[1].

ورواه الترمذى من حديث الأعمش به وقال حسن، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر.

فهو حديث غريب جداً وفى إسناده نظر، إن سعداً هذا قال أبو حاتم: لا أعرفه إلا بحديث واحد. ووثقه ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازى هذا. فالله أعلم.

وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكفل وإنما لفظ الحديث الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور فى القرآن. فالله تعالى أعلم.



(١) الحديث رواه الترمذي في سننه (٢٤٩٦/٤٨/٣٨) وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن قد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا ورفعوه.

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى ﴾ (القصص: ٤٣).

كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء أو من الأرض، بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوا قردة. ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى ﴾.

ورفعه البزار في رواية له. والأشبه والله أعلم وقفه. فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام.

فمنهم:

أصحابُ الرس

قال الله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٨، ٣٩).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (سورة ق: ١٢- ١٤).

وهذا السياق والذي قبله، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا، وهو الهلاك.

وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام. وفيه نظر أيضًا.

وروى ابن جرير قال: قال ابن عباس: أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه، عند ذكر بناء دمشق، عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره، أن أصحاب الرس كانوا بحَضور، فبعث الله إليهم نبيًّا يقال له حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه. فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس، فنزل الأحقاف. وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها. حتى نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، دمشق وبنى مدينتها، وسماها جبرون،وهي إرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عاد، أي ساد، يعني أولاد عاد بارقاف فكذبوه، فأهلكهم الله عز وجل.

فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم.

وروى ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى عاصم - عن أبيه عن شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الرس بئر بأذربيجان. وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة قال: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أى دفنوه فيها.

قال ابن جريج قال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة.

قلت: فإن كانوا أصحاب يس كما زعمه عكرمة، فقد أهلكوا بعامة، قال الله تعالى في قصتهم: ﴿ **إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴾ وستأتى قصتهم بعد هؤلاء.

وإن كان غيرهم، وهو الظاهر، فقد أهلكوا أيضاً وتبروا. وعلى كل تقدير فينافى ما ذكره ابن جرير.

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش: أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفى أرضهم جميعها، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان فى صورته وقال: إنى لم أمت، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم. ففرحوا أشد الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، فصدق به أكثرهم، وافتتنوا به وعبدوه. فبعث الله فيهم نبيًّا، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال السهيلى: وكان يوحى إليه فى النوم؛ وكان اسمه حنظلة بن صفوان؛ فعدوا عليه فقتلوه وألقوه فى البئر فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم؛ ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسود، وصوت الضباع.

فأما ما رواه - يعنى ابن جرير - عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود**» وذلك أن الله تعالى بعث نبيًّا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبى فحفروا له بئراً فألقوه

فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم، قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ويشترى به طعامًا وشرابًا، ثم يأتى به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلى إليه طعامه وشرابه، ثم يردها كما كانت.

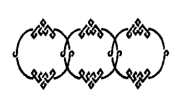
قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون: ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائمًا. ثم إنه ذهب فتمطى فتحول لشقه الآخر، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى. ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع. ثم إنه ذهب إلى الحفيرة، إلى موضعها الذى كانت فيه، يلتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه.

قال: فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل، فيقولون له: ما ندرى؟ حتى قبض الله النبى عليه السلام وهب الأسود من نومته بعد ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة**».

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر. ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظى. والله أعلم.

ثم قد رده ابن جرير نفسه، وقال: لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن – قال: لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكم وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم، اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم. والله أعلم.

ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف. لما تقدم، ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا، ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس. والله تعالى أعلم.



قصة قوم يس

وهم: أصحاب القرية أصحاب يس قال الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (يس: ١٣ - ٢٩).

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية «أنطاكية» رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه، وكذا روى عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا: وكان لهم ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام. فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادق، ومصدوق، وشلوم، فكذبهم.

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل. وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح. وكذا قال ابن جرير، عن وهب، عن ابن سليمان، عن شعيب الجبائى: كان اسم المرسلين الأولين: شمعون، ويوحنا، واسم الثالث بولس، والقرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جداً؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت. ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التى تكون فيها بطاركة النصارى. وهن: أنطاكية، والقدس، وإسكندرية، وورومية ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا. وأهل هذه القرية المذكورة فى القرآن أهلكوا، كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ ولكن إن كان الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن - بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا. والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن هى قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله.

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ يعنى لقومك يا محمد «أصحاب القرية» يعنى المدينة، ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أى أيدناهما بثالث فى الرسالة، ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبيًا بشريًا. فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام. «وما علينا إلا البلاغ المبين» أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى تشاءمنا بما جئتمونا به، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل بالمقال، وقيل بالفعال. ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى بسبب أنا ذكرنا بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

قال ابن جرير: والأول أولى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يعنى لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أى يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة.

ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئًا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه.

ثم قال مخاطبًا للرسل: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾، قيل: فاستمعوا مقالتى واشهدوا لى بها عند ربكم، وقيل معناه: فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل الله جهرة. فعند ذلك قتلوه، قيل رجمًا، وقيل عضًا، وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه.

وحكى ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال: وطئوه بأرجلهم، حتى أخرجوا قصبته (أمعاءه).

وقد روى الثورى عن عاصم الأحول، عن أبى مجلز: كان اسم هذا الرجل «حبيب بن مرى» ثم قيل: كان نجارًا، وقيل حباكًا[1]، وقيل إسكافًا، وقيل قصارًا (يبيض الثياب)، وقيل كان يتعبد فى غار هناك. فالله أعلم.

وعن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة فقتله قومه، ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة،

(١) حبك الثوب نسجه مخططا.

فلما رأى فيها من النضرة والسرور: ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ يعنى ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لى.

قال ابن عباس: نصح قومه فى حياته بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وبعد مماته فى قوله: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ رواه ابن أبى حاتم. وكذلك قال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا يلقى غاشًّا؛ لما عاين من كرامة الله ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه!

قال قتادة: «فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله»، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أى وما احتجنا فى الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود. قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جندًا، أى رسالة أخرى. قال ابن جرير: والأول أولى.

قلت: وأقوى - ولهذا قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أى وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عليه السلام، فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون، أى قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف.

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم - رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم. لهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.

فأما الحديث الذى رواه الطبرانى من حديث حسين الأشقر عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «**السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب**»[1]، فإنه حديث لا يثبت؛ لأن «حسين» هذا متروك شيعى من الغلاة، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية. والله أعلم.

---

(١) الحديث ضعيف: رواه الطبرانى (٣/١١١/٢) والألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/٣٦٠/٢٥٨)، وقال: هذا سند ضعيف جداً إن لم يكن موضوعًا، فإن حسين الأشقر وهو ابن الحسن الكوفى شيعى غال، ضعفه البخارى جداً فقال في التاريخ الصغير (٢٣٠): «عنده مناكير» وروى العقيلى فى الضعفاء (٩٠) عن البخارى أنه قال فيه: «فيه نظر» وانظر للعقيلى الضعفاء الكبير من مراجعتنا.

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس: ٩٨).

وقال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧ - ٨٨).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الصافات: ١٣٩ - ١٤٨).

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القلم: ٤٨ - ٥٠).

قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات. وجأرت الأنعام والدواب والمواشى، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة.

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته، عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم سببه، ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ أى هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكاملها، فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ وقوله: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى آمنوا بكاملهم.

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان فى الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى؟ على قولين:

الأظهر من السياق نعم. والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ لَمَّا آمَنُوا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وهذا المتاع إلى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى، والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة، واختلفوا فى الزيادة. فعن مكحول عشرة آلاف وروى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية: حدثنى أبى بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفًا، فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً فى هذا الباب.

وعن ابن عباس كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا، وعنه: وبضعة وثلاثين ألفًا، وعنه وبضعة وأربعين ألفًا. وقال سعيد بن جبير: كانوا مائة ألف وسبعين ألفًا.

واختلفوا: هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده؟ أو هما أمتان؟ على ثلاثة أقوال: هى مبسوطة فى التفسير.

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبا بسبب قومه، ركب سفينة فى البحر فلجت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فتشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً، لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[1] **(الصافات: ١٣٩ - ١٤٢).** وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلقى فى البحر، وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظمًا فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه.

قالوا: ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحوك جوارحه فتحركت، فإذا هو حى فخر لله ساجداً وقال: يارب.. اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد فى مثله.

---

(١) المدحضين: المقروعين أى خسر في الاقتراع - يقال: أدحض الله حجته أى أزالها.

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه، فقال مجاهد عن الشعبى : التقمه ضحى ولفظه عشية، وقال قتادة : فمكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق : سبعة أيام، ويشهد له شعر أمية بن أبى الصلت :

وأنت بفضل منك نجيت يونسًا   وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك: مكث فى جوفه أربعين يومًا . . والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجى[1]، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، فعند ذلك وهنالك، قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال . الذى يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال فى كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ** ﴾ أى إلى أهله ﴿ **مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ **(الأنبياء: ٨٧، ٨٨)** ﴿ **فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أن نضيق عليه . وقيل معناه : نقدر من التقدير وهى لغة مشهورة، قَدرَ وقَدَّرَ كما قال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذى مضى   تباركت، ما تُقَدِّرْ يكن، فلك الأمر

﴿ **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل .

وقال سالم بن أبى الجعد: ابتلع الحوت حوت آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر .

وقوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ **(الصافات: ١٤٣، ١٤٤)**. قيل معناه فلولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت، وهذا معنى ما روى عن سعيد بن جبير فى إحدى الروايتين عنه .

---

(١) الأجاج: شديد الملوحة.

وقيل معناه: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا غلام.. إنى معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة**».

وروى ابن جرير فى تفسيره، والبزار فى مسنده من حديث محمد بن إسحاق، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ : «**لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً. فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً، فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبح وهو فى بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا.. إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح، الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله: ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾**».

هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. كذا قال.

وقد قال ابن أبى حاتم فى تفسيره، حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى وهب، حدثنا عمى، حدثنى أبو صخر، أن يزيد الرقاشى قال: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول: «**إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب ومن هو؟ قال: عبدى يونس قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يُرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا: يا ربنا! أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه فى العراء**».

ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به.

زاد ابن أبى حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرنى ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث، أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء (القرع)، قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية[1] وحشية تأكل من خشاش الأرض، أو قال هشاش الأرض، قال: فتفسخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتًا من شعره:

فأنبتَ يَقْطينا عليه برحمة ... من الله لولا الله أصبح ضَاوِيًا[2]

وهذا غريب أيضًا من هذا الوجه، ويزيد الرقاشى ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبى هريرة المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا. والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **فَنَبَذْنَاهُ** ﴾ أى ألقيناه ﴿ **بِالْعَرَاءِ** ﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار، بل هو عار منها، ﴿ **وَهُوَ سَقِيمٌ** ﴾ أى ضعيف البدن. قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسدى وابن زيد: كهيئة الصبى حين يولد وهو المنفوش ليس عليه شىء. ﴿ **وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ** ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاووس والسدى وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء: فى إنبات القرع عليه حكم جمة، منها أن ورقه فى غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيًّا ومطبوخًا، وبقشره وببزره أيضًا. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

وتقدم كلام أبى هريرة فى تسخير الله تعالى له تلك الأروية التى كانت ترضعه لبنها وترعى فى البرية، وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه. ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ** ﴾ أى الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿ **وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أى وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير: حدثنى عمران بن بكار الكلاعى، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثنى بشر بن منصور عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبى وقاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة**

(1) الأروية: أنثى الوعل.

(2) الضاوى: الضعيف الهزيل.

يونس بن متى» قال: فقلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها - ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** فهو شرط من الله لمن دعاه به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير ابن زيد، عن المطلب بن حنطب قال: قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دعا بدعاء يونس استجيب له**» قال أبو سعيد الأشج: يريد به: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذان طريقان عن سعد.

وثالث أحسن منهما، وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمير، حدثنا يونس ابن أبي إسحاق الهمداني حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين: هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا. وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت قال سعد قلت بلى، حتى حلف وحلفت. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه - إنك مررت بي آنفًا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنبئكم أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: «**من هذا؟ أبو إسحاق؟**» قال: قلت: نعم يا رسول الله. قال: «**مه؟**» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «**نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم قط إلا استجاب له**»(1).

ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به.

---

(1) الحديث رواه أحمد في المسند (١/ ١٧٠).

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ **(الصافات: ١٣٩)** وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتى النساء والأنعام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**». ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى به.

وقال البخارى أيضًا: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبى العالية عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «**ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى، ونسبه إلى أبيه**».

ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به، قال شعبة فما حكاه أبو داود عنه: لم يسمع قتادة من أبى العالية سوى أربعة أحاديث، وهذا أحدها.

وقد رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن علىّ بن زيد، عن يونس بن مهران، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «**ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**» تفرد به أحمد.

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبى يحيى العتاب، عن مجاهد، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينبغى لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى**». إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، سمعت حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «**لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**». وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به.

وفى البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبى هريرة فى قصة المسلم الذى لطم وجه اليهودى حين قال: لا والذى اصطفى موسى على العالمين.

قال البخارى فى آخر: «... **ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى**» وهذا اللفظ يقوى أحد القولين من المعنى: «**لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**» أى ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس.

والقول الآخر: لا ينبغى لأحد أن يفضلنى على يونس بن متى. كما قد ورد فى بعض الأحاديث: «**لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى**».

وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.

ذكر قصة موسى الكليم
عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم: ٥١ - ٥٣).

وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن. وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة. وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من التفسير. وسنورد سيرته ها هنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص: ١ - ٦).

يذكر تعالى ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾، أى تجبر وعتا وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. وجعل أهلها شيعاً، أى قسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأردئها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه على إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك

ملك مصر على يديه. وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل، حذرا من وجود هذا الغلام، ولن يغنى حذر من قدر!

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس، وعن مرة[1] عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى فى منامه، كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة. وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ وهم بنو إسرائيل، ﴿ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ أى الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم. ﴿ **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً. وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا** ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ **(الشعراء: ٥٧ - ٥٩)**. وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله.

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ألا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان، لتضعف شوكة بنى إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم.

وهذا فيه نظر، بل هو باطل. وإنما هذا فى الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا**

---

(١) مرة بن شراحيل الهمْدانى، أبو إسماعيل الكوفى يقال له مرة الطيب ثقة عابد من الطبقة الثانية مات سنة ست وسبعين رحمه الله تعالى.

نسَاءَهُمْ ﴾ (غافر: ٢٥) ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذرا من وجود موسى.

هذا، والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذى لا يُغالَب ولا يمانع، ولا يخالف أقداره، إن هذا المولود الذى تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتفداه، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أُوحىَ إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة، والمشيئة التى لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما وأن يتركوا عاما فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل. فلما وضعت أُلهمت أن اتخذت له تابوتًا، فربطته فى حبل وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (القصص: ٧ - ٩).

هذا الوحى وحى إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (النحل: ٦٨، ٦٩) الآية. وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلى: واسم أم موسى «أيارخا» وقيل «أياذخت» والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه، وألقى فى خلدها وروعها ألا تخافى ولا تحزنى، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًّا مرسلاً، يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ** ﴾ قال الله تعالى: ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ قال بعضهم: هذه (لام) العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقًا بقوله: ﴿ **فَالْتَقَطَهُ** ﴾ وأما إن جعل متعلقًا بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قبضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وصارت اللام معللة كغيرها. والله أعلم. ويقوى هذا التقدير الثانى قوله: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ** ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ **وَجُنُودَهُمَا** ﴾ التابعين لهما ﴿ **كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾ أى كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون: أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون «آسية» بنت مزاحم بن عبيد ابن الريان بن الوليد، الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف، وقيل إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى. وقيل بل كانت عمته، حكاه السهيلى.. فالله أعلم.

وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ فى الجنة.

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًّا شديدًا جدًّا فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: ﴿ **قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ** ﴾ فقال لها فرعون: أما لك فنعم وأما لى فلا، أى لا حاجة لى به. والبلاء موكل بالمنطق.

وقولها: ﴿ **عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا** ﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع: أما فى الدنيا فهداها الله به، وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه. ﴿ **أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ وذلك أنهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم، أن قيضهم لالتقاطه، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده؟

(وعند أهل الكتاب أن التى التقطت موسى «دربتة» ابنة فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل).

وقال تعالى: ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ **(القصص: ١٠ - ١٣).**

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أى من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أى صبرناها وثبتناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ وهى ابنتها الكبيرة: ﴿قُصِّيهِ﴾ أى اتبعى أثره، واطلبى لى خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قال مجاهد: عن بعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعه فلم يقبل ثديًا ولا أخذ طعامًا، فحاروا فى أمره، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته. فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾. قال ابن عباس لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة فى سرور الملك ورجاء منفعته.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه. فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى «آسية» يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت: «إن لى بعلاً وأولاداً» ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى، فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده، وهو دليل على صدق البشارة برسالته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلّمه، فقال له فيما قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه. ﴿ولتصنع على عينى﴾، قال قتادة وغير واحد من السلف: أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل، وتلبس أحسن الملابس بمرأى منى، وذلك كله بحفظى وكلاءتى لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ

نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ وسنورد حديث الفتون فى موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص: ١٤- ١٧).

ولما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخَلق والخُلق، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

ثم شرع فى ذكر سبب خروجهم من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به. كما سيأتى.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى: وذلك نصف النهار، وعن ابن عباس: بين العشائين[1].

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى يتضاربان ويتهارشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أى إسرائيلى ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى قبطى[2]. قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق.

﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله - أى من الرضاعة - فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عليه السلام على ذلك القبطى أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾ قال مجاهد: أى طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصًا كانت معه، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى فمات منها.

وقد كان ذلك القبطى كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى من العز والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

---

(١) المغرب والعشاء. (٢) أى مصرى من المصريين القدماء.

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص: ١٨ - ٢١).

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفًا – أى من فرعون ومَلَئِه – أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره، إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم.

فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى يتلفت، فبينما هو كذلك، إذ ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه، أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى، الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطى ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾.

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلى الذى اطلع على ما صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطى اعتقد أنه جاء إليه، لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس، فذهب القبطى فاستعدى فرعون على موسى. وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذه هو القبطى، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلى. فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا.. والله أعلم.

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك بالأمس فأرسل فى طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب. ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ ساعيًا إليه مشفقًا عليه فقال: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أى من هذه البلدة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى فيما أقوله لك.

قال الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى فخرج من مدينة مصر من فوره

على وجهه لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه، قائلاً: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ *وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢١ - ٢٤).

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفًا يترقب، أى يتلفت، وخشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدرى أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أى اتجه له طريق يذهب فيه: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى عسى أن تكون هذه الطريقة موصلة إلى المقصود. وكذا وقع، فقد أوصلته إلى المقصود وأى مقصود.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئرًا يستقون منها، ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء.

ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس.

وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضًا من الغلط، ولعلهن كن سبعًا، ولكن إنما كانت تسقى اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظًا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أى لا نقدر على ورود الماء بعد صدور الرعاء، لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان. قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما.

ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السمر، وروى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس فى الظل - وهو صفوة الله من خلقه- وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

قال عطاء بن السائب لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة.

يقول تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ **(القصص: ٢٥ - ٢٨).**

ولما جلس موسى عليه السلام فى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبنا إلى أبيهما، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه. فأمر إحداهما، أن تذهب إليه فتدعوه، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أى مشى الحرائر، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾. وأخبره خبره، وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها، ﴿قَالَ﴾ له ذلك الشيخ ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم.

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو؟ فقيل هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنس، جاء مصرحًا به في حديث ولكن فى إسناده نظر.

وصرح طائفة بأن شعيبًا عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته.

وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخى شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه «يثرون» وهكذا هو فى كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أى كبيرها وعالمها.

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون، زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخى شعيب. وزاد ابن عباس: صاحب مدين[1].

والمقصود، أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ** ﴾ أى لرعى غنمك، ثم مدحته بأنه قوى أمين.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كونى من ورائى فإذا اختلف الطريق فاقذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود، أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾.

استدل بهذه الآية جماعة من أصحاب أبى حنيفة رحمه الله، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك، أنه يصح، لقوله: ﴿ **إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** ﴾. وفى هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة. والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة، كما جرت به العادة. واستأنسوا بالحديث الذى رواه ابن ماجه فى سننه مترجمًا عليه فى كتابه: «باب استئجار الأجير على طعام بطنه» حدثنا محمد بن المصفى الحمصى، حدثنا بقية بن الوليد، عن مسلمة بن على، عن سعيد بن أبى أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح، قال: سمعت عتبة بن المنذر يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ

---

(١) وهكذا ذكره ابن كثير فى تفسيره - انظره من تحقيقنا ط/ دار الإيمان بالمنصورة.

طسم، حتى إذا بلغ قصة موسى قال: «**إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه**»[1].

وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصح، لأن مسلمة بن على الخشنى الدمشقى البلاطى ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده، ولكن قد روى من وجه آخر، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر حدثنى ابن لهيعة. ح. وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة[2] عن الحارث بن يزيد الحضرمى. عن على بن رباح اللخمى، قال: سمعت عتبة بن الندر السلمى صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه**».

ثم قال تعالى: ﴿**قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ**﴾ ﴿**وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾. يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان علىَّ والله على قالتنا سامع وشاهد، ووكيل علىَّ وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، قال: سألنى يهودى من أهل الحيرة: أى الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدرى حتى أقدم على حبر فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل[3].

تفرد به البخارى من هذا الوجه، وقد رواه النسائى فى حديث الفتون، كما سيأتى من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير.

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسى، وابن أبى حاتم عن أبيه، كلاهما عن الحميدى[4]، عن سفيان بن عيينة، حدثنى إبراهيم بن يحيى بن

---

(١) ضعيف. رواه ابن كثير فى تفسيره. ورواه ابن ماجه (٢٤٤٤/٥/١٦) ولفظة «إن موسى ﷺ آجر نفسه ثمانى سنين أو عشرًا على عفة فرجه» الحديث.

(٢) عبد الله بن لهيعة: قاضى مصر، ضعيف. قال أحمد: «من كان مثله بمصر من كثرة حديثه وضبطه» وقال بعض الناس «ما روى عنه مثل ابن وهب وابن المبارك فهو أجود وأقوى» من السابقة خلط عليه بعد احتراق كتبه – انظر المغنى فى الضعفاء وحرف (ح) علامة على تحول سند الحديث إلى سند آخر.

(٣) رواه البخارى (٢٦٨٥/٢٨/٥٢) فتح البارى.

(٤) الحميدى هو: عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشى الحميدى المكى، أبو بكر ثقة حافظ فقيه. أجل أصحاب ابن عيينة من الطبقة العاشرة، مات سنة تسع عشرة وقيل بعدها.

أبى يعقوب، عن الحكم بن أبان عن عكرمة، عن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ قال: «**سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما**»[1].

وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث. وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره.

وقد رواه سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد مرسلاً: أن رسول الله ﷺ سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل، فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال: أبرهما وأوفاهما. وبنحوه رواه ابن أبى حاتم من حديث يوسف بن سرج مرسلاً.

وقد رواه البزار وابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران الجونى، وهو ضعيف، عن أبيه عن عبد الله بن الصامت، عن أبى ذر، أن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى؟ قال: «**أوفاهما وأبرهما**». قال: «**وإن سئلت أى المرأتين تزوج؟ فقل الصغرى منهما**».

وقد رواه البزار وابن أبى حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمى، عن على بن رباح، عن عتبة بن الندر، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه**». فلما وفى الأجل قيل: يا رسول الله، أى الأجلين؟ قال: «**أبرهما وأوفاهما**»[2].

فلما أراد فراق شعيب -- سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه، من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمًا سودًا حسانًا فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: «**فأتأمت وألبنت**» ووضعت كلها قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين، ليس فيها فشوش، ولا ضبوب، ولا عزوز، ولا ثعول، ولا كموش تفوت الكف. قال النبى ﷺ: «**لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية**».

قال ابن لهيعة: «الفشوش: واسعة الشخب، والضبوب: طويلة الضرع تجره. والعزوز: ضيقة الشخب، والثعول: الصغيرة الضرع كالحلمتين، والكموش: التى لا يحكم الكف على ضرعها لصغره.

---

(١) الحديث رواه ابن جرير الطبرى فى تاريخه.

(٢) الحديث رواه ابن كثير فى تفسيره.

وفى صحة رفع هذا الحديث نظر. وقد يكون موقوفًا كما قال ابن جرير، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أُبَىٌّ، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: «لما دعا نبى الله موسى صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فوضع حبالاً على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن (كلهن) ذلك العام» وهذا إسناد (جيد) رجاله ثقات. والله أعلم.

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله «لابان» أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقًا، ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام. فالله أعلم.

قال الله: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ **(القصص: ٢٩ - ٣٢).**

تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ** ﴾ وعن مجاهد أنه أكمل عشرًا وعشرًا بعدها.

وقوله: ﴿ **وَسَارَ بِأَهْلِهِ** ﴾ أى من عند صهره، زاعمًا - فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم - أنه اشتاق إلى أهله - فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه.

قالوا: واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة، وتاهوا فى طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف. وجعل يورى زناده فلا يورى شيئًا، واشتد الظلام والبرد.

فبينما هو كذلك أبصر عن بعد نارًا تأجج فى جانب الطور - وهو الجبل الغربى منه عن يمينه. ﴿ **قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم، لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد، ﴿ **لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ** ﴾ أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ **أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة لقوله فى الآية الأخرى ﴿ **وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على**

النار هدى﴾ فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق. وجمع الكل في سورة النمل في قوله: ﴿**إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ وقد آتاهم بخبر وأى خبر، ووجد عندها هدى وأى هدى، واقتبس منها نوراً وأى نور؟!

قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾.

وقال فى النمل: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿**يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ**﴾ **(طه: ١١ - ١٦).**

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج[1]. وكل ما لتلك النار فى اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد. فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة فى لحف جبل غربى منه عن يمينه، كما قال تعالى: ﴿**وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين**﴾ وكان موسى فى واد اسمه «طوى» فكان موسى مستقبل القبْلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالوادى المقدس طوى فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما فى تلك الليلة المباركة.

وعند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور، مهابة له وخوفاً على بصره.

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة، التى لا

---

(١) العوسج: نوع من الشوك.

بد من كونها ووجودها ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أى من خير وشر، وحضه وحثه على العمل لها، ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطبًا ومؤانسًا ومبينًا له أنه القادر على كل شيء، الذى يقول للشيء كن فيكون: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ أى أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾. أى بلى هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها. ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾.

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه هو الذى يقول للشيء كن فيكون، وأنه الفعال بالاختيار.

وعند أهل الكتاب: أنه سأل برهانًا صادقًا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل: ما هذه التى فى يدك؟ قال عصاى قال: ألقها إلى الأرض ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ فهرب موسى من قدامها، فأمر الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدت عصا فى يده.

وقد قال الله تعالى فى الآية الآخرى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات يقال له الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًّا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة. فلما عاينها موسى عليه السلام، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أى هاربًا منها لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى ولم يلتفت. فناداه ربه قائلاً: ﴿ **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾.

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ فيقال إنه هابها شديداً، فوضع يده فى كم مدرعته، ثم وضع يده فى وسط فمها. وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها، فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم، رب المشرقين والمغربين.

ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء، أى من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: ﴿ **اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء، وأضمم إليك جناحك من الرهب** ﴾ قيل معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك.

وهذا وإن كان خاصًّا به، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى هاتان الآيتان، هما: العصا واليد، هما البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه أنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ ومع ذلك سبع آيات آخر. فذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان، حيث يقول تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً *قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر، وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾.

وهي المبسوطة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣).سيأتي الكلام على ذلك في موضعه.

وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات، فإن التسع من كلمات الله القدرية، والعشر من كلماته الشرعية، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بنى إسرائيل (الإسراء).

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (القصص: ٣٢ - ٣٥).

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام، في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذى خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أى اجعله معي معيناً ورداً ووزيراً يساعدني، ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً.

قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى برهاناً ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ أى فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل ببركة آياتنا. ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾.

وقال في سورة طه: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ قيل إنه أصابته فى لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه، والتى كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابته لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصرى: « والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة »، ولهذا بقيت فى لسانه بقية.

ولهذا قال فرعون، قبحه الله، فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿ **ولا يكاد يبين** ﴾ أى يفصح عن مراده، ويعبر عما فى ضميره وفؤاده.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ** ﴾ **(طه: ٢٩، ٣٦).**

أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذى طلبت، وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه. وذا جاه عظيم، قال الله تعالى: ﴿ **وكان عند الله وجيها** ﴾. وقال تعالى: ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾.

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخ أمنّ على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هارون فأوحى إليه. قال تعالى: ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ **(الشعراء: ١٠ - ١٩).**

تقدير الكلام: فأتياه فقالا له ذلك، وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه.

فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والنقص قائلاً له: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أى أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر؟.

وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث إليه هو الذى فر منه، خلافًا لما عند أهل الكتاب: من أن فرعون الذى فر منه مات فى مدة مقامه بمدين، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى وقتلت الرجل القبطى، وفررت منا وجحدت نعمتنا.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى قبل أن يوحى إلىَّ وينزل علىَّ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

ثم قال مجيبًا لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾. أى وهذه النعمة التى ذكرت، من أنك أحسنت إلىَّ وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية.

وذلك أن فرعون – قبحه الله – أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى، وزعم أنه الإله ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾. ﴿ وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾.

وهو فى هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور، الإله الحق كما قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً، فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين ﴾.

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثَم رب أرسله: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأنهما قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كأنه يقول لهما: ومن رب العالمين؟ الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟.

فأجابه موسى قائلاً: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق. وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿ قَالَ ﴾ أى فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أمرائه ومرازبته ووزرائه، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام: ﴿ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعنى كلامه هذا.

﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطبًا له ولهم: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم، من الآباء والأجداد، والقرون السالفة فى الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمه، ولا يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين. وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾.

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع من ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة، المسير للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، والأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر، والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفى فلك يسبحون، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قوى سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾.

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذى بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، أى عظيم الشكل، بديع فى الضخامة والهول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه، أخذه رهب شديد وخوف عظيم، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى اليوم، وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يومًا إلا مرة واحدة، فانعكس عليه الحال.

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه، واستخرجها، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه (واستخرجها) رجعت إلى صفتها الأولى.

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون – لعنه الله – بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته، ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿ **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه، وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري، فلبثت فيها سنين ﴿ **ثم جئت على قدر** ﴾ أي مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي.

﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري** ﴾ يعني ولا تفترا في ذكري إذا قدمتما عليه ووفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه.

وقد جاء في بعض الأحاديث: يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه»[1]، وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ **(الأنفال: ٤٥).**

ثم قال تعالى: ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردأ الخلق، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع

---

(١) حديث ضعيف: رواه الترمذي في سننه (٣٥٨/١١٩/٤٩).

هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين، ويعاملاه بالطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى.

كما قال لرسوله: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (العنكبوت: ٤٦). قال الحسن البصري: ﴿ فقولا له قولاً لينا ﴾ أعذرا إليه، قولا له: إن لك ربًّا ولنا معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال وهب بن منبه، قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟!

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض. وجاه وجنود، وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال: ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ يذكر تعالى إنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى، أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد، ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ تقييد مفيد بليغ عظيم، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي كذب بالحق بقلبه، وتولى عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السدي وغيره، أنه لما قدم من بلاد مدين، دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه «الطفشيل» وهو اللفت، فأكل معهما. ثم قال يا هارون: إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته، فقم معي. فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق. فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل، وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين، لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما. فالله

أعلم. ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب: «أن الله قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوى - يعنى الذى من نسل لاوى بن يعقوب - سيخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل إلى عند فرعون، وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات وقال له: إنى سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتى وأعاجيبى بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حورب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه، فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل وذهبا إلى فرعون فلما بلغاه رسالة الله قال: من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بنى إسرائيل.

وقال الله مُخْبراً عن فرعون: ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ** ﴾ **(طه: ٤٩ - ٥٥).**

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ أى هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقًا وآجالاً، وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق إلي ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه، وقدرته وقدره لكمال علمه. وهذه الآية كقوله تعالى:

﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾ **(الأعلى: ١ - ٣).**

أى قدر قدراً هدى الخلائق إليه.

﴿ **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ** ﴾ يقول فرعون لموسى: «فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلمَ عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى»؟ ﴿ **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ** ﴾ أى هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك، وكل شىء فعلوه مستطر عليهم فى الزبر (الكتب)، من صغير وكبير، وسيجزيهم على ذلك ربى عز وجل، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شىء ولا ينسى ربى شيئًا.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم، كما قال: ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾ أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة، والفطر القويمة غير السقيمة، فهو تعالى الخالق الرازق.

وكما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ **(البقرة: ٢١، ٢٢).**

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال: ﴿ مِنْهَا ﴾ أى من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ **(الروم: ٢٧).**

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ **(طه: ٥٦ - ٥٩).**

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم.

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس ولهذا قال: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمعا لهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام، كما يروِّج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط!

قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ **(طه: ٦٠ - ٦٤).**

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، فى فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفًا – قاله محمد ابن كعب. وقيل سبعين ألفًا قاله القاسم بن أبى بردة، وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفًا، وعن أبى أمامة تسعة عشر ألفًا، وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفًا، وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً، وروى عنه أيضًا أنهم كانوا أربعين غلامًا من بنى إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر، ولهذا قالوا: ﴿ **وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾ وفى هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿ **لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين** ﴾.

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿ **وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ** ﴾.

قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبى وليس بساحر وقائل منهم يقول: بل هو ساحر. فالله أعلم. وأسروا التناجى بهذا وغيره.

﴿ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا** ﴾ يقولون: إن هذا وأخاه هارون، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلانكم عن آخركم ويستأمرهما عليكم بهذه الصناعة.

﴿ **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ** ﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان.

وهيهات! كذبت والله الظنون، أخطأت الآراء، أنى يعارض البهتان، والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديان، على يدى عبده الكليم، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان!

وقولهم: ﴿ **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ** ﴾ أى جميع ما عندكم ﴿ **ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا** ﴾ أى جملة واحدة، ثم حضوا بعضكم بعضًا على التقدم فى هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه: ٦٥ - ٦٩).

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم. قالوا له إما أن تلقى قبلنا، وإما أن نلقى قبلك ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أنتم، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى، فأودعوها الزئبق وغيره، من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابًا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: «بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون».

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم، قبل أن يلقى ما فى يده، فإنه لا يصنع شيئًا قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة: ﴿ لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾.

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها وهربوا سراعًا، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا بقدر عليه إلا الحق، الذى ابتعث هذا

المؤيد به بالحق. وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ **(طه: ٧٠ - ٧٦).**

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره، وأعمى بصيرته ويصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبًا للسحرة بحضرة الناس: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى؟! ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا الذى قاله من البهتان الذى يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يومًا من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحيق، من حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ

فَأْت بِهَا إن كُنتَ منَ الصَّادقينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ للنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ **(الأعراف: ١٠٣ - ١٢٦).**

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ **(يونس: ٧٥ - ٨٢).**

وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **(الشعراء: ٢٩ - ٥١).**

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر فى قوله: ﴿ **إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ** ﴾ وأتى ببهتان يعلمه العالِمون فى قوله: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾، وقوله: ﴿ **لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ** ﴾ يعنى قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه، ﴿ **وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أى ليجعلنهم مثلة ونكالاً لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملته. ولهذا قال: ﴿ **وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جذوع النخل** ﴾ أى على جذوع النخل، لأنها أعلى وأشهر ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى** ﴾ يعنى فى الدنيا.

﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ **والذى فطرنا** ﴾ قيل معطوف، وقيل قسم ﴿ **فاقض ما أنت قاض** ﴾ أى فافعل ما قدرت عليه ﴿ **إنما تقضى هذه الحياة الدنيا** ﴾ أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾ أى ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب، ﴿ **وأبقى** ﴾ أى وأدوم من هذه الدار الفانية، وفى الآية الأخرى: ﴿ **قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا** ﴾ أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ **أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أى من القبط، بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضاً: ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً** ﴾ أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾.

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: ﴿ **إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا** ﴾ يقولون له: فإياك أن تكون منهم. فكان منهم: ﴿ **ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى** ﴾ أى المنازل العالية، ﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** ﴾ فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع، وحكم العلى العظيم بأن فرعون - لعنه الله - من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحميم، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم: ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾.

والظاهر أن من هذه السياقات أن فرعون – لعنه الله – صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم. قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة!.

ويؤيد هذا قولهم: ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾.

فصـــل

ولما وقع مـا وقع من الأمـر العظيم، وهو الغـالب الذي غلب القـبط في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق.

قال الله تعـالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٧، ١٢٩).

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون، وهم الأمراء والكبراء، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبى الله موسى عليه السلام، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى.

قالوا: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ يعنون –قبحهم الله– أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم الله. وقرأ بعضهم: ﴿ وَيَذَرَكَ وإلاهتك ﴾ أي وعبادتك. ويحتمل شيئين: أحدهما ويذر دينك، وتقويه القراءة الأخرى، والثانى: ويذر أن يعبدك، فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله.

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أى لئلا يكثر مقاتلتهم، ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ أى غالبون.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ أى إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين* فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين* ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾.

وقولهم: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أى قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا. قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: ٢٣، ٢٤).

وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليًّا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جدًّا، كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بنى إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصولون على القبط بسببها، وكان القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم: «صار فرعون مذكرًا» وهذا منه، فإن فرعون فى زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى عذت بالله ولجأت إليه (واستجرت) بجنابه، من أن يسطو فرعون وغيره علىَّ بسوء. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى، ولا يخاف عذاب الله وعقابه، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء. ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٨، ٢٩).

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفًا منهم على نفسه، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظًا ومعنى، والله أعلم.

قال ابن جريج قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا، والذى جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الدارقطنى لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السهيلى. وفى تاريخ الطبرى: أن اسمه «خير» فالله أعلم.

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما هم فرعون - لعنه الله بقتل موسى عليه السلام - وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأى.

وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[1] وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جورا منه، وهذا الكلام لا أعدل منه! لأنه فيه عصمة نبى ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه. والأول أظهر، والله أعلم.

﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾ أى من أجل أنه قال ربى الله فمثل هذا لا يقابل بهذا، بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام.

يعنى لأنه ﴿ **وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ أى الخوارق التى دلت على صدقه فما جاء به عمن أرسله، فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة، لأنه ﴿ **إِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ** ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ **وَإِن يَكُ صَادِقًا** ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ **يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** ﴾. أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به، فيفى بكم إن حل جميعه عليكم؟ وهذا الكلام فى هذا المقام، من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام.

وقوله: ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم!

وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا فى شك وريب، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور، والنعمة والحبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين. ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق، البار الراشد، التابع للحق، الناصح لقومه، الكامل العقل: ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى عالين على الناس

(١) حديث ضعيف. رواه أحمد فى مسنده (٣/٩).

حاكمين عليهم، ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك، ولا رد عنا بأس مالك الممالك.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أي في جواب هذا كله: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ أي ما أقول لكم إلا ما عندي، ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغيًا وعدوانًا، وعتوًّا وكفرانًا.

قال الله تعالى إخبارًا عن موسى: ﴿ **لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر، وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا * وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾.

وأما قوله: ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ فقد كذب أيضًا، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال، في دعواه أنه رب، تعالى الله ذو الجلال!.

قال الله تعالى: ﴿ **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ** ﴾(الزخرف: ٥١ - ٥٦).

وقال تعالى: ﴿ **فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾(النازعات: ٢٠ - ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** ﴾(هود: ٩٦ - ٩٩).

والمقصود بيان كذبه فى قوله: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ وفى قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٠ - ٣٥).

يحذرهم ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم، من النقمات والمثلات، مما تواتر عندهم وعند غيرهم، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة، فى صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة، وهو يوم التناد، أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً، حين يولون إن قدروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلاً.

يقول تعالى: ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلاَّ لا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (القيامة: ١٠ - ١٢).

وقال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٣ - ٣٦).

وقرأ بعضهم: ﴿ يوم التنادّ ﴾ بتشديد الدال، أى يوم الفرار، ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس، فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٢، ١٣).

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر، وما كان من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل. ولهذا قال: ﴿ فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أى وكذبتم فى هذا. ولهذا قال: ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾. أى يردون

حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت، أى يبغض من تلبس به من الناس، ومن اتصف به من الخلق ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ قرئ بالإضافة بالنعت، وكلاهما متلازم: أى هكذا إذ خالفت القلوب الحق - ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها، أى يختم عليها بما فيها.

يقول تعالى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ** ﴾ **(غافر: ٣٦، ٣٧).**

كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم: ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا** ﴾ وقال ها هنا: ﴿ **لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ** ﴾ أى طرقها ومسالكها، ﴿ **فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ ويحتمل هذا معنيين: أحدهما وإنى لأظنه كاذباً فى قوله إن للعالم ربًّا غيرى، والآخر فى دعواه أن الله أرسله والأول أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع والثانى أقرب إلى اللفظ حيث قال: ﴿ **فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ** ﴾ أى فأسأله هل أرسله أم لا؟ ﴿ **وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ أى فى دعواه تلك، وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام، وأن يحثهم على تكذيبه.

قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ وقرئ: ﴿ **وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ** ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد: يقول: إلا فى خسار، أى باطل، لا يحصل له شىء من مقصوده الذى رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً - أعنى السماء الدنيا - فكيف بما بعدها من السموات العلى؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل؟ وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح، وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه، وأنه كان مبنيًّا من الآجر المشوى بالنار ولهذا قال: ﴿ **فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا** ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شىء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويطلب منهم كل يوم قسط معين، إن لم

يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية. ولهذا قالوا لموسى ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط، وكذلك وقع، وذا من دلائل النبوة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه. قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (غافر: ٣٨ - ٤٠).

يدعوهم رضى الله عنه إلى طريق الرشاد الحق، وهى متابعة نبى الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه، ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورغبهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه. الذى يعطى على القليل كثيراً، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها، وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار، التى من وافاها - مؤمناً قد عمل الصالحات - فله الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد، والخير الذى كل ما لهم منه فى مزيد.

ثم شرع فى إبطال ما هم عليه، وتخويفهم مما يصيرون إليه، فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤١ - ٤٦).

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض، الذى يقول للشىء كن فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون!.

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾.

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار، فقال: ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أى لا تملك تصرفاً ولا حكماً فى هذه الدار، فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق والرازق للأبرار

والفجار، وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم، فيدخل طائعهم الجنة، وعاصيهم إلى النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

قال الله: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التى ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم. ولهذا قال: ﴿ وَحَاقَ ﴾ أى أحاط ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أى تعرض أرواحهم فى برزخهم صباحًا ومساء على النار. ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر فى التفسير، ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم، وإزاحة الشبه عنهم، وأخذ الحجة عليهم منهم، بالترهيب تارة والترغيب أخرى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون و (هم) قومه من القبط بالسنين وهى عوام الجدب التى لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع. وقوله: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ وهى قلة الثمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم، ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ الخصب ونحوه ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أى هذا الذى نستحقه، وهذا الذى يليق بنا ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون فى الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء الشر أسندوه إليه، وإن رأوا خيرًا ادعوه لأنفسهم. قال الله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى مهما جئتنا به من الآيات – وهى الخوارق للعادات – فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا

بكل آية. وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (يونس ٩٦، ٩٧).

قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

أما الطوفان فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدى والضحاك وعن ابن عباس وعطاء: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال، وعن ابن عباس: أمر طاف بهم.

وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال: «**الطوفان الموت**»[1] وهو غريب.

وأما الجراد فمعروف، وقد روى أبو داود عن أبي عثمان، عن سلمان الفارسى قال: سُئل رسول الله عن الجراد، فقال: «**أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه**»[2] وترك النبى ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له، كما ترك أكل الضب، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث، لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[3] وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار فى التفسير.

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعًا ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً[4] وأما القمل فعن ابن عباس: هو السوس الذى يخرج من الحنطة. وعنه أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال سعيد بن جبير والحسن: هو دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم القمل هى البراغيث. وحكى ابن جرير عن أهل العربية: أنها الحمنان وهو صغار القردان فوق القمقامة[5] فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقر لهم قرار. ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف.

وأما الضفادع فمعروفة، لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع.

---

(١) حديث ضعيف. رواه السيوطى فى الفتح الكبير (٢/٢١٩).

(٢) الحديث رواه أبو داود (٢/٣٢١) حلبى كتاب الأطعمة - باب فى أكل الجراد.

(٣) رواه مسلم (٣٤/٨/٥٢) ورواه البخارى (٧٢/١٣). (٤) السبد: القليل. اللبد: الكثير.

(٥) القمقامة وهى صغار القردان وهى دويبات متطفلة تعيش على الدواب والطيور تمتص دماءها.

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله فلا يستقون من النيل شيئًا إلا وجدوه دمًا عبيطًا، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دمًا في الساعة الراهنة.

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية. وهذا من تمام المعجزة الباهرة، والحجة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام. فينالهم عن آخرهم، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل، وفي هذا أدل دليل.

قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين: فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان – وهو الماء – ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا، حتى جهدوا جوعًا.

فلما بلغهم ذلك ﴿ **قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشف عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل** ﴾.

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم. فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا. أرسل الله عليهم الجراد، فأكل كل الشجر فيما بلغني حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم. فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى عليه السلام، أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار.

فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه.

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دمًا عبيطًا (طري). وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ **(الأعراف: ١٣٤ – ١٣٦).**

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله، مع ما أيده من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة إلى شر ما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما أتت قبلها وأقوى، فيقولون ويكذبون، ويعدون ولا يفون: لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم الطويل العريض.

هذا، والعظيم الحليم القدير، ينظرهم ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم. ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، والإعذار إليهم، أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين، فى سورة حم والكتاب المبين: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِه قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ (الزخرف: ٤٦ - ٥٥).**

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم، وإنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون وعن الحق ينصرفون. فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً، وكل آية أكبر من التى تتلوها، لأن التوكيد أبلغ مما قبله.

﴿ **وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ** ﴾ لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصاً ولا عيباً، لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة، ولهذا خاطبوه فى حال احتياجهم إليه، وضراعتهم لديه، قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ** ﴾.

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه، وعظمة بلده و حسنها، وتخرق الأنهار

فيها، وهى الخلجانات التى يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته، وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام، ويزدريه بكونه ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة، التى هى شرف له وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه.

وتنقصه فرعون - لعنه الله - بكونه لا أساور فى يديه، ولا زينة عليه! وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً، وأتم معرفة، وأعلى همة وأزهد فى الدنيا، وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الأخرى؟

قوله: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك، فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء فى الحديث: «**إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع**» فكيف يكون تواضعهم - وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم!

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوى الألباب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور، وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية، لعنه الله وقبحهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أى أغضبونا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى بالغرق والإهانة وسلب العز، والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش، عياذاً بالله العظيم، وسلطانه القديم من ذلك.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أى لمن اتبعهم فى الصفات ﴿وَمَثَلاً﴾ أى لمن اتعظ بهم: خاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (القصص: ٣٦ - ٤٢).

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب الكبير العزيز، الذى لا يغالَب ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديار، بل كل قد غرق فدخل النار، وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون.

ولم يؤمن منهم إلا القليل، قيل ثلاثة: وهم امرأة فرعون، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها، ومؤمن آل فرعون الذى تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة فقال: ﴿ **يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾.

قاله ابن عباس فما رواه ابن أبى حاتم عنه ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط.

وقيل بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون، والسحرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى:

﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ **(يونس: ٨٣).**

فالضمير فى قوله: ﴿ **إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ** ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه، وقيل على موسى لقربه، والأول أظهر كما هو مقرر فى التفسير وإيمانهم إليه فيفتنهم عن دينهم.

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً: ﴿ **وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى جبار عنيد مشتغل بغير الحق، ﴿ **وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ أى فى جميع أموره وشؤونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان انجعافها وثمرة خبيثة قد آن قطافها، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾

فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به، والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتًا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض. وقوله: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قيل مساجد، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها.

قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم.

ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم، عوضًا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق فى ذلك الزمان، الذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفًا من فرعون وملئه والمعنى الأول أقوى لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. وإن كان لا ينافى الثانى أيضًا والله أعلم.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أى متقابلة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٨٨، ٨٩).

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضبًا لله عليه، لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلى الحسى والمعنوى، والبرهان القطعى، فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ﴾ يعنى قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، لكن هذه الأموال وهذه الزينة، من اللباس والمراكب

الحسنة الهنية، والدور الأنيقة والقصور المبنية، والمآكل الشهية والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض فى الدنيا لا الدين.

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أى أهلكها. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما أتت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة، وقال محمد بن كعب: جعل سكرهم حجارة، وقال أيضًا: صارت أموالهم كلها حجارة ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له قم ائتنى بكيس. فجاء بكيس، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة!. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس: أى اطبع عليها. وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه.

فاستجاب الله تعالى لها، وحققها وقبلها، كما استجاب لنوح فى قومه حيث قال: ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارا** ﴾. ولهذا قال تعالى مخاطبًا لموسى حين دعا على فرعون وملئه، وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعى أيضًا: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب: استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره. ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وإنما كان فى نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم.

وأمرهم الله تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعيروا حليًّا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ **(الشعراء: ٥٢ - ٦٨).**

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالبًا بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم، حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم. وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية. وكان بين خروجهم من مصر بصحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها بصحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وست وعشرون سنة شمسية. والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبقث ثم ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة. فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾. وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدته، وهم منه في غاية الخوف والذعر؛ لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر.

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه. فقال الرسول الصادق المصدوق: «كلا إني معي ربي سيهدين» وكان في الساقة (المؤخرة)، فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزابد زبد أجاجه، وهو يقول: ها هنا أمرت. ومعه أخوه هارون، ويوشع بن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبيًا بعد موسى، وهارون عليهما السلام، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله، ومعهم أيضًا مؤمن آل فرعون، وهم وقوف، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف. ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر، هل يمكن سلوكه؟ فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله ها هنا أُمرتَ؟ فيقول: نعم.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى موسى الكليم: ﴿**أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ**﴾. فلما ضربه، يقال إنه قال له: انفلق بإذن الله، ويقال إنه كناه بأبي خالد[1]، والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾. ويقال إنه انفلق اثني عشر طريقًا، لكل سبط طريق يسيرون فيه،

(1) الكنية ما بدأت بأب كما هنا أو أم كأم سلمة رضي الله عنها.

حتى قيل إنه صار فيه أيضًا شبابيك ليرى بعضهم بعضًا! وفى هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه.

وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال، مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشيء كن فيكون، وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فأذهبته، حتى صار يابسًا لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ *وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (طه: ٧٧ - ٧٩).

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال، بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدى قلوب المؤمنين، فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه، ووفودهم عليه.

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال، كما قال وهو الصادق فى المقال:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ ﴾ (الدخان: ١٧ - ٣٣).

فقوله تعالى: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أى ساكنًا على هيئته، لا تغيره عن هذه الصفة. قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين، هاله

هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العداء، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لأدرك عبيدى الآبقين من يدى، الخارجين على طاعتى وبلدى؟ وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات!.

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارس راكب على رمكة حائل (فرسة غير حبلى) فمر بين يدى فحل فرعون لعنه الله، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر، واستبق الجواد وقد أجاد، فبادر مسرعاً، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين[1]، حتى هَمَّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيها أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر. فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾. أى فى إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظيمة، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به من ربه من الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾.

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم؛ ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل، وأشفى لنفوسهم. فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به، وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧).

---

(١) ألفاظ للتأكيد مثل (طُلَّهم).

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (غافر: ٨٤، ٨٥).

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه، أن يطمس على أموالهم، ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، أى حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم. وقد قال تعالى لهما – أى لموسى وهارون – حين دعوا بهذا: ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قال فرعون: (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال لى جبريل: «لو رأيتنى وقد أخذت من حال البحر فدسسته فى فيه، مخافة أن تناله الرحمة!**». ورواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، وقال الترمذى حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة**»[1].

ورواه الترمذى وابن جرير من حديث شعبة، وقال الترمذى حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير فى رواية إلى وقفه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر ابن عبد الله بن يعلى الثقفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته: «آمنت أنه لا إله إلا الذى أمنت به بنو إسرائيل، قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه، فيضرب به وجهه فيرمسه. ورواه ابن جرير من حديث أبى خالد به.

وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف، وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال لى جبريل عليه السلام: يا محمد لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من الحال فى فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له**»! يعنى فرعون.

وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمى وقتادة وميمون بن مهران، ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس، وفى بعض الروايات أن جبريل قال: ما

(١) رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده (٢/٥٤/٣٠٧) والحال هو طين البحر الذى فى القاع.

بغضت أحداً بغضى لفرعون حين قال: ﴿أنا ربكم الأعلىٰ﴾ ولقد جعلت أدس فى فيه الطين حين قال ما قال.

وقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك، لأنه - والله أعلم - لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ قال الله: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل على وجه الماء، وقيل على نجوة من الأرض، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه، ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى مصاحبًا درعك المعروفة بك، ﴿لِتَكُونَ﴾ أى أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أى من بنى إسرائيل، ودليلاً على قدرة الله الذي أهلكك، ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾. ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بجسدك مصاحبًا درعك، لتكون علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت، والله أعلم. وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء.

كما قال الإمام البخارى فى صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا اليوم الذى تصومونه؟**» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبى ﷺ لأصحابه: «**أنتم أحق بموسى منهم فصوموا**»[1]. وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما. والله أعلم.

فصل فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ

(1) رواه البخارى فى صحيحه (٦٥/١٢٠-٢/٤٦٨٠) ورواه مسلم فى صحيحه (١٣/١٩/١٢٧) بنحوه.

أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٣٦ - ١٤١).

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم، وكيف سلبهم عزّهم وما لهم وأنفسهم، وورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم.

كما قال: ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء: ٥٩).

وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص: ٥).

وقال ها هنا: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾.

أى أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا.

ذكر ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر: أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها، بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم، واستمرت هذه سُنة نساء مصر إلى يومنا[1] هذا!.

وعند أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح أهل كل بيت حملاً من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه. فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم، ليكون علامة لهم على بيوتهم، ولا يأكلونه مطبوخًا، ولكن مشويًا برأسه وأكارعه وبطنه، ولا يبقوا منه شيئًا، ولا يكسروا له عظمًا، ولا يخرجوا منه شيئًا إلى خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك فى فصل الربيع فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة، وخفافهم فى أرجلهم، وعصيهم فى أيديهم، وليأكلوا بسرعة قيامًا، ومهما فضل عن عشائهم فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار. وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها، فإذا نسخت بطل شرعها. وقد وقع.

قالوا: وقتل الله عز وجل فى تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم، ليشتغلوا

---

(١) يحبذ الإسلام أن يكون الرجل أرفع حالا من المرأة حتى يرفعها إليه وقول ابن كثير كان فى أيامه وإلا فإن فى أيامنا هذه من يعتبر زوجته كأنها جارية من جواريه وللرجل حق وكذلك للمرأة فلا يتجاوز كل حقه.

عنهم. وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار، وأهل مصر فى مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم، ليس من بيت إلا وفيه عويل.

وحين جاء الوحى إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره، وحملوا الأزواد فى الأردية وألقوها على عواتقهم، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليًا كثيرًا، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذرارى بما معهم من الأنعام. وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة. هذا نص كتابهم.

وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ، هذا العيد عيد الفسخ، ولهم عيد الفطر، وعيد الحمل، وهو أول السنة، وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم، منصوص عليها فى كتابهم.

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، وخرجوا على طريق بحر سوف، وكانوا فى النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور، والليل أمامهم عمود نار، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هناك حلول على شاطئ اليم، فقلق كثير من بنى إسرائيل، حتى قال قائلهم: كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية. فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا.

قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل فى البحر واليبس. وصار الماء من ها هنا وها هنا كالجبلين، وصار وسطه يبسًا، لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه، فرجع الماء كما كان عليهم ولكن عند أهل الكتاب: أن هذا كان فى الليل، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح. وهذا من غلطهم وعدم فهمهم فى تعريبهم، والله أعلم.

قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب، وقالوا: «نسبح الرب البهى، الذى قهر الجنود، ونبذ فرسانها فى البحر المنيع المحمود» وهو تسبيح طويل.

قالوا: وأخذت مريم النبية - أخت هارون - دفًا بيدها، وخرجت النساء فى أثرها كلهن بدفوف وطبول. وجعلت مريم ترتل لهن وتقول: سبحان الرب القهار، الذى قهر الخيول وركبانها إلقاء فى البحر.

وهكذا رأيته فى كتابهم، ولعل هذا هو من الذى حمل محمد بن كعب القرظى على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى، هى أخت هارون وموسى، مع قوله: « يا أخت هارون ».

وقد بينا غلطه فى ذلك، وأن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحد عليه، بل كل واحد خالفه فيه، ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام وأم عيسى عليها السلام وافقتها فى الاسم واسم الأب واسم الأخ، لأنهم كانوا كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة، لما سأله أهل نجران عن قوله: يا أخت هارون فلم يدر ما يقول لهم، حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «**أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم**». رواه مسلم.

وقولهم: « النبية » كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة، ومن بين الإمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئًا من ذلك، فكذا هذه استعارة لها، لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها.

وضربها بالدف فى هذا اليوم الذى هو من أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد، وهذا مشروع لنا أيضًا فى حق النساء، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف فى أيام منى، ورسول الله ﷺ مضطجع فحول ظهره إليهن، ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال: أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «**دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا**». وهكذا يشرع عندنا فى الأعراس ولقدوم الغياب، كما هو مقرر فى موضعه، والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جازوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك، فوجدوا ماء زعافًا أجاجًا لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه، فحلا وساغ شربه، وعلمه الرب هنالك فرائض وسننًا، ووصاه وصايا كثيرة[1].

وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ **(الأعراف: ١٣٨، ١٣٩).**

قالوا هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته، ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصنامًا، قيل كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم، لم يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم

(١) وببعث محمد ﷺ لم يبق لهم أية حقوق إلا اتباع محمد والدخول في دين الإسلام والسير على منهاجه.

وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبينًا لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم، في تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبيّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، لأنه الخالق الرازق القهار، وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ أى قال بعضهم كما فى قوله:

﴿ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا** ﴾ **(الكهف: ٤٧، ٤٨).**

فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن سنان ابن أبى سنان الديلمى عن أبى واقد الليثى، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبى ﷺ: «**الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم** »[1].

ورواه النسائى عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. ورواه الترمذى عن سعيد ابن عبد الرحمن المخزومى، عن سفيان بن عيينة، عن الزهرى به، ثم قال: حسن صحيح.

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومَعْمَر وعقيل، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان، عن أبى واقد الليثى، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها «ذات أنواط» قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال: «**قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم**

(١) رواه الترمذي. ورجاله ثقات (٢١٨٠/١٨/٣٤).

موسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

والمقصود أن موسى عليه السلام، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قومًا من الجبارين، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم.

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل[1]، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلط الله عليهم الخوف. وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون يرتحلون ويذهبون ويجيئون، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ* يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ* قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(المائدة: ٢٠ - ٢٦).

يذكرهم نبى الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعمة الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أى تنكصوا على أعقابكم، وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فتخسروا بعد الربح، وتنقصوا بعد الكمال.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أى عتاة كفرة متمردين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسًا، وأكثر جمعًا وأعظم جندًا. وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة. ومذمومون على هذه الحالة، من الذلة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً حتى إنهم ذكروا أن رسل

(١) وهذا في أيام ما كان الله شرع اليهودية دينا أما وقد جاء الله بدين آخر وبالذات الدين الخاتم دين الإسلام فلا حق لهم سوى الدخول فيه.

بنى إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين، فجعل يأخذهم واحداً واحداً، ويلفهم فى أكمامه وحجزة سراويله، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه. وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها.

وأن الملك بعث معهم عنبًا كل عنبة تكفى الرجل، وشيئًا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم. وهذا ليس بصحيح.

وذكروا ها هنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بنى إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلث ذراع.

هكذا ذكره البغوى وغيره، وليس بصحيح، كما قدمنا بيانه عند قوله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن**».

قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها، ثم أخذها بيديه يلقيها على جيش موسى، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقًا فى عنق عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه فوثب فى الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه فقتله.

يروى هذا عن نوف البكالى، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفى إسناده إليه نظر. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بنى إسرائيل، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحًا لكان بنو إسرائيل معذورين فى النكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم. وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام، ونهياهم عن الإحجام. ويقال: إنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدى والربيع بن أنس، وغير واحد.

﴿ **قَالَ رَجُلان منَ الَّذينَ يَخَافُونَ** ﴾ أى يخافون الله، وقرأ بعضهم ﴿ **يُخَافُونَ** ﴾ أى يهابون ﴿ **أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا** ﴾ أى بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ أى إذا توكلتم على الله، واستعنتم به ولجأتم إليه، نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿ **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم ووهن كبير، فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما، وإن موسى وهارون سجدا إعظامًا لهذا الكلام وغضبًا لله عز وجل، وشفقة عليهم من وبيل المخالفة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس اقض بيني وبينهم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض، يسيرون إلى غير مقصد، ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساء. ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة، ولم يبق إلا ذراريهم، سوى يوشع وكالب عليهما السلام.

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى، بل لما استشارهم فى الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن، وتكلم غيره من المهاجرين.

ثم جعل يقول: «أشيروا عليَّ» حتى قال سعد بن معاذ[1]: كأنك تعرض بنا يا رسول الله؟ فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمسى، عن طارق – هو ابن شهاب – أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون[2]. وهذا إسناد جيد من هذا الوجه، وله طرق أخرى.

قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر. حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً، لأن أكون أنا صاحبه، أحب إليَّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله يشرق لذلك وسر بذلك[3]. رواه البخارى فى التفسير، والمغازى من طرق عن مخارق به.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا على بن الحسين بن على، حدثنا أبو حاتم الرازى، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا حميد عن أنس، أن

---

(١) وكان من الأنصار. (٢) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٣١٤/٤)، وإسناده جيد.

(٣) رواه البخارى (٣٩٥٢/٤/٦٤، ٤٦٠٩) فتح. ورواه أحمد (٣٩٠/١، ٤٢٨).

رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، استشار المسلمين فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ، قالوا: إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾، والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك.

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس به، ورواه النسائى عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد، عن أنس به نحوه، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى، عن عبد الأعلى عن معتمر عن حُمَيْد عن أنس به نحوه.

فصل فى دخول بنى إسرائيل التيه

وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة.

ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن فيه: أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلما مالت يده من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس، فانتصر حزب يوشع عليه السلام، وعندهم أن « يثرون » كاهن مدين وختن[1] موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون، فقدم على موسى مسلماً، ومعه ابنته صفورا زوجة موسى، وابناها منه، جرسون، وعازر، فتلقاه موسى وأكرمه، واجتمع به شيوخ بنى إسرائيل وعظموه وأجلوه.

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بنى إسرائيل على موسى فى الخصومات التى تقع بينهم، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء، يبغضون الرشاء والخيانة، فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف، ورؤوس مئين، ورؤوس خمسين، ورؤوس عشرة، فيقضوا بين الناس، فإذا أشكل عليهم أمر جاءوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم، ففعل ذلك موسى عليه السلام.

قالوا: ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء، فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر. وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم، وهى أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف، والله أعلم.

(١) الختن كل من كان قريبا للزوجة كأبيها وأخيها.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه، وأمره أن يذكر بنى إسرائيل ما أنعم به عليهم، من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحى نسر من يده وقبضته، وأمره أن يأمر بنى إسرائيل أن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث، فإذا كان فى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل، ولا يقتربن أحد منهم إليه، فمن دنا منه قتل، حتى ولا شىء من البهائم، ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه. فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا.

فلما كان اليوم الثالث ركبت الجبل غمامة عظيمة، وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً. ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعًا شديداً، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل، وغشى الجبل دخان عظيم فى وسطه عمود نور زلزل الجبل كله زلزلة شديدة. واستمر صوت الصور، وهو البوق واشتد، وموسى عليه السلام فوق الجبل، والله يكلمه ويناجيه. وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل، ويأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله، وأمر الأحبار، وهم علماؤهم، أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب. وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة[1].

فقال موسى: يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوا، وقد نهيتهم عن ذلك فأمره الله تعالى إن يذهب ويأتى معه بأخيه هارون، ولكن الكهنة وهم العلماء، والشعب وهم بقية بنى إسرائيل، غير بعيد، ففعل موسى. وكلمه ربه عز وجل، فأمره حينئذ بالعشر الكلمات (الوصايا العشر).

وعندهم أن بنى إسرائيل سمعوا كلام الله، ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى، وجعلوا يقولون لموسى: بلغنا أنت عن الرب عز وجل، فإنا نخاف أن نموت.

فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات، وهى الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهى عن الحلف بالله كاذبًا، والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت، أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض. الذى يعطيك الله ربك، لا تقتل لا تزن لا تسرق. لا تشهد على صاحبك شهادة زور، ولا تمد عينيك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا من الذى لصاحبك، ومعناه النهى عن الحسد.

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات فى آيتين

(١) إذ لا يعترفون بالنسخ حتى لا يقال أن المسيحية قد نسخت اليهودية ثم الإسلام نسخ المسيحية.

من القرآن، هما قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **(الأنعام: ١٥١ - ١٥٣).**

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكامًا متفقة عزيزة، كانت فزالت، وعمل بها حينًا من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها، ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها، ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة، بعد ما كانت مشروعة مكملة.

فللّه الأمر من قبل ومن بعد، وهو الذى يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر، وتبارك الله رب العالمين.

وقال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ **(طه: ٨٠ - ٨٢).**

يذكر تعالى منته وإحسانه على بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أى منهم، ولينزل عليه أحكامًا عظيمة فيها مصلحة لهم دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم في الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع، منا من السماء، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد، ومن أخذ منه قليلاً كفاه، أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز، وهو فى غاية البياض والحلاوة، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى، فيقتنصون منها بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم.

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام، وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر.

كما قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠، ٤١).

إلى أن قال: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٤٩ - ٥٧).

إلى أن قال: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦٠، ٦١).

فذكر تعالى إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم، بما يسر لهم من المن والسلوى، طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه، بل ينزل الله المن باكراً، ويرسل عليهم طير السلوى، عشياً، وأنبع الماء لهم، بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا، فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط عين منه تنبجس، ثم تنفجر ماء زلالاً فيستقون (فيشربون) ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم، وظلل عليهم الغمام من الحر.

وهذه نعم من الله عظيمة، وعطيات جسيمة، فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها. ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.

فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى هذا الذى تطلبونه

(١) مصرا من الأمصار (البلاد) لا مصر البلد المعروف.

وتريدونه بدل هذه النعم التى أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها - تجدون بها ما تشتهون وما ترومون بما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ها هنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى.

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم، تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ **ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى** ﴾ أى فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار، وقد حل عليه غضب الملك الجبار.

ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال: ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى** ﴾.

سؤال موسى عليه السلام الرؤية

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ **(الأعراف: ١٤٣ - ١٤٧)**.

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذى الحجة.

فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفى مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه، وأقام حجته وبراهينه.

والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات، وكان فيه صائمًا يقال: إنه لم يستطعم الطعام، فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمره الله أن يمسك عشراً أخرى، فصارت أربعين ليلة. ولهذا ثبت فى الحديث: أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى إسرائيل أخاه هارون، المحبب

المبجل الجليل. وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه، فوصاه، وأمره، وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ أى في الوقت الذى أمر بالمجيء فيه ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه، وقربه وأدناه. وهذا مقام رفيع ومعقل منيع، ومنصب شريف ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى.

ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة وسمع الخطاب! سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ ثم بيّن تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان، لا يثبت عند التجلى من الرحمن، ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾.

وفى الكتب المتقدمة: أن الله تعالى قال له: (**يا موسى أنه لا يرانى حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده**)[1].

وفى الصحيحين عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **حجابه النور - وفى رواية النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** »[2].

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ ذاك نوره الذى هو نوره. إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال مجاهد: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل، فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا.

وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذى، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت، زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال هكذا بإصبعه، ووضع النبى ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل. لفظ ابن جرير.

(١) تدهده: تدحرج إلى أسفل.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١/٧٩/٢٩٣).

وقال السدى عن عكرمة، عن ابن عباس: ما تجلى - يعنى من العظمة - منه إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكًّا، قال: ترابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أى مغشيًّا عليه. وقال قتادة: ميتًا. والصحيح الأول لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد. ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أى فلست أسأل بعد هذه الرؤية، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد حى إلا مات. ولا يابس إلا تدهده.

وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى حسن المازنى الأنصارى، عن أبيه، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور؟**»(1). لفظ البخارى: وفى أوله قصة اليهودى الذى لطم وجهه الأنصارى حين قال: لا والذى اصطفى موسى على البشر. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تخيرونى من بين الأنبياء**»(2).

وفى الصحيحين من طريق الزهرى عن أبى سلمة وعبد الرحمن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه. وفيه: «**لا تخيرونى على موسى**» وذكر تمامه.

وهذا من باب الهضم والتواضع، أو نهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرد الرأى، بل بالتوقيف.

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ بإطلاعه على أفضليته عليهم كلهم، ففى قوله نظر؛ لأن هذا من رواية أبى سعيد وأبى هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا. والله أعلم.

ولا شك أنه، صلوات الله وسلامه عليه، أفضل البشر بل الخليقة، قال الله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ وما كملوا إلا بشرف نبيهم.

وثبت بالتواتر عنه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»(3) ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون، الذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه (٢٤١٢/١/٤٤) ورواه مسلم فى صحيحه من طريق أبى هريرة (١٦٢/١٥٩/٤٣).
(2) الحديث رواه البخارى فى صحيحه (٣٤٠٨/٣١/٦).
(3) رواه ابن ماجه فى سننه (٤٣٠٨/٣٧/٣٧) وتمامه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر ﷺ».

وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش - أى آخذًا بها - فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور»[1] دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة، حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشًا بقائم العرش. قال الصادق المصدوق: فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى؟ أى وكانت صعقته خفيفة، لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق، «أو جوزى بصعقة الطور»؟ يعنى فلم يصعق بالكلية.

وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقًا من كل وجه. ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال: «**لا والذى اصطفى موسى على البشر**» قد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه الصلاة والسلام، فبين النبى ﷺ فضيلته وشرفه.

وقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي**﴾ أى فى ذلك الزمان، لاما قبله؛ لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم، ولا ما بعده؛ لأن محمداً ﷺ أفضل منهما، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه قال: «**سأقوم مقامًا يرغب إلىَّ الخلق حتى إبراهيم**».

وقوله تعالى: ﴿**فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ أى فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك.

وقال الله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ وكانت الألواح من جوهر نفيس، ففى الصحيح: أن الله كتب له التوراة بيده، وفيها مواعظ من الآثام، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام.

﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ**﴾ أى بعزم ونية صادقة قوية ﴿**وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**﴾ أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿**سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾ أى سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى، المخالفين لأمرى، المكذبين لرسلى.

﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ**﴾ أى عن فهمها وتدبرها، وتعقل معناها الذى أريد منها،

---

(١) رواه البخارى (٦٠/٢٥/٣٣٩٨) ورواه أبو داود فى سننه (٢/٥٣١).

ودل على مقتضاها ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أى ولو شاهدوا ما شاهدوا من الخوارق والمعجزات، لا ينقادون لاتباعها، ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أى لا يسلكوه ويتبعوه ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا، وتغافلهم عنها، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير فى معناها، وترك العمل بمقتضاها. ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قصة عبادتهم العجل فى غيبة كليم الله عنهم

قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (الأعراف: ١٤٨ - ١٥٤).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ

الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه: ٨٣ - ٩٨).

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل، حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها.

فعمد رجل منهم يقال له هارون السامرى، فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلى، فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى. ويقال إنه استحال عجلاً جسداً أى لحمًا ودمًا يخور، قاله قتادة وغيره. وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون.

﴿ **فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾ أى فنسى موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه وهو هاهنا! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، تقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وهباته.

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيوانًا بهيمًا أو شيطانًا رجيمًا: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾؟. وقال: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾.

فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابًا، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا يهدى إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم. عالمون فى أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال.

﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ** ﴾ أى ندموا على ما صنعوا ﴿ **وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة، ألقاها، فيقال إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب، وإن الله أبدله غيرها، وليس فى اللفظ القرآنى ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين.

وعند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة. ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك.

ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال: قال الرسول ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1].

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا

(١) رواه أحمد فى مسنده (١/٢١٥/٢٧١).

إليه، بما ليس بصحيح، ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار!

ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له: ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ﴾ أى هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا. فقال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم.

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى، وزجرهم عنه أتم الزجر.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ أى لا هذا ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ أى فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام، ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه.

ثم أقبل موسى على السامرى ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾؟ أى ما حملك على ما صنعت؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أى رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أى من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه، وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان. ولهذا قال: ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً، معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه، وهذا معاقبة له فى الدنيا، ثم توعده فى الأخرى فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾. وقرئ: ﴿ لَّن تَخلفه ﴾، ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾. قال: فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل، فحرقه (قيل) بالنار، كما قاله قتادة وغيره. وقيل بالمبارد، كما قاله على وابن عباس وغيرهما، وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه فى البحر، وأمر بنى إسرائيل فشربوا، فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد ما يدل عليه، وقيل بل اصفرت ألوانهم.

ثم قال تعالى إخباراً عن موسى؟ أنه قال لهم: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ وهكذا وقع. وقد قال بعض السلف: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة!.

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه، بتوبته عليه، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٥٤).

فيقال إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفًا!

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ استدل بعضهم بقوله: ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ على أنها انكسرت، وفى هذا الاستدلال نظر وليس فى اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس فى حديث الفتون كما سيأتى: أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر. وما هو ببعيد، لأنهم حين خرجوا ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ﴾. وهكذا عند أهل الكتاب، فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم، بلاد بيت المقدس. وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل، قتلوا فى أول يوم ثلاثة آلاف، ثم ذهب موسى يستغفر لهم، فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٥ - ١٥٧).

ذكر السدى وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بنى إسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناذاب وأبيهو، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل. وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل.

فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله، وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ **(البقرة: ٧٥).**

وليس هذا بلازم، لقوله تعالى: ﴿ **فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ** ﴾ **(التوبة: ٦).**

أى مبلغًا، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغًا من موسى عليه السلام.

وزعموا أيضًا أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ **(البقرة: ٥٥، ٥٦).**

وقال ها هنا: ﴿ **فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى** ﴾.

قال محمد بن إسحق: اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً: الخير فالخير، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم.

فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل.

فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله، وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿ **يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ فأخذتهم الرجفة، وهى الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعًا. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿ **رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** ﴾؟ أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا

قومهم عن عبادة العجل. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف، يعنى أنت الذى قدرت هذا، وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما: ﴿قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أى اختبرتم.

ولهذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أى من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته، لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدى وقتادة وغير واحد. وهو كذلك فى اللغة.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتى تغلب غضبى**»(1). ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الآية.

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام، فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه. وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها فى التفسير بما فيه كفاية ومقنع، ولله الحمد والمنة.

وقال قتادة: قال موسى يا رب إنى أجد فى الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة محمد.

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق، السابقون فى دخول الجنة، رب اجعلهم أمتى، قال: تلك هى أمة أحمد.

قال: رب إنى أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم، قال: رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد.

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه (٧٤٢٢/٢٢/٩٧). ورواه مسلم فى صحيحه (١٤/٤/٤٩).

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليه ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم قال: رب فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب فإنى أجد فى الألواح أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتب له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال: رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم، فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد.

قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلنى من أمة أحمد.

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه، وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان فى صحيحه: « ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة » أخبرنا عمر بن سعيد الطائى ببلخ، حدثنا حامد بن يحيى البلخى، حدثنا سفيان، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان، قالا سمعنا الشعبى يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبى ﷺ: «**إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل: أى أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له ادخل الجنة، فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أُخاذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: نعم أى رب، فيقال: لك هذا ومثله معه فيقول: أى رب رضيت، فيقال له: لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك، وسأل ربه: أى أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال سأحدثك عنهم: غرست كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1].

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١/٨٤/٣١٢).

ومصْداق ذلك فى كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ **(السجدة: ١٧).**

وهكذا رواه مسلم والترمذى كلاهما عن ابن أبى عمر، عن سفيان - وهو ابن عيينة - به: ولفظ مسلم: «**فيقول له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقال له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فيقول فى الخامسة: رضيت رب. فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر**».

قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

وقال الترمذى حسن صحيح: قال: ورواه بعضهم عن الشعبى عن المغيرة فلم يرفعة، والمرفوع أصح.

وقال ابن حبان: «ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع»: حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس، حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة**» والسابعة لم يكن موسى يحبها.

قال: يا رب أى عبادك أتقى؟ قال: الذى يذكر ولا ينسى. قال: فأى عبادك أهدى؟ قال: الذى يتبع الهدى. قال: فأى عبادك أحكم؟ قال: الذى يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأى عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأى عبادك أعز؟ قال: الذى إذا قدر غفر. قال: فأى عبادك أغنى؟ قال: الذى يرضى بما يؤتى. قال: فأى عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص.

وقال رسول الله ﷺ: «**ليس الغنى عن ظهر، إنما الغنى غنى النفس، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه فى نفسه وتقاه فى قلبه، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه**»[1].

قال ابن حبان: قوله «صاحب منقوص» يريد به منقوص حالته، يستقل ما أوتى ويبطل الفضل.

---

(١) رواه البخارى (٦٤٤٦/١٥/٨١) من طريق أبى هريرة ولفظه (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) من غير زيادة، راجع فهارسى المسماة مفاتيح القارى لأبواب فتح البخارى.

وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التميمي، عن هارون ابن هبيرة، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه. وفيه قال: أى رب فأى عبادك أعلم؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه، عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أى رب فهل فى الأرض أحد أعلم منى؟ قال: نعم الخضر. فسأل السبيل إلى لقيه، فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله، وبه الثقة.

● **ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان:**

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ أنه قال: **إن موسى قال: أى رب عبدك المؤمن مقتر عليه فى الدنيا! قال: ففُتح له باب من الجنة فنظر إليها، قال: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال موسى: يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وأنّ هذا مصيره لم ير بؤسًا قط. قال: ثم قال: أى رب عبدك الكافر موسع عليه فى الدنيا، قال: ففتح له باب إلى النار فقال: يا موسى هذا ما أعددت له. فقال: موسى أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط**[1]. تفرد به أحمد من هذا الوجه، وفى صحته نظر، والله أعلم.

وقال ابن حبان: «ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئًا يذكره به» حدثنا ابن سلمة، حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث أن دراجًا حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال: «**قال موسى: يا رب علمنى شيئًا أذكرك به وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقول: هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئًا تخصنى به. قال: يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله**».

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة[2]، وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروى فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال: «**أفضل الدعاء دعاء عرفة. وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير**»[3].

---

(١) ضعيف: رواه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٢، ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) رجل ثقلت كفة ذنوبه ثم جاءت بطاقة فيها لا إله إلا الله في كفة حسناته فرجحت.

(٣) رواه مالك فى الموطأ (٢٠/٨١/٢٤٦) ورواه السيوطى فى الفتح الكبير (١/٢٠٨، ٢٠٩).

وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكي، حدثني أبي عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله! فناداه ربه عز وجل: يا موسى سألوك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى. فلما ذهب من الليل ثلثه نعس فوقع لركبتيه. ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك! قال: وأنزل الله على رسوله آية الكرسي.

وقال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل بن الحكم بن أبان؛ عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل؟ فأرسل الله إليه ملكًا فأرقه ثلاثًا، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأمر أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان، فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان، قال: فضرب الله له مثلاً: أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض.

وهذا حديث غريب رفعه، والأشبه أن يكون موقوفًا، وأن يكون أصله إسرائيليًّا.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (البقرة: ٦٣، ٦٤).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧١).

قال ابن عباس وغير واحد من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم. فقالوا: انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه مرارًا، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة، أي غمامة، على رؤوسهم، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة اليهود إلى اليوم، يقولون لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب.

وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: فلما

نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهودى صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم: ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم. ﴿ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ **(البقرة: ٦٧ - ٧٣).**

قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى، وغير واحد من السلف: كان رجل في بنى إسرائيل كثير المال، وكان شيخًا كبيرًا، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق، ويقال على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبى الله؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى ﷺ. فقال موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به» فلم يكن عند أحد منهم علم منه. وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل.

فسأل ربه عز وجل في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة. فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليَّ، وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى أن أسأله فيه. قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدى وأبو العالية وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكن شددوا فشُدِّد عليهم.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، وفي إسناده ضعف.

فسألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سنها، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم، وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في التفسير.

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهى الوسط النصف بين الفارض وهى الكبيرة، والبكر وهى الصغرة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة. ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها، فأمروا بصفراء فاقع لونها، أى مشرب بحمرة، تسر الناظرين، وهذا اللون عزيز، ثم شددوا أيضًا ﴿ **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ * إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** ﴾.

ففى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه: «لولا أن بنى إسرائيل استثنوا لما أعطوا»[1] وفى صحته نظر. والله أعلم.

﴿ **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم؛ حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول، وهى المذللة بالحراثة وسقى الأرض بالساقية، مسلمة، وهى الصحيحة التى لا عيب فيها، قاله أبو العالية وقتادة. وقوله: ﴿ **لَّا شِيَةَ فِيهَا** ﴾ أى ليس فيها لون يخالف لونها، بل هى مسلمة من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها. فلما حددها بهذه الصفات، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ **قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ** ﴾.

ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًا بأبيه، فطلبوها منه فأبى عليهم، فأرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه، فيما ذكره السدى، بوزنها ذهبًا فأبى عليهم، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها منهم.

فأمرهم نبى الله موسى بذبحها ﴿ **فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ أى وهم يترددون فى أمرها. ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها قيل بلحم فخذها، وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وقيل بالبضعة التى بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو تشخب أوداجه، فسأله نبى الله موسى من قتلك؟ قال: قتلنى ابن أخى. ثم عاد ميتًا كما كان.

قال الله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ **(البقرة: ٧٣)**.

أى كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره فى سائر الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة واحدة كما قال: ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ **(لقمان: ٢٨)**.

---

(١) ذكر الهيثمي هذا الحديث بنحوه مختصرا في مجمع الزوائد (٦/٣١٤) وقال: رواه البزار وفيه عباد بن منصور هو ضعيف وبقية رجاله ثقات واستثنوا قالوا: إن شاء الله.

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ **(الكهف: ٦٠ - ٨٢).**

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذى رحل إلى الخضر هو موسى بن منسا ابن يوسف ين يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل من كتبهم؛ منهم نوف بن فضالة الحميرى الشامى البكالى. ويقال إنه دمشقى، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار.

والصحيح الذى دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه: أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل.

قال البخارى: حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار، قال: أخبرنى سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله: حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا فى بنى

إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ (هناك)، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سرباً، أمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما.

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً فقال له موسى: ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً.

قال: فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يا موسى إني على علم من الله علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول (أجر) فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر**»!.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ

صَبْرًا ﴾؟ قال: وهذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾. قال: مائل. فقام الخضر «فأقامه» بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ ﴾. إلى قوله: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «**وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما**».

قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ: «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين»[1].

ثم رواه البخاري أيضًا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزل عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام».

قال سفيان: «وفى حديث غير عمرو قال: وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا ﴾ الآية. وساق الحديث.

وقال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره[2]، وذكر تمام الحديث.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم، قال أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، يزيد أحدهما على صاحبه، وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال سلونى: فقلت: أى أبا عباس - جعلنى الله فداك - بالكوفة رجل قاص يقال له نوف، يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل. أما عمرو فقال لى، قال: قد كذب عدو الله. وأما يعلى فقال لى: قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: موسى رسول الله قال ذكر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب ولى، فأدركه رجل فقال: أى رسول الله! هل فى الأرض رجل أعلم

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١٧٠/٤٦/٤٣). (٢) وهو تمثيل فإن علم الله لا غاية له ولا نهيل ولا يقاس.

منك؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله. قيل: بلى. قال: أى رب فأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أى رب اجعل لى علمًا أعلم ذلك به. قال لى عمرو قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لى يعلى: قال خذ نونًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح.

فأخذ حوتًا فجعله فى مكتل، فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت، قال ما كلفت كثيرًا، فذلك قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبير، قال بينما هو فى ظل صخرة، فى مكان ثريان إذ اضطرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره، واضطرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر، قال لى عمرو: هكذا، كأن أثره فى حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما.

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ قال: قد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد. أخبره فرجع فوجدا خضرًا - قال لى عثمان بن أبى سليمان - على طنفسة خضراء على كبد البحر، قال سعيد بن جبير مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتك لتعلمنى مما علمت رشدًا، قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحى يأتيك؟ يا موسى إن لى علمًا لا ينبغى لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغى لى أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمى وعلمك فى جانب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴾ وجد معابر صغارًا تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر، عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح. قال فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر، فخرقها ووتد فيها وتدًا ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾. قال مجاهد: منكرًا. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ كانت الأولى نسيانًا. والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ قال يعلى قال سعيد: وجد غلمانًا يلعبون فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾، لم تعمل بالخبيث، وكان ابن عباس قرأها: زكية زاكية مسلمة، كقولك غلامًا زكيًا.

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ قال سعيد بيده هكذا، ورفع يده فاستقام. قال يعلى: حسبت أن سعيدًا قال: فمسحه بيده فاستقام: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قال سعيد: أجرًا نأكله.

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم ﴾ وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه « هدد بن بدد » والغلام المقتول اسمه يزعمون « جيسور » ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سدوها بقارورة، ومنهم من يقول بالقار (الزفت).

﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وكان كافراً ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه، ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ لقوله: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾، ﴿ وأقرب رحما ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خضر.

وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أُبدلا جارية، وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية.

وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خطب موسى بني إسرائيل، فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره مني، فأمر أن يلقى هذا الرجل، فذكر نحو ما تقدم.

وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة، والحكم بن عيينة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً.

ورواه العوفي عنه موقوفًا. وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس: أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خَضِر، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئًا؟ قال: نعم، وذكر الحديث..

وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد[1].

وقوله: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ قال السهيلي: وهما أصرم وصريم ابنا كاشح ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قيل كان ذهباً، قاله عكرمة. وقيل علماً، قاله ابن عباس: والأشبه أنه كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه علم. قال البزار: حدثنا إبراهيم ابن سعيد الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس الغساني، عن ابن حجيرة، عن أبي ذر رفعه قال: « إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من الذهب مصمت[2] مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب! (تعب) وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله ».

وهكذا روى عن الحسن البصري وعمر مولى غفرة وجعفر الصادق نحو هذا.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم – من تحقيقنا ط دار الإيمان بالمنصورة – مصر.
(٢) غير مجوف.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾، قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر، وعلى كل تقدير: فيه دلالة على أن الرجل الصالح يُحفظ فى ذريته والله المستعان.

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ – دليل على أنه كان نبيًّا، وأنه ما فعل شيئًا من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى، وقيل رسول وقيل ولى وأغرب من هذا من قال إنه كان ملكًا، قلت وقد أغرب جداً من قال هو ابن فرعون، وقيل إنه ابن ضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة.

قال ابن جرير: والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن «أفريدون» ويقال إنه كان على مقدمة ذى القرنين الذى قيل إنه كان أفريدون، وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن.

وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل، وقيل اسمه ملكان، وقيل أرميا بن حلقيا، وقيل كان نبيًّا فى زمن سباسب بن بهراسب.

قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب قال ابن جرير: والصحيح أنه كان فى زمن أفريدون، واستمر حيًّا إلى أن أدركه موسى عليه السلام. وكانت نبوة موسى فى زمن «منوشهر» الذى هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلاً. وهو أول من خندق الخنادق، وأول من جعل فى كل قرية دهقانًا (حاكما)، وكانت مدة ملكه قريبًا من مائة وخمسين سنة. ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم.

وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل، ويحير السامع، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل. والله أعلم. وقد قال تعالى: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١).**

فأخذ الله ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجىء بعده من الأنبياء وينصره واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبى أدركه أن يؤمن به وينصره. فلو كان الخضر حيا فى زمانه، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة.

وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًّا، وهو الحق، ورسولاً كما قيل، أو ملكًا فيما ذكر، وأيًّا ما كان فجبريل رئيس الملائكة، وموسى أشرف من الخضر، ولو

كان حيًّا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر وليًّا كما يقوله طوائف كثيرون؟ فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى. ولم ينقل فى حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يومًا واحدًا إلى رسول الله ﷺ، ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه، فإسناده ضعيف، والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا.

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون

المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي فى كتاب التفسير من سننه، عند قوله تعالى: ﴿ **وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ﴾ **(طه: ٤٠)**.

حديث الفتون[1]:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون: حدثنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبى أيوب، أخبرنى سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ﴾ فسألته عن الفتون ما هى؟ فقال أستأنف النهار يا ابن جبير، فإن لها حديثًا طويلاً.

فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأتنجز منه ما وعدنى من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون جلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أبناء وملوكًا فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون منه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون فى بنى إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك.

فلما رأو أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون قالوا ليوشكن أن تفنوا بنى إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيوا منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم.

فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان، فولدت علانية آمنة.

---

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره وقال: «وهكذا رواه النسائى فى السنن الكبرى» وانظر التفسير من تحقيقنا.

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام. فوقع فى قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون، يا ابن جبير! ما دخل عليه فى بطن أمة مما يراد به.

فأوحى الله إليها: أن ﴿ لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم.

فلما ولدت فعلت ذلك. فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى؟ لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلىَّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه؟.

فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة مستقى جوارى امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه، فأردن أن يفتحن التابوت، فقالت بعضهن: إن فى هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئًا حتى دفعنه إليها. فلما فتحته رأت فيه غلامًا، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه. وذلك من الفتون يا ابن جبير!.

فقالت لهم: «أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل، حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه منى كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم. فأتت فرعون فقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ فقال فرعون: يكون لك، فأما لى فلا حاجة لى فيه. فقال رسول الله ﷺ: «**والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له، كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك**»[1].

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئرًا (مرضعة)، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك. فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها، فلم يقبل. وأصبحت أم موسى والهًا، فقالت لأخته: قصى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرًا؟ أحى ابنى أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه.

﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ أخته ﴿ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به. فقالت من الفرح حين أعياهم الظئرات: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾. فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل تعرفينه؟ حتى شكوا فى ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير! فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك رجاء منفعة الملك، فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها نزا

(١) والبلاء موكول بالمنطق فلا نتكلم إلا بخير.

إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريًّا، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا، فأرسلت إليها فأتت بها وبه.

فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئًا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه، فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آلوه خيرًا، فعلت، فإني غير تاركة بيتي وولدي وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتًا حسنًا، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم فى ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أيريني ابني فوعدتها يومًا تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينًا يحصى كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون. فلما دخلت عليها نحلته وأكرمته، وفرحت به، وأنحلت أمه لحسن أثرها عليه. ثم قالت: لآتين به فرعون لينحلنه وليكرمنه.

فلما دخلت به عليه جعله فى حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون،ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه؟ إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصارعك! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به.

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى؟ فقال: ألا ترينه يزعم أن يصرعنى ويعلونى؟ فقالت: اجعل بينى وبينك أمرًا تعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه! فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم ير اللؤلؤتين علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به، وكان الله بالغًا فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فغضب موسى غضبًا شديدًا، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع

إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسى الفرعونى فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ثم قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾. الآيات.

فأتى فرعون فقيل له: إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا يَرخص لهم، فقال ابغونى قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة من قومه لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فصادف موسى وقد ندم على ما كان من وكزه الذى رأى، فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعونى فخاف الإسرائيلى وقال: ﴿ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ﴾؟ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا.

وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره. وذلك من الفتون يا بن جبير!.

فخرج موسى متوجهًا نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ يعنى بذلك حابستين غنمهما. فقال لهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ معتزلتين الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظل بشجرة، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطانًا فقال: إن لكما اليوم

لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته. فلما كلمه ﴿ **قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان لسنا فى مملكته، فقالت إحداهما: ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلىَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لى: امشى خلفى وانعتى لى الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت.

فقال له: هل لك ﴿ **أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمانى سنين واجبة، وكانت السنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد – وهو ابن جبير – لقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم، فقال: هل تدرى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدرى. فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبى الله واجبة، لم يكن نبى الله لينقص منها شيئًا؟ وتعلم أن الله كان قاضيًا عن موسى عدته التى وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك، فقال: الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده: ما قص الله عليك فى القرآن.

فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءاً يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله عز وجل سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه.

فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون، فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا: ﴿ **إنا رسولا ربك** ﴾ قال: ﴿ **فمن ربكما** ﴾ فأخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن. قال: فما تريدون؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معى بنى إسرائيل، فأبى عليه وقال: ائت ﴿ **بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ** ﴾ حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل.

ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملأ من حوله فيما رأى فقالوا له: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ يعني ملكهم الذى هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما.

فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعلم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتى، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم. فتواعدوا ﴿ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾.

قال سعيد: فحدثنى ابن عباس أن يوم الزينة، اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا فى صعيد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا يا موسى، بعد تريثهم بسحرهم ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ قال بل ألقوا، ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة، فأوحى الله إليه: ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فلما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصا تلتبس بالحبال، حتى صارت حرزًا للثعابين تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلاً إلا ابتلعته.

فلما عرف السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله تعالى، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله ما كنا عليه.

فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾.

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ أرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات

مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ليوافقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً.

فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التقى على من بقى بعد من فرعون وأشياعه.

فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيًا لله عز وجل!.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا (**قال أصحاب موسى: إنا لمدركون**)، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تُكذب قال وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر، كما أمر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه لهم ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم.

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى. وأجلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه فى ثلاثين يومًا، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئًا من نبات الأرض فمضغه، قال له ربه حين أتاه: لِمَ أفطرت؟ - وهو أعلم بالذى كان - قال يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك! ارجع فصم عشراً ثم ائتنى، ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك ولا ممسكينه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل

قوم عندهم من ذلك متع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر، جيران لبنى إسرائيل، ولم يكن من بنى إسرائيل، فاحتمل موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى أثرًا فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون: يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون. فقال: أريد أن تكون عجلاً فاجتمع ما كان فى الحفرة من متع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله ما كان فيه صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقة: يا سامرى ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق!

وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه، وعكفنا عليه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى.

وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل وأعلنوا عدم التكذيب به.

فقال لهم هارون عليه السلام: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ** ﴾ **(طه: ٩٠).** ليس هذا.

قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يومًا قد مضت وقال سفهاؤهم: أخطأ موسى ربَّه فهو يطلبه ويبتغيه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال: أخبره بما لقى قومه من بعده، ﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا** ﴾ فقال لهم ما سمعتم مما فى القرآن ﴿ **وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ وألقى الألواح من الغضب. ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامرى فقال له: ما حملك علي ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم ﴿ **فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا** ﴾. ولو كان إلهًا لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فنكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألو الخير من خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى الحق فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض.

فاستحيا نبى الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿ **رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾.

فقال: يارب سألتك التوبة لقومى، فقلت: إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى، فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحوم، فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقى من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن.

وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون أمرهم، واطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أُمروا به وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمرًا عجبًا من عظمها، فقالوا: ﴿ **يا موسى إن فيها قوم جبارين** ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، ﴿ **فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾.

﴿ **قال رجلان من الذين يخافون** ﴾ قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين، آمنا بموسى وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى.

فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل: ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان

يومئذٍ فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فى كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذى كان فيه بالمنزل الأول بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ ، وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل. فقال: كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية، وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد ذلك وحضره.

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائى، وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون. والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر.

وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شىء يسير مصرح برفعه فى أثناء الكلام.

وفى بعضه ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك، والله أعلم.

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير المصبّغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس[1] مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة، وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره.. ويعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفاً، وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً، ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربعة حلق فى أربع زواياه، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب – يعنون صفة ملكين بأجنحة، وهما متقابلان صنعه رجل اسمه: «بصليال».

---

(١) الحرير المصبوغ.

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراعان ونصف، لها ضباب ذهب وإكليل ذهب، بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب، مفرزة فى مثل الرمان من خشب ملبس ذهبًا. وأن يعمل صحافًا ومصافى وقصاعًا على المائدة، ويصنع منارة من الذهب تتدلى فيها ست قصبات من ذهب، من كل جانب ثلاث، على كل قصبة ثلاثة سرج، وليكن فى المنارة أربعة قناديل، ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب، صنع ذلك «بصليال» أيضًا، وهو الذى عمل المذبح أيضًا.

ونصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة، وهو - والله أعلم - المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولاً جداً، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم، وكيفيته، وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل.

ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه، ويأمره وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبيين[1] فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهى.

وإذا تحاكموا إليه فى شيء ليس عنده من الله فيه شيء، يجيء إلى قبة الزمان، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وقد كان هذا مشروعًا لهم فى زمانهم، أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ، فى معبدهم وعند مصلاهم، فأما فى شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها، لئلا تشغل المصلين، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لما وسع مسجد رسول الله ﷺ، للذى وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وقال ابن عباس: لا تزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم.

وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم، إذ جمع الله هممهم فى صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان

(١) أصل الكروبي الملاك المقدم وقد مثلوا لها أمثلة.

أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده، من العبادة العظيمة. فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل في التيه، يصلون إليها وهى قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدم القربان أخوه هارون عليه فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون فى الذى كان يليه أبوهم، من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن.

وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاة يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذى دخل بهم بيت المقدس كما سيأتى بيانه.

والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر – وقيل سبعة عشر – شهراً.

ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهى قبلة إبراهيم فى شعبان سنة اثنتين فى وقت صلاة العصر وقيل الظهر، كما بسطنا ذلك فى التفسير عند قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾. الآيات.

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ* قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ* فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ* فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ* وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ* تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(القصص: ٧٦ – ٨٣).

قال الأعمش عن المنال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسماك ابن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال: هو هارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث. قال ابن جرير، وهذا قول أكثر أهل العلم: إنه ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى، فأهلكه البغى لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب زاد فى ثيابه شبراً طولاً ترفعًا على قومه.

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد، وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً. فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: «لا تفرح» أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** ﴾ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا ﴿ **لا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ أى وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال، ﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ أى وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك، ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى ولا تسئ إليهم ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾.

فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن قال: ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ يعنى أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، وإنى أهل له، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى.

قال الله تعالى ردًّا عليه وفيما ذهب إليه: ﴿ **أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ أى قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به. كما قال تعالى: ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾.

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان

يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء[1] تخييل وصنعة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً في الباطن منافقًا في الظاهر. ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير، ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم، من ملابس ومراكب وخدم وحشم. فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء، ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء، قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أي وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده، وأيد لبه وحقق مراده.

وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات!

قال الله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾.

لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها قال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه (عبد الله بن عمر) عن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل[1] في الأرض إلى يوم القيامة**»[2].

ثم روى البخاري من حديث جرير بن زيد، عن سالم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه، وقد ذكر عن ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا، فيقال إنها قالت له ذلك، فأرعد من الفرق وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك، وما حملك عليه، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك.

---

(١) كانوا يعتقدون في تحويل النحاس ذهبا بنوع من الصنعة.

(٢) الجلجلة: الحركة مع صوت. فالمعنى يتجلجل في الأرض أن ينزل فيها مضطربًا.

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه (٥٧٩/٥/٧٧) ورواه مسلم في صحيحه بمعناه من طريق أبي هريرة (٤٩/١٠/٣٧).

واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خر موسى لله ساجداً، ودعا الله على قارون. فأوحى الله إليه: أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك، فالله علم.

وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه فى زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام، وهو يذكر قومه بأيام الله. فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثيرة منهم ينظرون إليه فدعاه موسى عليه السلام فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت عليَّ بالنبوة، فقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون عليَّ ولأدعون عليك.

فخرج موسى وخرج قارون فى قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو أنا؟ قال أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له فى موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم، فأوحى الله إليه إنى قد فعلت. فقال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم. ثم قال: أقبلى بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بنى لاوى فاستوت بهم الأرض.

وقد روى عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة. وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة، وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا إسرائيليات كثيرة، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً.

وقوله تعالى: ﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ من دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ لم يكن ناصر له من نفسه ولا من غيره كما قال: ﴿ **فما له من قوة ولا ناصر** ﴾.

ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أوتى، وشكروا الله تعالى، الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿ **لولا أن مَّنَ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ وقد تكلمنا على لفظ ويكأنه فى التفسير، وقد قال قتادة: ويكأن بمعنى ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى: أن الدار الآخرة وهى دار القرار، وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هى معدة ﴿ **لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا** ﴾ فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر.

والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية، من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ فإن الدار ظاهرة فى البنيان، وقد تكون بعد ذلك فى التيه، وتكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام، كما قال عنترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحًا دار عبلة واسلمى

والله أعلم.

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن، قال الله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ **(غافر: ٢٣، ٢٤).**

وقال تعالى بعد ذكر عاد وثمود: ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ **(العنكبوت: ٣٩، ٤٠).**

فالذى خسف به الأرض قارون كما تقدم، والذى أغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة، عن عيسى بن هلال الصدفى، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: «**من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىِّ بن خلف**»[1]. انفرد به أحمد رحمه الله.

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام

وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ **(مريم: ٥١، ٥٣).**

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ **(الأعراف: ١٤٤).**

وتقدم فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى؟ أم جوزى بصعقة الطور؟**».

---

(١) الحديث: رواه أحمد فى مسنده (١٦٩/٢).

وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع، وإلا فهو - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة، قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ (النساء: ١٦٣).

وقال: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (النساء: ١٦٤).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (الأحزاب: ٦٩).

قال الإمام أبو عبد الله البخارى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن روح بن عبادة، عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى كان رجلاً حيًّا ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياء منه. فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة** (ورم في الخصية)، **وإما آفة. وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبى حجر، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن في الحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا**[1] **فذلك قوله عز وجل:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾.

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه عن أبى هريرة به، وهو فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به. ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلى عنه.

قال بعض السلف: «كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله، وطلب منه أن يكون معه وزيراً، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيًّا، كما قال: ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا** ﴾.

ثم قال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن الأعمش قال سمعت أبا وائل، قال سمعت عبد الله[2]، قال: قسم رسول الله ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٥/٢٠) ورواه مسلم فى صحيحه (٣/٧٥) ورواه أحمد فى مسنده (٢/٣١٥، ٣٢٤، ٣٩٢، ٤١٤، ٥٣٥) ورواه أبو داود الطيالسى فى مسنده (٢٤٦٥).

(٢) ابن مسعود رضي الله عنه.

لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر**»[1].

وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان، عن زيد بن أبي زائدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**لا يبلغني أحد عن أحد شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**». قال: وأتي رسول الله ﷺ مال فقسمه، قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة، فثبت حتى سمعت ما قالا، ثم أتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله! إنك قلت لنا لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا. فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه، ثم قال: «**دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر**»!.

وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به، وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدي عن الوليد به. وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره، ورواه مسلم عن أنس.

وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة، فقال له جبريل: هذا موسى، فسلم عليه. قال: «**فسلمت عليه فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما تجاوزت بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي!**»[2]. وذكر إبراهيم في السماء السابعة، وهذا هو المحفوظ.

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس، من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله – فقد ذكر غير واحد من الحفاظ: أن الذي عليه الجادة: أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه (٦٣٣٦/١٩/٨٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٩/١/١٨) ورواه مسلم في صحيحه (٣٥٩/١) والنسائي في سننه (١/٥).

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة – مر بموسى، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدة. فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، ويخفف عنه في كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة. وقال الله تعالى: «**هى خمس وهى خمسون**» أى بالمضاعفة، فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً.

وقال البخارى: حدثنا مسدد، حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل هذا موسى فى قومه**».

هكذا رواه البخارى وهذا الحديث ها هنا جاء مختصراً.

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال: حدثنا شريح، حدثنا هشام، حدثنا حصين ابن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: إني لم أكن في صلاة ولكنى لدغت. قال: وكيف فعلت؟ استرقيت قال وما حملك على ذلك؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبى عن بريدة الأسلمى أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حمة»، فقال سعيد – يعنى ابن جبير – قد أحسن من أنهى إلى ما سمع.

ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «**عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط، والنبى معه الرجل والرجلان والنبى وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى؟ فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فإذا سواد عظيم، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب، فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**».

ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل، فخاض القوم فى ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبى ﷺ. وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا قط وذكروا أشياء.

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه؟**» فأخبروه بمقالتهم فقال: «**هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عُكَاشَّة بن محصن الأسدى فقال: «وأنا منهم يا رسول الله؟ قال: «**أنت منهم**»، ثم قام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «**سبقك بها عكاشة**»!.

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو فى الصحاح والحسان وغيرها وقد أوردناها فى باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها.

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيراً، وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مراراً، وكررها كثيراً، ومطولة ومبسوطة ومختصرة، وأثنى عليه ثناء بليغًا.

وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره. ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه، كما قال فى سورة البقرة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (آل عمران: ١ - ٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩١، ٩٢).

فأثنى الله تعالى على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحًا عظيمًا.

وقال تعالى في آخرها: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٤، ١٥٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

إلى أن قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٧، ٤٨).

فجعل القرآن حاكمًا على سائر الكتب غيره، وجعله مصدقًا لها ومبينًا ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتاب، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم، لسوء فهمهم وقصورهم فى علومهم، ورداءة مقصودهم وخيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله - ما لا يحد ولا يوصف، وما لا يوجد مثله ولا نعرف.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٤٨-٥٠).

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (القصص: ٤٨، ٤٩).

فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما الصلاة والسلام.

وقالت الجن لقومهم: ﴿ إنا سمعنا كتابًا أُنزل من بعد موسى ﴾.

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١ - ٥).

قال: سبوح سبوح، هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران.

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام، كانت شريعة عظيمة، وأمته كانت أمة كثيرة، ووجد فها أنبياء وعلماء، وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء. وسادات وكبراء. لكنهم كانوا فبادوا، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها. ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

ذكر حجه عليه السلام
إلى البيت العتيق «وصفته»

قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا داود بن أبى هند، عن أبى العالية، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال: «**أى واد هذا؟**» قالوا: وادى الأزرق، قال: «**كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية**»، حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: «**أى ثنية هذه؟**» قالوا هذه ثنية هرشاء، قال: «**كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة**» - قال هشيم: يعنى ليفًا - وهو يلبى[1].

أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هند - به.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١/٧٤/٢٦٨) ورواه أحمد فى مسنده (١/٢١٥، ٢١٦) والجؤار: رفع الصوت والاستغاثة. وهرشاء: جبل على طريق الشام والمدينة، قريب من الجحفة. خطام: هو الحبل الذي يقاد به البعير، يجعل على خطمه. خلبة: بإسكان اللام وضمها، وهو الليف. انظر النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير.

وروى الطبرانى عن ابن عباس مرفوعًا: «إن موسى حج على ثور أحمر»، وهذا غريب جداً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن ابن عون، عن مجاهد قال: كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه «**ك ف ر**» قال: ما يقولون؟ قال: يقولون مكتوب بين عينيه «**ك ف ر**» فقال ابن عباس: لم أسمعه. قال ذلك ولكن قال: «**أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأنى أنظر إليه وقد انحدر من الوادى يلبى**»[1] قال هشيم: الخلبة: الليف.

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود، عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم: فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط، قالوا فإبراهيم؟ قال: انظروا إلى صاحبكم**»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا شيبان قال: حدث قتادة عن أبى العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال: قال نبى الله ﷺ: «**رأيت ليلة أسرى بن موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس**»[3].

وأخرجاه من حديث قتادة به، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر قال الزهرى: وأخبرنى سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين أسرى به: «**لقيت موسى، قال فنعته، فإذا رجل - حسبته قال - مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة، ولقيت عيسى - فنعته رسول الله ﷺ فقال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، يعنى الحمام قال: ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به**» الحديث.

وقد تقدم غالب هذه الأحاديث فى ترجمة الخليل.

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخارى فى صحيحه: «وفاة موسى عليه السلام» حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه عن أبى هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتنى

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٣٣٥٥/٨/٦٠). (٢) رواه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٨/٤٨/٦٠) ويقصد انه شبيه به.
(٣) رواه البخارى بمعناه (٣٣٩٤/٢٤/٦٠).

إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أى رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن.

قال: فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «**فلو كنت ثم (هناك) لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثب الأحمر**»[1].

قال: وأنبأنا معمر عن همام عن أبى هرير عن النبى ﷺ نحوه.

وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به - ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، عن أبى هريرة مرفوعاً وسيأتى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس يعنى سليم ابن جبير - عن أبى هريرة، قال: الإمام أحمد لم يرفعه، قال: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها، فرجع الملك إلى الله فقال: إنك بعثتنى إلى عبد لك لا يريد الموت، قال: فقد فقأ عينى. قال فرد الله عبنه، وقال: ارجع إلى عبدى فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة.

قال: ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: «فالآن يارب من قريب».

تفرد به أحمد، وهو موقوف بهذا اللفظ.

وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق معمر، عن أبى طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال معمر: وأخبرنى من سمع الحسن عن رسول الله ﷺ. فذكره.

ثم استشكله ابن حبان، وأجاب عنه بما حاصله: أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل فى صورة أعرابى، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط فى صورة شاب، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً. وكذلك موسى لعله لم يعرفه، لذلك لطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذن، وهذا موافق لشربعتنا فى جواز فقء عين من نظر إليك فى دارك بغير إذن.

ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن همام عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه، قال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه**» وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخارى.

ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه، قال له: أجب ربك، وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ، من تعقيب قوله أجب ربك بلطمه ولو استمر على

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه (٦٠/٣١/٣٤٠) ومسلم فى صحيحه (٤٣/٤٢/١٥٧).

الجواب الأول لتمشى له، وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة، ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق، إذ لم يتحقق فى تلك الساعة الراهنة أنه ملك كريم، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها فى حياته، من خروجهم من التيه، ودخولهم الأرض المقدسة. وكان قد سبق فى قدر الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هارون أخيه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وقد زعم بعضهم: أن موسى عليه السلام هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة. وذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين.

ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك. ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها، وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر، رمية بحجر.

ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: «فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند ألكثيب الأحمر».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر**». ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به.

وقال السدى عن أبى مالك وأبى صالح، وعن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة قالوا: ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إنى متوفى هارون فائت به جبل كذا وكذا.

فانطلق موسى وهارون نحو هذا الجبل، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها، وإذا هم ببيت مبنى، وإذا هم بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة. فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه، قال: يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير، قال له موسى: فنم عليه، قال: إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب علىَّ، قال له: لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم. قال: يا موسى بل نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب علىَّ وعليك جميعاً. فلما ناما أخذ هارون الموت. فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتنى، فلما قبض رفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير به إلى السماء.

فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده على حب بنى إسرائيل له، وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم. فلما بلغه ذاك قال لهم: ويحكم! كان أخى أفترونى أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض.

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبى الله؟ فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع. فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلت نبى الله. فقال: لا والله ما قتلته، ولكنه استل منى، فلم يصدقوه وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تصدقونى فأخرونى ثلاثة أيام، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، وإنا قد رفعناه إلينا، فتركوه.

ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات، ولم يشهد الفتح.

وفى بعض هذا السياق نكارة وغرابة، والله أعلم.

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم، اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيل بالدخول عليهم.

وذكر وهب بن منبه، أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبراً، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك. وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك، فمات صلوات الله وسلامه عليه، فصلت عليه الملائكة ودفنوه.

وذكر أهل الكتاب، وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة.

وقد قال الإمام أحمد، حدثنا أمية بن خالد ويونس، قالا حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار بن أبى عمار، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ، قال يونس: رفع هذا الحديث إلى النبى ﷺ قال: «**كان ملك الموت يأتى الناس عياناً، قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه، فأتى ربه فقال: يارب عبدك موسى فقأ عينى، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه، وقال يونس: لشققت عليه - قال له: اذهب إلى عبدى، وقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة، فأتاه فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال الموت. قال: فالآن. قال: فشمه شمة فقبض روحه**»[1].

قال يونس فرد الله عليه عينه وكان يأتى الناس خفية. وكذلك رواه ابن جرير عن أبى كريب، عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به، فرفعه أيضاً.

---

(١) تاريخ الطبرى (١/٤٣٤).

ذكر نبوة يوشع

وقيامه بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو الخليل يوشع ابن نون بن أفرائيم بن يوسف ين يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وأهل الكتاب يقولون: يوشع ابن عم هود.

وقد ذكره الله تعالى فى القرآن غير مصرح باسمه فى قصة الخضر كما تقدم من قوله: ﴿ **وإذ قال موسى لفتاه** ﴾، ﴿ **فلما جاوزا قال لفتاه** ﴾ وقدمنا ما ثبت فى الصحيح من رواية أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ: من أنه يوشع بن نون.

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفة منهم وهم السامرة، لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون، لأنه مصرح به فى التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقًا لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة!.

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق: من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع فى آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهى، حتى قال له: يا كليم الله إنى كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرنى أنت ابتداء من تلقاء نفسك. فعند ذلك كره موسى الحياة وأحبَّ الموت. ففى هذا نظر، لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحى والتشريع والكلام من الله إليه فى جميع أحواله، حتى توفاه الله عز وجل. ولم يزل معززًا مكرمًا مدللاً وجيهًا عند الله، كما قدمنا فى الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها، قال: ثم ماذا؟ قال: الموت. قال: فالآن يا رب. وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا الذى ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب، ففى كتابهم الذى يسمونه التوراة: أن الوحى لم يزل ينزل على موسى فى كل حين. يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة فى قبة الزمان.

ولقد ذكروا فى السفر الثالث: أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بنى إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميرًا وهو النقيب، وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال، قتال الجبارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت. لأنه لم يعرفه فى صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه فى زمانه، ولم يكن فى قدر الله أن يقع ذلك فى زمانه، بل فى زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام.

كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك فى سنة تسع ثم حج فى سنة عشر، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ **(التوبة: ٢٩).**

ولما جهز رسول الله جيش أسامة، توفى عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيم بالجرف، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ثم لما لمّ شعث جزيرة العرب، وما كان دهى من أمر أهلها، وعاد الحق إلى نصابه، جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم، وملكهم نواصى أعدائهم.

وهكذا موسى عليه السلام: كان الله قد أمره أن يجند بنى إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ **(المائدة: ١٢).**

يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة، لأجعلن ثواب هذه مكفرا لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية:

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ **(الفتح: ١٦).**

وهكذا قال تعالى لبنى إسرائيل: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم فى أديانهم، وقد ذكرنا ذلك فى التفسير مستقصى ولله الحمد.

والمقصود هنا أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم. **السبط الأول:** سبط روبيل لأنه بكر يعقوب، وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة، ونقيبهم منهم وهو أليصور بن شديئور. **السبط الثانى:** سبط شمعون، وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة، ونقيبهم شلوميئيل بن

هوريشداى، **السبط الثالث:** سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفًا وستمائة، ونقيبهم نخشون بن عميناذاب. **السبط الرابع:** سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفًا وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوعر. **السبط الخامس:** سبط يوسف عليه السلام، وكانوا أربعين ألفًا وخمسين، ونقيبهم يوشع بن نون.

السبط السادس: سبط ميشا - وكانوا واحداً وثلاثين ألفًا ومائتين، ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور. **السبط السابع:** سبط بنيامين، وكانوا خمسة وثلاثين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم أبيدن بن جدعون. **السبط الثامن:** سبط حاد، وكانوا خمسة وأربعين ألفًا وستمائة وخمسين رجلاً، ونقيبهم الياساف بن رعوئيل. **السبط التاسع:** سبط أشير، وكانوا واحداً وأربعين ألفًا وخمسمائة، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن.

السبط العاشر: سبط دان، وكانوا اثنين وستين ألفًا وسبعمائة، ونقيبهم أخيعزر ابن عمشداى. **السبط الحادى عشر:** سبط نفتالى، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفًا وأربعمائة، ونقيبهم أخيرع بن عون، السبط الثاني عشر سبط زبلون وكانوا سبعة وخمسين ألفا وأربعمائة ونقيبهم الباب بن حيلون. هذا نص كتابهم الذى بأيديهم، والله أعلم.

وليس منهم «ينو لاوى» فقد أمر الله موسى أن لا يعدهم معهم، لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها وخزنها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا، وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام، كانوا اثنين وعشرين ألفًا، من ابن شهر فما فوق ذلك، وهم فى أنفسهم قبائل من كل قبيلة إلى طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها. وهم كلهم حولها، ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها.

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بنى لاوى خمسمائة ألف وواحد وسبعون ألفًا وستمائة وستة وخمسون. لكن قالوا: فكان عدد بنى إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك، ممن حمل السلاح، ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسون رجلاً، سوى بنى لاوى. وفي هذا نظر، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم، لا تطابق الجملة التى ذكروها، والله أعلم.

فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل، وهم القلب، ورأس الميمنة بنو روبيل، ورأس الميسرة بنو دان وبنو نفتالى يكونون ساقة (مؤخرة)، وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى له - الكهانة فى بنى هارون، كما كانت لأبيهم من قبلهم، وهم: ناداب وهو بكره، وأبيهو العازر، ويثمر، والمقصود أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، وقاله قتادة وعكرمة، ورواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من

الصحابة، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما فى التيه جميعًا.

وقد زعم ابن إسحاق أن الذى فتح بيت المقدس هو موسى، وإنما كان يوشع على مقدمته. وذكر فى مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذى قال تعالى فيه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧).

وقد ذكرنا قصته فى التفسير، وأنه كان - فيما قاله ابن عباس وغيره - يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه - فامتنع عليهم، ولما ألحوا عليه ركب حمارة له، ثم سار نحو معسكر بنى إسرائيل، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت، فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضربًا أشد من الأول فقامت ثم ربضت، فضربها فقالت له يا بلعام: أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا؟ أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل «حسبان» ونظر إلى معسكر موسى وبنى إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه، ويدعو على قوم نفسه، فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، فقال لقومه: قد ذهبت الآن منى الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة.

ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يتبعنهم عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون فى الزنا، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر، فمرت امرأة منهم اسمها «كسبتى» برجل من عظماء بنى إسرائيل: وهو «زمرى بن شلوم» يقال إنه كان رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل، فجعل يجوس فيهم، فلما بلغ الخبر إلى «فنحاص» بن العيزار بن هارون، أخذ حربته وكانت من حديد، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعًا فيها، ثم خرج بها على الناس والحربة فى يده، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون، فكان جملة من مات فى تلك الساعة سبعين ألفًا، والمقلل يقول عشرين ألفًا، وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون، فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة - اللبة والذراع، واللحى، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسها.

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح، وقد ذكره غير واحد من علماء السلف، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية، ولعله مراد بن إسحاق، ولكنه غير ما فهمه بعض الناقلين عنه، وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا، والله أعلم.

ولعل هذه قصة أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه، فإن فى هذا السياق ذكر «حسبان» وهى بعيدة عن أرض بيت المقدس، أو لعله كان هذا الجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون، حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس، كما صرح به السدى، والله أعلم.

وعلى كل تقدير فالذى عليه الجمهور: أن هارون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى فى التيه أيضاً، كما قدمنا. وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك.

فكان الذى خرج بهم من التيه، وقصد بهم بيت المقدس، هو يوشع بن نون عليه السلام. فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ، أنه قطع ببنى إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً، وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر. ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون - يعنى الأبواق - وكبروا تكبيرة رجل واحد، فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكاً كثيرة. ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام.

وذكروا أنه انتهت محاصرته إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان[1]، قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علىّ فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عن الطلوع، وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره. وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب، ولكن ذكرهم أن هذا فى فتح أريحا فيه نظر. والأشبه - والله أعلم - إن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس**»[2] انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى.

---

(١) أى الامتناع عن أى عمل.

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/٣٢٥).

وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، لا موسى، وأن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام. فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه: أن الشمس رجعت حتى صلى علىٌّ بن أبى طالب صلاة العصر، بعدما فاتته بسبب نوم النبى ﷺ على ركبته، فسأل رسول الله أن يردها الله عليه حتى يصلى العصر فرجعت، وقد صححه أحمد بن أبى صالح المصرى ولكنه ليس فى شىء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوافر الدواعى نقله. وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعنى رجل قد ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها.**

قال: فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علىَّ شيئًا، فحبست عليه حتى فتح الله عليه، قال: فجمعوا ما غنموا، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، فليبايعنى من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول فلتبايعنى قبيلتك، فبايعته قبيلته، قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم[1].

قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال فوضعوه بالمال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا».

انفرد به مسلم من هذا الوجه. وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة. عن عبيد الله بن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه. قال: ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى، قال: ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً أى ركعًا متواضعين شاكرين الله عز وجل على ما مَنَّ به عليهم من الفتح العظيم الذى كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم: «حطة» أى حط عنا خطايانا التى سلفت، من نكولنا الذى تقدم منا.

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٣٢/١١/٣٢) ورواه أحمد فى مسنده (٣١٨/٢).

ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، حتى إن عثنونه - طرف لحيته - ليمس مورك رحله: مما يطأطئ رأسه خضوعًا لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منهم إلا الحدق، ولا سيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله ﷺ، ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثمانى ركعات وهى صلاة الشكر على النصر، على المشهور من قول العلماء وقيل: إنها صلاة الضحى، وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى.

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة فى شعرة، وفى رواية: حنطة في شعرة.

وحاصله أنهم بدَّلوا ما أمروا به واستهزأوا به، كما قال تعالى حاكيًا عنهم فى سورة الأعراف وهي مكية: ﴿ **وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ* فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾**(الأعراف: ١٦١، ١٦٢).**

وقال مخاطبًا لهم: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ* فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾**(البقرة: ٥٨، ٥٩).**

وقال الثورى عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ قال: ركعًا من باب صغير رواه الحاكم وابن جرير وابن أبى حاتم، وكذا روى العوفى عن ابن عباس وكذا روى الثورى عن ابن إسحاق قال مجاهد والسدى والضحاك: والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس.

قال ابن مسعود: فدخلوا مقنعين رؤوسهم ضد ما أُمروا به، وهذا لا ينافى قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم، وهكذا فى الحديث الذى سنورده بعد، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم.

وقوله: ﴿ **وَقُولُوا حِطَّةٌ** ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة، أى أدخلوا سجداً فى حال قولكم حطة. قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع: أمروا أن يستغفروا.

قال البخارى: حدثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**قيل لبنى إسرائيل:** ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ **فبدلوا: فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة فى شعرة**»[1]. وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه، ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدى به موقوفًا.

رواه البخارى (٣٠٢/٦، ١٢٥/٨، ٢٢٨) ورواه أحمد فى مسنده رقم (٨٠٩٥، ٨٢١٣).

وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله لبني إسرائيل: ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة في شعرة**».

ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق، وقال الترمذي حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة في شعيرة**».

وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود قال في قوله: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾، قال: قالوا: «هطى سقانا أزمة مزيا» فهي في العربية: «حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء».

وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة، بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم، وهو الطاعون، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم**»[1].

وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ: «**الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم**»، وقال الضحاك عن ابن عباس: الرجز العذاب، وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة، وقال أبو العالية: هو الغضب، وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد، وقال سعيد ابن جبير: هو الطاعون.

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩٠/١٣/٦٩٧٤) ورواه أحمد في مسنده (١٩٣/١).

ذكر قصتى الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر: فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه فى طلب ما عنده من العلم اللدنى[1]، وقص الله من خبرهما فى كتابه العزيز فى سورة الكهف، وذكرنا فى تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام، وأن الذى رحل إليه هو موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل عليه السلام، الذى أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف فى الخضر، فى اسمه، ونسبه، ونبوته، وحياته إلى الآن – على أقوال – سأذكرها ها هنا إن شاء الله وبحوله وقوته.

قال الحافظ ابن عساكر: يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه، ثم روى من طريق الدارقطنى: حدثنا محمد بن الفتح القلانسى، حدثنا العباس بن عبد الله الرومى، حدثنا رواد بن الجراح، حدثنا مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: الخضر ابن آدم لصلبه، ونسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال. وهذا منقطع وغريب.

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى: سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: إن أطول بنى آدم عمراً الخضر، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم.

قال: وذكر ابن إسحاق: أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم فى السفينة، وأن يدفنوه في مكان عينه لهم فلما كان الطوفان حملوه معهم، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى. فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك. وقال إن آدم دعا لمن يلى دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع فى ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا.

وذكر ابن قتيبة فى المعارف عن وهب بن منبه: أن اسم الخضر «بليا» ويقال بليا ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وقال إسماعيل بن أبى أويس: اسم الخضر – فيما بلغنا والله أعلم – المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد. وقال غيره: هو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص ين إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال هو أرميا بن حلقيا. فالله أعلم.

وقيل: إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر، وهذا غريب جداً. قال ابن الجوزى: رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة، وهما ضعيفان.

وقيل: إنه ابن مالك وهو أخو إلياس، قاله السدى كما سيأتى. وقيل إنه كان

(١) من لدن الله تعالى أى من عنده.

على مقدمة ذى القرنين. وقيل كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه. وقيل كان نبيًا فى زمن بشتاسب بن بهراسب.

قال ابن جرير: والصحيح أنه كان متقدمًا فى زمن أفريدون بن إثفيان حتى أدركه موسى عليه السلام.

وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخضر أمه رومية وأبوه فارسى.

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بنى إسرائيل فى زمان فرعون أيضًا. قال أبو زرعة فى دلائل النبوة: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى، حدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن رسول الله ﷺ: أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة، فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنها وزوجها.

وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بنى إسرائيل: وكان ممره براهب فى صومعته، فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام، وأخذ عليها ألا تعلم أحداً، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها. ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام، وأخذ عليها ألا تعلم أحداً ثم طلقها، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى.

فانطلق هاربًا حتى أتى جزيرة فى البحر، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر. قال: قد رأيت الخضر قيل ومن رآه معك؟ قال: فلان: فسُئل: فكتم. وكان من دينهم أنه من كذب قتل، فقتل، وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة. قال فبينما هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس فرعون، فأخبرت أباها، وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فأبيا، فقال: إنى قاتلكما، فقالا: إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا فى قبر واحد. فجعلهما فى قبر واحد، فقال: وما وجدت ريحًا أطيب منهما، وقد دخلت الجنة.

وقد تقدمت قصة ماثلة بنت فرعون، وهذا المشط فى أمر الخضر قد يكون مدرجًا من كلام أبى بن كعب أو عبد الله بن عباس والله أعلم. وقال بعضهم: كنيته أبو العباس، والأشبه والله أعلم. أن الخضر لقب غلب عليه.

قال البخارى رحمه الله: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء**»[1].

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه (٣٤٠٢/٢٧/٦٠ فتح) ورواه أحمد فى مسنده (٣١٢/٢، ٣١٨).

تفرد به البخارى، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به.

ثم قال عبد الرزاق: الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبه يعنى الهشيم اليابس. وقال الخطابى: وقال أبو عمر: الفروة الأرض البيضاء التى لا نبات فيها. وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة، ومنه قيل فروة الرأس وهى جلدته بما عليها من شعر، كما قال الراعى:

ولقد ترى الحبشىَّ حولَ بيوتنا جَذْلاً إذا ما نال يومًا مأكلاً

صَعْلاً أصكَّ كأنَّ فروة رأسه بُذرتْ فأنبتَ جانباه فلفلا

قال الخطابى: ويقال إنما سُمى الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه، قلت: وهذا لا ينافى ما ثبت فى الصحيح، فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما، فما ثبت فى الصحيح أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضًا من طريق إسماعيل بن حفص ابن عمر الأبلى: حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى عن قتادة، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «**إنما سُمى الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء**». وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال قبيصة عن الثورى عن منصور عن مجاهد قال: إنما سُمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله.

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر، وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر، وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه، فسلم موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فرد، وقال: أنَّى بأرضك السلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: نبى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه عنهما.

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾.

الثانى: قول موسى له: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾**(الكهف: ٦٦ - ٧٠).**

فلو كان وليًا وليس بنبى لم يخاطبه بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه الله به دونه. فلو

كان غير نبي، لم يكن معصومًا، ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه، ولو أنه يمضي حقبًا من الزمان، قيل ثمانين سنة. ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه، واتبعه في صورة مستفيد منه فدل على أنه نبي مثله يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم، نبي بني إسرائيل الكريم. وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر عليه السلام.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام. وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم، علمًا منه بأنه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته، وأنه مؤيد من الله بعصمته.

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه. وحكى الاحتجاج عليه الرماني أيضًا.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجليِّه، قال بعد ذلك كله: ﴿ **رحمة من ربك وما فعلته عن أمري** ﴾ يعني ما فعلتُه من تلقاء نفسي، بل (أمر) أمرت به وأوحي إليَّ فيه.

فدلت هذه الوجوه على نبوته. ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته، كما قاله آخرون. وأما كونه ملكًا من الملائكة (فقول) غريب جدًا، وإذا ثبتت نبوته - كما ذكرناه، لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، مستند يستندون إليه، ولا معتمد يعتمدون عليه.

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا، فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم، قيل لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة، وقيل لأنه شرب من عين الحياة فحيي. وذكروا أخبارا استشهدوا بها على بقائه إلى الآن. وسنوردها مع غيرها إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وهذه وصيته لموسى حين: ﴿**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾. رُوي في ذلك آثارٌ منقطعة كثيرة: قال البيهقي: أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدثنا أبو عبد الله الصفار، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا إسحاق بن

إسماعيل، حدثنا جرير، حدثنى أبو عبد الله الملطى قال: لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى: أوصنى، قال: كن نفاعًا ولا تكن ضراراً، كن بشاشًا ولا تكن غضبان، ارجع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة. وفى رواية من طريق أخرى زيادة: ولا تضحك إلا من عجب.

وقال وهب بن منبه قال الخضر: يا موسى إن الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها!.

وقال بشر بن الحارث الحافى: قال موسى للخضر: أوصنى، فقال: يسر الله عليك طاعته.

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى الوقاد - إلا أنه من الكذابين الكبار - قال قرئ على عبد الله بن وهب وأنا أسمع، قال الثورى، قال مجالد، قال أبو الوداك، قال أبو سعيد الخدرى، قال عمر ابن الخطاب، قال رسول الله ﷺ: قال أخى موسى: يا رب وذكر كلمته - فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها، فقال: السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران، إن ربك يقرأ عليك السلام. قال موسى: هو السلام وإليه السلام، والحمد لله رب العالمين، الذى لا أحصى نعمه، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته.

ثم قال موسى: أريد أن توصينى بوصية ينفعنى الله بها بعدك، فقال الخضر: يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار، وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ورض نفسك على الصبر وتخلص من الإثم.

يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده، فإنما العلم لمن تفرغ له، ولا تكن مكثاراً للعلم مهذاراً فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدى مساوئ السخفاء، ولكن عليك بالاقتصاد، فإن ذلك من التوفيق والسداد وأعرض عن الجهال وماطلهم، واحلم عن السفهاء، فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء، وإذا شتمك الجاهل فاسكت عنه علمًا، وجانبه حزمًا، فإن ما بقى من جهلة عليك وسبه إياك أكثر وأعظم.

يابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً، فإن الاندلاس والتعسف من الاقتحام والتكلف. يابن عمران لا تفتحن بابًا لا تدرى ما غلقه، ولا تغلقن بابًا لا تدرى ما فتحه. يابن عمران من لا تنتهى من الدنيا نهمته، ولا تنقضى منها رغبته ومن يحقر حاله، ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه؟ أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه.

يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به، فيكون عليك بواره ولغيرك نوره. يا موسى بن عمران، اجعل الزهد والتقوى لباسك، والعلم والذكر كلامك، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضى ربك، واعلم خيراً فإنك لا بد عامل سوءاً، وقد وعظت إن حفظت.

قال: فتولى الخضر وبقى موسى محزونًا مكروبًا يبكى.

لا يصح هذا الحديث، وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصرى، وقد كذبه غير واحد من الأئمة، والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى، حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصى، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندى، حدثنا بقية بن الوليد، عن محمد بن زياد، عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا أحدثكم عن الخضر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: بينما هو ذات يوم يمشى فى سوق بنى إسرائيل، أبصره رجل مكاتب، فقال تصدق علىَّ بارك الله فيك. فقال الخضر: آمنت بالله، ما شاء الله من أمر يكون، ما عندى من شىء أعطيه. فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت علىَّ، فإنى نظرت إلى السماء فى وجهك، ورجوت البركة عندك. فقال الخضر: آمنت بالله ما عندى شىء أعطيكه، إلا أن تأخذنى فتبيعنى، فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم، الحق أقول لك لقد سألتنى بأمر عظيم، أما إنى لا أخيبك بوجه ربى، بعنى.

قال، فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائه درهم، فمكث عند المشترى زمانًا لا يستعمله فى شىء، فقال له: إنك إنما ابتعتنى التماس خير فأوصنى بعمل، قال: أكره أن أشق عليك، إنك شيخ كبير ضعيف. قال: ليس تشق علىَّ، قال: فانقل هذه الحجارة. وكان لا ينقلها دون ستة نفر فى يوم. فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة فى ساعة، فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه. ثم عرض للرجل سفر، فقال: إنى أحسبك أمينًا فاخلفنى فى أهلى خلافة حسنة، قال: فأوصنى بعمل. قال: إنى أكره أن أشق عليك، قال: ليس تشق علىَّ، قال: فاضرب من اللبن لبيتى حتى أقدم عليك. فمضى الرجل لسفره، فرجع وقد شُيد بناؤه.

فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك؟ فقال: سألتنى بوجه الله، والسؤال بوجه الله أوقعنى فى العبودية، سأخبرك من أنا؟ أنا الخضر الذى سمعت به، سألنى مسكين صدقة فلم يكن عندى من شىء أعطيه، فسألنى بوجه الله فأمكنته من رقبتى، فباعنى، وأخبرك أنه من سُئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر، وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع.

فقال الرجل: آمنت بالله، شققت عليك يا نبى الله ولم أعلم! فقال: لا بأس أحسنت وأبقيت. فقال الرجل: بأبى وأمى يا نبى الله، احكم فى أهلى ومالى بما أراك الله، أو أخيرك فأخلى سبيلك، فقال: أحب أن تخلى سبيلى، فأعبد ربى، فخلى سبيله، فقال الخضر: الحمد لله الذى أوقعنى فى العبودية ثم نجانى منها.

وهذا حديث رفعه خطأ، والأشبه أن يكون موقوفًا، وفى رجاله من لا يعرف. فالله أعلم.

وقد رواه ابن الجوزى فى كتابه «عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر» من طريق عبد الوهاب بن الضحاك، وهو متروك عن بقية.

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناد إلى السدى: أن الخضر وإلياس كانا أخوين، وكان أبوهما ملكًا، فقال إلياس لأبيه: إن أخى الخضر لا رغبة له فى الملك، فلو أنك زوجته لعله يجىء منه ولد يكون الملك له، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر، فقال لها الخضر: إنه لا حاجة لى فى النساء، فإن شئت أطلقت سراحك، وإن شئت أقمت معى تعبدين الله عز وجل وتكتمين علىَّ سرى. فقالت: نعم، وأقامت معه سنة.

فلما مضت السنة دعاها الملك، فقال: إنك شابة وابنى شاب فأين الولد؟ فقالت: إنما الولد من عند الله، إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن. فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيبًا قد ولد لها، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتى قبلها، فأجابت إلى الإقامة عنده، فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد، فقالت: إن ابنك لا حاجة له بالنساء، فتطلبه أبوه فهرب، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه. فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره، فهرب من أجل ذلك، وأطلق سراح الأخرى.

فأقامت تعبد الله فى بعض نواحى تلك المدينة، فمر بها رجل يومًا فسمعته يقول: باسم الله. فقالت له: أنَّى لك هذا الاسم؟ فقال: إنى من أصحاب الخضر، فتزوجته فولدت له أولادًا، ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون، فبينما هى يومًا تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت: باسم الله فقالت ابنة فرعون: أبى؟ فقالت: لا، ربى وربك ورب أبيك الله. فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها فألقيت فيها. فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها، فقال لها ابن معها صغير: يا أُمَّه اصبرى فإنك على الحق. فألقت نفسها فى النار فماتت، رحمها الله.

وقد روى ابن عساكر عن أبى داود الأعمى نفيع - وهو كذاب وضاع - عن أنس بن مالك، ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف - وهو كذاب أيضًا - عن أبيه عن جده: أن الخضر جاء ليلة فسمع النبى ﷺ وهو يدعى ويقول: «**اللهم أعنى على ما ينجينى مما خوفتنى، وارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه**» فبعث

إلى رسول الله ﷺ أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام، وقال: قل له: «**إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره**». الحديث.

وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متنًا، فكيف لا يتمثل بين يدى رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلمًا ومتعلمًا؟!.

وهم يذكرون في حكاياتهم، وما يسندونه عن بعض مشايخهم: أن الخضر يأتى إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله، الذى اصطفاه الله فى ذلك الزمان على من سواه، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بنى إسرائيل.

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادى، بعد إيراده حديث أنس هذا: وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن، يتبين فيه أثر الصنعة.

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى قائلاً: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه، حدثنا محمد بن بشر بن مطر، حدثنا كامل بن طلحة، حدثنا عباد بن عبد الصمد، عن أنس بن مالك قال: لما قُبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه، فبكوا حوله واجتمعوا. فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى. ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إن فى الله عزاء من كل مصيبة، وعوضاً من كل فائت، وخلفًا من كل هالك، فإلى الله أنيبوا وإليه فارغبوا، وقد نظر إليكم فى البلاء فانظروا، فإن المصاب من لم يجبر. وانصرف.

فقال بعضهم لبعض: أتعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعليّ: نعم، هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام.

وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن كامل بن طلحة به، وفي متنه مخالفة لسياق البيهقى.

ثم قال البيهقى: عباد بن عبد الصمد ضعيف فهذا منكر بمرة. قلت: عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصرى، روى عن أنس نسخة، قال ابن حبان والعقيلى: أكثرها موضوع، وقال البخارى: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث جداً منكره، وقال ابن عدى: عامة ما يرويه في فضائل عليٍّ، وهو ضعيف غالٍ فى التشيع.

وقال الشافعى فى مسنده: أنبأنا القاسم بن عبد الله بن عمر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده على بن الحسين قال: لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول: إن فى الله عزاء من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب. قال على بن الحسين: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر.

شيخ الشافعى القاسم العمرى متروك، قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين: يكذب. وزاد أحمد: ويضع الحديث. ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ها هنا والله أعلم.

وقد روى من وجه آخر ضعيف، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن أبيه عن على ولا يصح.

وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدثه، عن محمد بن عجلان، عن محمد بن المنكدر: أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلى على جنازة إذ سمع هاتفًا وهو يقول: لا تسبقنا يرحمك الله. فانتظره حتى لحق بالصف، فذكر دعاءه للميت: إن تعذبه فكثيراً عصاك، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك، ولما دفن قال: طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفًا أو جابيًا أو خازنًا أو كاتبًا أو شرطيًّا. فقال عمر: خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو؟ قال: فتوارى عنهم، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع. فقال عمر: هذا والله الخضر الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ. وهذا الأثر فيه مبهم، وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثورى عن عبد الله بن المحرز عن يزيد بن الأصم، عن على بن أبى طالب قال: دخلت الطواف فى بعض الليل، فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يمنعه سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين - ارزقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال: فقلت أعد علىَّ ما قلت، فقال لى: أو سمعته؟ قلت: نعم. فقال لى: والذى نفس الخضر بيده - قال: وكان هو الخضر - لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم، لغفرها الله له.

وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرز، فإنه متروك الحديث، ويزيد بن الأصم لم يدرك عليًّا، ومثل هذا لا يصح والله أعلم.

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذى: حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبى الأسود، عن محفوظ بن عبد الله الحضرمى، عن محمد بن يحيى قال: بينما على بن أبى طالب يطوف بالكعبة، إذ هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا يغلطه السائلون، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ارزقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك. قال: فقال له على: يا عبد الله أعد دعاءك هذا قال: أو قد سمعته؟ قال: نعم. قال: فادع به فى دبر كل صلاة، فوالذى نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها، وحصباء الأرض وترابها، لغفر لك فى أسرع من طرفة عين.

وهذا أيضًا منقطع، وفي إسناده من لا يعرف، والله أعلم.

وقد رواه ابن الجوزى من طريق أبى بكر بن أبى الدنيا: حدثنا يعقوب بن يوسف، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه. ثم قال: وهذا إسناد مجهول منقطع، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد، أنبأنا أبو إسحاق المزكى، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان، أنبأنا عمرو بن عاصم، حدثنا الحسن بن رزين عن ابن جريج، عن عطاء عن ابن عباس قال: ولا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبى ﷺ - قال: «**يلتقى الخضر وإلياس كل عام فى الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات: باسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله**»[1].

قال: وقال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات، آمنه الله من الغرق والحرق والسرق. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب.

قال الدارقطنى فى الأفراد: هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه يعنى الحسن بن رزين هذا. وقد روى عن محمد بن كثير العبدى أيضاً، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى: ليس بالمعروف.

وقال الحافظ أبو جعفر العقيلى: مجهول وحديثه غير محفوظ. وقال أبو الحسن ابن المنادى: هو حديث واهٍ بالحسن بن رزين. وقد روى ابن عساكر نحوه عن طريق على بن الحسن الجهضمى - وهو كذاب - عن ضمرة بن حبيب المقدسى، عن أبيه، عن العلاء بن زياد القشيرى، عن عبد الله بن الحسن، عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب مرفوعًا قال: يجتمع كلٍ يوم عرفة بعرفات - جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر، وذكر حديثًا طويلاً موضوعًا تركنا إيراده قصداً ولله الحمد.

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشن، عن ابن أبى رواد قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان فى كل سنة، ويشربان من ماء زمزم شربة واحد تكفيهما إلى مثلها من قابل.

وروى ابن عساكر: أن الوليد بن عبد الملك بن مروان - بانى جامع دمشق - أحب أن يتعبد ليلة فى المسجد، فأمر القوم أن يخلوه له ففعلوا، فلما كان من الليل جاء فى باب الساعات فدخل الجامع، فإذا رجل قائم يصلى فيما بينه وبين باب الخضراء، فقال للقوم: ألم آمركم أن تخلوه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجىء كل ليلة يصلى ها هنا.

---

(١) ضعيف: رواه ابن الجوزى فى كتابه «الموضوعات» (١/١٩٥-١٩٧) وانظر من تحقيقنا كتاب (المنار المنيف فى الصحيح والضعيف لابن القيم) ط/ دار المسلم/ القاهرة.

قال ابن عساكر أيضًا: أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبرى، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل، أنبأنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب - هو ابن سفيان الفسوى - حدثنى محمد بن عبد العزيز، حدثنا ضمرة عن السرى بن يحيى، عن رباح بن عبيدة، قال: رأيت رجلاً يماشى عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه، فقلت فى نفسى: إن هذا الرجل جاف، قال فلما انصرف من الصلاة - قلت: من الرجل الذى كان معتمداً على يدك آنفًا؟ قال: وهل رأيته يا رباح؟ قلت: نعم، قال: ما أحسبك إلا رجلاً صالحًا، ذاك أخى الخضر بشرنى أنى سألى وأعدل.

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى: الرملى مجروح عند العلماء، وقد قدح أبو الحسين بن المنادى فى ضمرة والسرى ورباح، ثم أورد من طريق آخر عن عمر بن عبد العزيز، أنه اجتمع بالخضر، وضعفها كلها.

وروى ابن عساكر أيضًا أنه اجتمع بإبراهيم التيمى وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم.

وهذه الروايات والحكايات هى عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم. وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة فى الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف الإسناد. وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابى أو غيره، لأنه يجوز عليه الخطأ، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهرى، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن أبا سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثًا طويلاً عن الدجال، وقال فيما يحدثنا: «**يأتى الدجال - وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة - فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيرهم، فيقول أشهد أنك أنت الدجال الذى حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون فى الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه: فيقول حين يحيا: والله ما كنت أشد بصيرة فيك منى الآن، قال فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه**»[1].

قال معمر: بلغنى أنه يحمل على حلقه صحيفة من نحاس، وبلغنى أنه الخضر الذى يقتله الدجال ثم يحييه. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوى عن مسلم: الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر، وقول معمر وغيره: بلغنى - ليس فيه حجة. وقد ورد فى بعض ألفاظ الحديث: فيأتى بشاب ممتلئ شبابًا فيقتله، وقوله الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ - لا يقتضى المشافهة، بل يكفى التواتر.

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٩/٢٩) ورواه مسلم (٤٨٥/١٥) ومالك فى الموطأ (١٦/٤٥).

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله فى كتابه: «عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة فى ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين من بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد فى ذلك إذ أحسن الانتقاد.

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم البخارى وإبراهيم الحربى وأبو الحسين ابن المنادى والشيخ أبو الفرج بن الجوزى، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتابا أسماه «عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر» فيحتج لهم بأشياء كثيرة: منها قوله: ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**﴾ فالخضر إن كان بشراً فقد دخل فى هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت: ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ **(آل عمران: ٨١).**

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بُعث محمد وهم إحياء ليؤمنن به ولينصرنه. ذكره البخارى عنه.

فالخضر إن كان نبيًّا أو وليًّا، فقد دخل فى هذا الميثاق، فلو كان حيًّا فى زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان وليًّا فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيًّا فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هشيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى**». وهذا الذى يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة: أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون فى زمن رسول الله ﷺ، لكانوا كلهم أتباعًا له، وتحت أوامره وفى عموم شرعه. كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء رُفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم، فصلى بهم فى محل ولايتهم ودار إقامتهم، فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - علم أنه لو كان الخضر حيًّا لكان من جملة أمة محمد ﷺ ، وممن يقتدى بشرعه لا يسعه إلا ذلك .

وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أولى العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بنى إسرائيل والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه، أنه اجتمع برسول الله ﷺ فى يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد .

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل . واستنصره واستفتحه على من كفره: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها فى الأرض**» . وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام، كما قال حسان بن ثابت فى قصيدة له فى بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب :

وببئر بدر إذ يرد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حيًّا، لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته .

قال القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلى: سُئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات؟ فقال: نعم. قال: وبلغنى مثل هذا عن أبى طاهر بن الغبارى قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيًّا لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزى فى العجالة .

فإن قيل: فهل يقال إنه كان حاضراً فى هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه؟ فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذى يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات، ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلى فى مرتبته وأظهر لمعجزته ثم لو كان باقيًا بعده، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة، والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين فى غزواتهم، وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل مما يقال عنه من كنونه فى الأمصار، وَجَوْبه الفيافى والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم، وهذا الذى ذكرناه لا يتوقف فيه أحد بعد التفهيم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما - عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال: «**أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى من هو على وجه الأرض اليوم أحد**». وفى رواية «**عين تطرف**». قال ابن عمر: فذهل الناس من مقالة رسول الله ﷺ هذه، أراد انخرام قرنه[1].

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢١٧/٥٣/٤٤) ورواه البخارى فى صحيحه (١١٦/٤١/٣).

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهرى قال: أخبرنى سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة، أن عبد الله بن عمر قال: صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء فى آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «**أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد**»(١).

وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن سليمان التيمى، عن أبى نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: «**ما من نفس منفوسة - أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة - يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية**»(٢).

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر: «**يسألوننى عن الساعة وإنما علمها عند الله، أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة**»(٣).

وهكذا رواه مسلم من طريق أبى نضرة وأبى الزبير: كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه.

وقال الترمذى: حدثنا عباد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما على الأرض من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة**». وهذا أيضاً على شرط مسلم.

قال ابن الجوزى: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر.

قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذى يترقى فى القوة إلى القطع، فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه، فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعد مائة سنة، فيكون الآن مفقودا لا موجودا، لأنه داخل فى هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله، والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتابه: «التعريف والإعلام» عن البخارى وشيخه أبى بكر العربى: أنه أدرك حياة النبى ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث.

وفى كون البخارى رحمه الله يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبى ﷺ، نظر.

ورجح السهيلى بقاءه، وحكاه عن الأكثرين.

قال: وأما اجتماعه مع النبى ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروى من طرق صحاح، ثم ذكر ما تقدم، ولم يورد أسانيدها والله أعلم.

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٨٨/٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٠٥/٢، ٣٠٦) ورواه مسلم فى صحيحه (٢١٨/٥٣/٤٤).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣٤٥/٣).

وأما إلياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ **(الصافات: ١٢٣-١٣٢).**

قال علماء النسب هو: إلياس النشبى، ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران.

وقالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق، فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه «بعلاً». وقيل كانت امرأة اسمها «بعل» والله أعلم.

والأول أصح ولهذا قال لهم: ﴿أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ **(الصافات: ١٢٤ - ١٢٦).**

فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله. فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم، قال أبو يعقوب الأذرعى، عن يزيد بن عبد الصمد، عن هشام بن عمار قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين، حتى أهلك الله الملك وولي غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام، فأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم. فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو محمد القاسم بن هاشم، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة – أو قال أربعين ليلة – تأتيه الغربان برزقه.

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدى: أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى، عن أبيه قال: أول نبى بعث إدريس، ثم نوح ثم إبراهيم، ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب، ثم موسى وهارون ابنا عمران، ثم إلياس النشبى بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. هكذا قال: وفي هذا الترتيب نظر.

وقال مكحول عن كعب. أربعة أنبياء أحياء، اثنان فى الأرض إلياس والخضر، واثنان فى السماء: إدريس وعيسى عليهم السلام.

وقد قدمنا من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان فى كل عام فى شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. وأوردنا الحديث الذى فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة.

وبيّنا أنه لم يصح شيء من ذلك، وأن الذى يقوم عليه الدليل: أن الخضر مات، وكذلك إلياس عليهما السلام.

وما ذكره وهب بن منبه وغيره: أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها، وجعل الله له ريشًا وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار ملكيًا بشريًا سماويًا أرضيًا، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب، ففى هذا نظر. وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة، والله تعالى أعلم.

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنى أبو العباس أحمد بن سعيد المعدانى البخارى، حدثنا عبد الله بن محمود، حدثنا عبدان بن سنان، حدثنى أحمد بن عبد الله البرقى، حدثنا يزيد بن يزيد البلوى، حدثنا أبو إسحاق الفزارى، عن الأوزاعى، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فنزلنا منزلاً فإذا رجل فى الوادى يقول: اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفور لها المتاب عليها، قال: فأشرفت على الوادى فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فقال لى: من أنت؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، قال: فأين هو؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأته فأقرئه منى السلام، وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام. قال: فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم عليه، ثم قعدا يتحادثان فقال له: يا رسول الله إنى ما آكل فى السنة إلا يومًا، وهذا يوم فطرى فآكل أنا وأنت، قال: فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحوت (سمكة) وكرفس، فأكلا وأطعمانى وصلينا العصر، ثم ودعه ورأيته مرة فى السحاب نحو السماء[1].

فقد كفانا البيهقى أمره، وقال هذا حديث ضعيف بمرة.

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابورى أخرجه فى مستدركه على الصحيحين وهذا مما يستدرك به على المستدرك: فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه: ومعناه لا يصح أيضًا، فقد تقدم فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعًا فى السماء إلى أن قال: ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن**».

وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذى ذهب إليه، وهذا لا يصح، لأنه كان أحق بالسعى إلى بيت خاتم الأنبياء. وفيه أنه يأكل فى السنة مرة، وقد تقدم

(١) رواه ابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ٢٠٠) وقال: وحديث موضوع لا أصل له.

عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب، وفيما تقدم عن بعضهم: أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر.

وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها.

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهذا عجب منه، كيف تكلم عليه؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانئ بن الحسن، عن بقية، عن الأوزاعى، عن مكحول، عن واثلة عن ابن الأسقع، فذكر نحو هذا مطولاً، وفيه أن ذلك كان فى غزوة تبوك، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان، قالا: فإذا هو أعلى جسماً (منا) بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة، وقال: إن لى فى كل أربعين يوما أكلة، وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل، ما عدا الكراث، وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال: عهدى به عام أول، وقال لى: إنك ستلقاه قبلى فأقرئه منى السلام.

وهذا يدل على أن الخضر وإلياس، بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهذا لا يسوغ شرعاً. وهذا موضوع أيضاً.

وقد أورد ابن عساكر طرقًا فيمن اجتمع بإلياس من العباد، وكلها لا يُفرح بها، لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها. ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا حماد بن واقد، عن ثابت قال: كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة، فدخلت حائطًا أصلى فيه ركعتين فافتتحت:

﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ (غافر: ١ - ٣).

فإذا برجل من خلفى على بغلة شهباء، عليه مقطعات يمنية فقال لى: إذا قلت: «غافر الذنب» فقل: يا غافر الذنب اغفر لى ذنبى، وإذا قلت: «قابل التوب» فقل: يا قابل التوب تقبل توبتى، وإذا قلت: «شديد العقاب» فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبنى، وإذا قلت: «ذى الطول» فقل: يا ذا الطول تطول علىَّ برحمتك، فالتفت فإذا لا أحد، وخرجت فسألت: هل مر بكم رجل على بغلة شهباء علية مقطعات يمنية؟ فقال: ما مر بنا أحد. فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس.

وقوله تعالى: **﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ (الصافات: ١٢٧).**

أى العذاب، إما فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة، والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٨) أى إلا من آمن منهم، وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٩) أى أبقينا له بعده ذكرا حسنا فى العالمين فلا يذكر إلا بخير، ولهذا قال: ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠) أى سلام على إلياس والعرب تلحن النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا: إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين، وإلياس وإلياسين وقد قرئ: سلام على آل ياسين، أى على آل محمد، وقرأ ابن مسعود أنه قال: إلياس هو إدريس. وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق. والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم.

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل
بعد موسى عليه السلام
ثم نُتْبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن جرير فى تاريخه: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا، يعنى أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله، وهما يوشع وكالب، وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣).

قال ابن جرير: ثم من بعده كان القائم بأمور بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو الذى دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

قصة حزقيل

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٣).

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو ابن العجوز وهو الذى دعا القوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيما بلغنا. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾.

قال ابن إسحاق: فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعًا فحظروا عليهم حظيرة دون السباع، فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكرًا فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم. فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحمًا وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك، فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد.

وقال أسباط عن السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة فى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن

دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ قالوا: كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم. فوقع فى قابل، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفًا حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيح، فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه: أن موتوا. فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبى يقال له حزقيل، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه، فأوحى الله إليه: أتريد أن أريك كيف أحييهم. قال: نعم، وإنما كان تفكيره أنه تعجب من قدرة الله عليهم، فقيل له: ناد. فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى. فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض، حتى كانت أجسادًا من عظام، ثم أوحى الله إليه. أن ناد: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحمًا فاكتست لحمًا ودمًا وثيابها التى ماتت فيها. ثم قيل له: ناد، فنادى: أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا.

وقال أسباط: فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت» فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبًا إلا عاد رسمًا، حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم.

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه ثمانية آلاف، وعن أبى صالح تسعة آلاف، وعن ابن عباس أيضًا كانوا أربعين ألفًا. وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات.

وقال ابن جريج عن عطاء: هذا مثل: يعنى أنه سبق مثلاً مبينًا أنه لن يغنى حذر من قدر!. وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع.

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح[1] من طريق الزهرى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام. فذكر الحديث. يعنى فى مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه. فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبًا ببعض حاجته فقال: إن عندى من هذا علمًا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه[2]**». فحمد الله عمر ثم انصرف.

وقال الإمام: حدثنا حجاج ويزيد المفتى قالا حدثنا ابن أبى ذؤيب عن الزهرى، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة. أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو فى

---

(١) البخاري ومسلم. (٢) وقد اعتمده المتأخرون من الأطباء وأسموه: الحجر الصحى.

الشام عن النبى ﷺ أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. قال: فرجع عمر من الشام. وأخرجاه من حديث مالك عن الزهرى بنحوه.

قال محمد بن إسحاق ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل ثم إن الله قبضه إليه. فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان فى جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له بعل، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

قلت: وقد قدمنا قصة إلياس تبعًا لقصة الخضر لأنهما يقرنان فى الذكر غالبًا، ولأجل أنها بعد قصة موسى فى سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام.

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله مع الأنبياء فى قوله: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ **(الأنعام: ٨٦).**

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ **(سورة ص: ٤٨).**

قال ابن إسحاق: حدثنا بشر أبو حذيفة، أنبأنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، قال كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله متمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه، ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فهم الأحداث والخطايا، وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء، وكان فيهم ملك عنيد طاغ، ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذا الكفل. قال محمد بن إسحاق هو اليسع بن أخطوب.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى حرف الياء من تاريخه: اليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام، ويقال: كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما رفع إلياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده.

ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه، عن وهب بن منبه، قال وقال غيره وكان الأسباط ببانياس.

ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف والتشديد ومن قرأ والليسع وهو اسم واحد لنبى من الأنبياء.

قلت: قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليه السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب. فالله تعالى أعلم.

فصــــل

قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بنى إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكًا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضًا، وكانوا إذ قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذى كان فيه قبة الزمان. كما تقدم ذكره فكانوا يُنصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

فلما كان فى بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم، فلما علم بذلك ملك بنى إسرائيل فى ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً.

وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله فيهم نبيًّا من الأنبياء يقال له شمويل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا ليقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله فى كتابه.

قال ابن جرير: فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالى أربعمائة سنة وستون سنة. ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً.

قصــة شمــويل علــيه الســلام

وفيها بدء أمر داود عليه السلام

هو شمويل ويقال أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا.

قال مقاتل: وهو من ورثة هارون. وقال مجاهد: هو أشمويل بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا. فالله أعلم.

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقًا كثيراً، وسبوا من أبنائهم جمعًا كثيراً، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً فسمته أشمويل، ومعناه بالعبرانية إسماعيل، أى سمع الله دعائى.

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته، وكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه

من ناحية المسجد، فانتبه مذعوراً، فظنه الشيخ يدعوه فسأله: أدعوتنى؟ فكره أن يفزعه فقال: نعم نم. فنام.

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه، فجاءه فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك. فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه.

قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ **(البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١).**

قال أكثر المفسرين: كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل. وقيل شمعون وقيل هما واحد. وقيل يوشع، وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة فالله أعلم.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبى الله فى ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء. فقال لهم: ﴿ **هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أى وأى شىء يمنعنا من القتال ﴿ **وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا** ﴾ يقولون نحن محروبون موتورون، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المقهورين المستضعفين فيهم المأسورين فى قبضتهم.

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ **(البقرة: ٢٤٦).**

كما ذكر فى آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ **(البقرة: ٢٤٧)** قال الثعلبى وهو طالوت بن قيش بن أفي بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قال عكرمة والسدى: كان سقاء! وقال وهب بن منبه: كان دباغًا وقيل غير ذلك. والله أعلم.

ولهذا ﴿ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ ولقد ذكروا أن النبوة كانت فى سبط لاوى وأن الملك كان فى سبط يهوذا، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا فى إمارته عليهم وقالوا نحن أحق بالملك منه و قد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فيكف يكون مثل هذا ملكًا؟.

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ قيل كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أى بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذى فيه من دهن القدس فهو ملكهم، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه للملك عليهم وقال لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ ﴾ قيل فى أمر الحروب وقيل بل مطلقًا «والجسم» قيل الطول وقيل الجمال، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا أيضًا من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذى كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء، وقيل السكينة مثل الريح الخجوج، وقيل صوتها مثل الهرة إذا صرخت فى حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ قيل كان فيه رضاض الألواح[1] وشىء من المن الذى كان نزل عليهم بالتيه ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عيانًا ليكون آية الله عليكم. ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وقيل إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت، وكان فه ما ذكر من السكينة والبقعة المباركة وقيل كان فيه التوراة أيضًا فلما استقر فى أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم فوضعوه تحته فلما كان اليوم

---

(١) التى كسرها موسى ﷺ عند غضبه على بنى إسرائيل عندما عبدوا العجل.

الثانى إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخرجوه من بلدهم وجعلوه فى قرية من قراهم، فأخذهم داء فى رقابهم فلما طال عليهم هذا جعلوه فى عجلة وربطوها فى بقرتين وأرسلوهما، فيقال إن الملائكة ساقتهما حتى جاءوا بهما ملأ بنى إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك، فالله أعلم على أى صفة جاءت به الملائكة، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية والله أعلم، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾.

قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشريعة، فكان من أمر طالوت لجنوده عند هذا النهر عن أمر نبى الله له عن أمر الله له اختبارًا وامتحانًا: أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى فى هذه الغزوة، ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه إلا غرفة بيده.

قال الله تعالى: ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾.

قال السدى: كان الجيش ثمانين ألفًا فشرب منه ستة وسبعون ألفًا، فبقى معه أربعة آلاف كذا قال.

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى، عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب. قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلابضعة عشر وثلاثمائة مؤمن. وقول السدى إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفًا فيه نظر، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفًا. والله أعلم

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى ثبتهم الشجعان منهم والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجلاد والجدال والطعان.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾، طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر أى يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم فى مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبيت الظاهر والباطن وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم

وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا.

ولهذا قال: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بحول الله وقوته لا بحولهم، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم، مع كثرة أعدائهم وكمال عُدَدِهم، كما قال الله تعالى: ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويدال لأولياء الله على أعدائه، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

وقد ذكر السدى فما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً، كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول من قتل جالوت زوجته بابنتى وأشركته فى ملكى، وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة وهى المقلاع رميًا عظيمًا، فبينا هو سائر مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذنى فإن بى تقتل جالوت. فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك، فأخذ الثلاثة فى مخلاته فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له: ارجع فإنى أكره قتلك. فقال: لكنى أحب قتلك. وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها فى القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً، ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً، فوفَّى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه فى ملكه وعظم داود عليه السلام عند بنى إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل إليه، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل، ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكى حتى يبل الثرى بدموعه فنودى ذات يوم من الجبانة: أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات. فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة، فقيل له: وهل أبقيت عالمًا! حتى دُلَّ على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام. قالوا: فدعت الله فقام يوشع من قبره فقال: أقامت القيامة؟ فقالت: لا ولكن هذا طالوت يسألك: هل له من توبة؟ فقال: نعم ينخلع من المُلك ويذهب فيقاتل فى سبيل الله حتى يقتل. ثم عاد ميتاً.

فترك المُلك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا فى سبيل الله حتى قتلوا. قالوا: فذلك قوله: ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾.

هكذا ذكره ابن جرير فى تاريخه من طريق السدى بإسناده. وفى بعض هذا نظر ونكارة. والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: النبى الذى بعث فأخبر طالوت توبته هو اليسع بن أخطوب - حكاه ابن جرير أيضاً.

وذكر الثعلبى أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور، وهذا أنسب. ولعله إنما رآه فى النوم لا أنه قام من القبر حيًّا، فإن هذا إنما يكون معجزة لنبى، وتلك المرأة لم تكن نبية والله أعلم.

قال ابن جرير: وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة. فالله أعلم.

قصة داود عليه السلام

وما كان فى أيامه وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وأعلامه

هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عوينادت بن إرم بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس.

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه.

تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام، وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر فاجتمعا فى داود هذا.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ **(البقرة: ٢٥١).**

أى لولا إقامة الملوك حكامًا على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم. ولهذا جاء فى بعض الآثار (السلطان ظل الله فى أرضه). وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت قال له: اخرج إليَّ وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت.

قال وهب بن منبه: فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود، وقيل إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم إنه ولاه قبل الواقعة.

قال ابن جرير: والذى عليه الجمهور إنه إنما ولى ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم، وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذى كان هو المذكور في الآية فالله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾.

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ أى لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم. قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة.

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم.

وقد ثبت فى الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده.

وقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد: الأيد القوة فى الطاعة. يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح. قال قتادة: أعطى قوة في العبادة وفقهاً فى الإسلام قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى**»[1].

وقوله: ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** ﴾ **(سورة ص: ١٨، ١٩).**

---

(١) رواه البخارى (٥٤/٣٠، ٥٦، ٥٨، ٥٩) ورواه مسلم (١٨١/١٣، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩-١٩٣، ١٩٦) وأبو داود (٥٤/١٤، ٦٧) والنسائى (٦٩/٢٢، ٨٠/٧٦) وابن ماجه (٣١/٧).

كما قال: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (سبأ: ١٠).

أى سبحي معه. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد فى تفسير هذه الآية: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾. أى عند آخر النهار وأوله، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدا بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الأوزاعى: حدثنى عبد الله بن عامر قال: أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى إن الأنهار لتقف! وقال وهب بن منبه: كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً، وقال أبو عوانة الأسفرايينى: حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا، حدثنا محمد بن منصور الطوسى سمعت صبيحا أبا تراب رحمه الله، قال أبو عوانة: وحدثنى أبو العباس المدنى، حدثنا محمد ابن صالح العدوى حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر، عن مالك، قال: كان داود عليه السلام إذا أخذ فى قراءة الزبور تفتقت العذارى هذا غريب.

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج: سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال: وما بأس بذلك؟ سمعت عبيد بن عمر يقول: كان داود عليه السلام يأخذ العزفة فيضربها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكى وتبكى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال لقد أوتى أبى موسى من مزامير آل داود[1]. وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمر، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود**»[2]. على شرط مسلم.

وقد روينا عن أبى عثمان النهدى أنه قال: لقد سمعت البربط والمزمار، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى.

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام عن أبى هريرة قال: قال

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٣٧/٦، ١٦٧).

(٢) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٣٦٩/٢) ورواه ابن ماجه فى سننه (١٧٦/٥/١٣٤١).

رسول الله ﷺ : «**خفف على داود القراءة، فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه**».

وكذلك رواه البخارى منفرداً به عن عبد الله بن محمد، عن عبد الرزاق به، ولفظه: «خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يديه»[1].

ثم قال البخارى: «ورواه موسى بن عقبة، عن صفوان، هو أبو سليم، عن عطاء ابن يسار، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

وقد أسنده ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام فى تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طهمان، عن موسى بن عقبة، ومن طريق أبى عاصم عن أبى بكر السبرى، عن صفوان بن سليم به.

والمراد بالقرآن ها هنا الزبور الذى أنزله عليه وأوحاه إليه، وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظًا فإنه كان ملكًا له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والتغنى به على وجه التخشع، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **وآتينا داود زبوراً** ﴾ والزبور كتاب مشهور، وذكرنا فى التفسير الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أنزل فى شهر رمضان، وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه.

وقوله: ﴿ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ أى أعطيناه ملكًا عظيمًا وحكمًا نافذًا.

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام فى بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه. فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى، فلما أصبح قال له داود: إن الله أوحى إلىّ أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فما خبرك فما ادعيته على هذا؟ قال: والله يا نبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه، ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا، فأمر به داود فقتل، فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعًا عظيمًا، قال ابن عباس وهو قوله تعالى: ﴿ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ** ﴾ أى النبوة، ﴿ **وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ قال شريح والشعبى وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم: «فصل الخطاب» الشهود والأيمان يعنون ذلك: «البينة على المدعى واليمين

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه (٦٠/٣٧/٣٤١٧) فتح البارى.

على من أنكر»[1] وقال مجاهد والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم. واختاره ابن جرير.

وهذا لا ينافى ما روى عن أبى موسى أنه قول: «أما بعد».

وقال وهب بن منبه: لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء. فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب، فإذا تشاجر الرجلان فى حق فأيهما كان محقًا نالها والآخر لا يصل إليها. فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه وأخذ عكازاً وأودعها فيه، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة وقال: اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه. ثم تناول السلسلة فنالها. فأشكل أمرها على بنى إسرائيل ثم رفعت سريعًا من بينهم.

ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين. وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾.

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ها هنا قصصًا وأخباراً أكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة. تركنا إيرادها فى كتابنا قصد الاكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة فى سجدة «ص»: هل هى من عزائم السجود أو إنما هى سجدة شكر ليست من عزائم السجود؟ على قولين:

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام، قال سألت مجاهداً عن سجدة «ص»[2] فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ قال أو ما تقرأ: **﴿ ومن ذريته داود وسليمان أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾** فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ

(١) رواه البخارى بمعناه.

(٢) ﴿فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل هو ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

وكذا رواه البخارى وأبو داود والترمذي والنسائى من حديث أيوب وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال النسائى: أخبرنى إبراهيم بن الحسن المقسمى، حدثنا حجاج بن محمد، عن عمر بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن النبى ﷺ سجد فى «ص» وقال: سجدها داود توبة ونسجدها شكرًا. تفرد به أحمد ورجاله ثقات.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعيد بن أبى سرح، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال: إنما هى توبة نبى ولكن رأيتكم تشرفتم فنزل وسجد[1]. تفرد به أحمد وإسناده على شرط الصحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زريع[2]، حدثنا حميد، حدثنا بكر، هو ابن عمر، وأبو الصديق الناجي، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى رأى رؤيا أنه يكتب «ص» فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً. قال: فقصها على النبى ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به أحمد.

وروى الترمذى وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد، قال: قال لى ابن جريج حدثنى جدك عبيد الله بن أبى يزيد، عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى. فسمعتها تقول وهى ساجدة: «اللهم اكتب لى بها عندك أجراً واجعلها عندك ذخراً وضع عنى بها وزراً، واقبلها منى كما قبلت من عبدك داود».

قال ابن عباس: فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة.

ثم قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يومًا وقاله مجاهد

(١) السنن لأبى داود (١/٢٢٣).

(٢) البصرى أبو معاوية، ثقة ثبت، من الطبقة الثامنة، مات سنة اثنتين وثمانين.

والحسن وغيرهما وورد فى ذلك حديث مرفوع، لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيف متروك الرواية.

قال الله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى أن له يوم القيامة لزلفى، وهى القربة التى يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها، كما ثبت فى حديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما وُلوا».

وقال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية. عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر**»[1].

وهكذا رواه الترمذى من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به وقال: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت مالك بن دينار فى قوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال: يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله: يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا، فيقول وكيف وقد سلبته فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

يقول تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ **(سورة ص: ٢٦).**

هذا خطاب من الله تعالى مع داود، والمراد ولاة الأمور وحكام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله، لا ما سواه من الآراء والأهواء، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك، وقد كان داود عليه السلام، هو المقتدَى به فى ذلك الزمان فى العدل، وكثرة العبادة، وأنواع القربات، حتى إنه كان لا يمضى ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى: ﴿ **اعملوا آل داود شكرْا وقليل من عبادى الشكور** ﴾.

قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام، حدثنا صالح

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣/٢٢) ورواه الترمذي فى سننه (١٢/٤/١٣٢٩).

المرى[1] عن أبى عمران الجونى، عن أبى الجلد، قال: قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال: يا رب كيف لى أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحى: «أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى؟ قال: بلى يا رب، قال: فإنى أرضى بذلك منك».

وقال البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ. أنبأنا أبو بكر بن بالويه، حدثنا محمد بن يونس القرشى، حدثنا روح بن عبادة، حدثنى عبد الله بن لاحق، عن ابن شهاب قال: قال داود: «الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله. فأوحى الله إليه: إنك أتعبت الحفظة يا داود!». ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد، عن الثورى مثله.

وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد: أنبأنا سفيان الثورى، عن رجل، عن وهب بن منبه، قال: إن فى حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات، ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام القلوب، وحق على العاقل أن يعرف زمانه، ويحفظ لسانه، ويقبل على شأنه، وحق على العاقل ألا يظعن إلى فى إحدى ثلاث: زاد لمعاده، ومرمة لمعاشه، ولذة فى غير محرم[2].

وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا، عن أبى بكر بن أبى خيثمة، عن ابن مهدى، عن سفيان، عن أبى الأغر، عن وهب بن منبه. فذكره. ورواه أيضًا عن على بن الجعد، عن عمر بن الهيثم الرقاشى عن أبى الأغر عن وهب بن منبه فذكره. وأبو الأغر هذا هو الذى أبهمه[3] ابن المبارك فى روايته. قاله ابن عساكر.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا بشر بن رافع، حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله قال سمعت وهب بن منبه، فذكر مثله، وقد أورد الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.

وروى بسند غريب مرفوعًا قال داود: يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها.

وعن داود ﷺ أنه قال: مثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت، وقال أيضًا: ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى.

وقال: أنظر ما تكره أن يذكر عنك فى نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت.

وقال: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه.

---

(١) صالح بن بشير المرى البصرى منسوب إلى مرة بن الحارث بن عبد القيس.

(٢) الحديث رواه ابن المبارك فى الزهد (١٠٥/١/٣١٣).

(٣) قال: عن رجل ولم يبين عن اسمه.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر الواقدى، حدثنى هشام بن سعيد، عن عمر مولى عفرة، قال: قالت يهود، لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء: انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ما له همة إلا إلى النساء. حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا لو كان نبيًا ما رغب فى النساء، وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ يعنى بالناس رسول الله ﷺ: ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما** ﴾ يعنى ما آتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة، سبعمائة مهرية[1] وثلاثمائة سرية[2]، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التى تزوجها بعد الفتنة، هذا أكثر مما لمحمد ﷺ، وقد ذكر الكلبى نحو هذا وأنه كانت لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة، منهن ثلاثمائة سرية.

وروى الحافظ فى تاريخه فى ترجمة صدقة الدمشقى الذى روى عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضاله الحمصى، عن أبى هريرة الحمصى، عن صدقة الدمشقى، أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال: لأحدثنك بحديث كان عندى فى البحث مخزونًا، إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صوامًا وكان شجاعًا لا يفر إذا لاقى، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقال رسول الله: «أفضل الصيام صيام داود، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتًا يكون فيها، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه ويبكى ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهموم والمحموم.

وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخرة ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام.

وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم، فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر، يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب، وكان أينما أدركه الليل صف بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح، وكان راميًا لا يفوته صيد يريده، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم.

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران، فإنها كانت تصوم يومًا وتفطر يومين.

وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول إن ذلك صوم الدهر.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى النضر، عن فرج بن فضالة، عن أبى هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعًا فى صوم داود.

---

(١) أى حرة زوجة بعقد ومهر.

(٢) ملك يمين.

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أى رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أى رب، كم عمره؟ قال: ستون عامًا. قال: أى رب زد فى عمره. قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عامًا فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: بقى من عمرى أربعون سنة ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة. رواه أحمد عن ابن عباس، والترمذى وصححه عن أبى هريرة، وابن خزيمة وابن حبان، وقال الحاكم: على شرط مسلم. وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه فى قصة آدم.

قال ابن جرير: وقد زعم أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعًا وسبعين سنة. قلت: هذا غلط مردود عليهم. قالوا: وكانت مدة ملكه أربعين سنة، وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام، فقال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو، عن المطلب، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تتطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفضحن بداود. فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت مرحبًا بأمر الله. ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلى على داود، فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضى جناحًا. قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير. وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذٍ المصرحية»(1).

انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوى رجاله ثقات، ومعنى قوله: «وغلبت عليه يومئذ المصرحية» أى وغلبت على التظليل عليه المصرحية وهى الصقور الطوال الأجنحة واحدها مصرحى. قال الجوهرى: هو الصقر الطويل الجناح.

(1) رواه أحمد فى مسنده (٢/٤١٩).

وقال السدى عن أبى مالك، عن ابن مالك، عن ابن عباس قال: مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت. وكانت الطير تظله. وقال السدى أيضًا، عن أبى مالك وعن سعيد بن جبير قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة.

وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، قال مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة. وقال أبو السكن الهجرى: مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه ابن عساكر.

وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل عن محرابه فقال له دعنى أنزل أو أصعد. فقال: يا نبى الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق. قال: فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد.

وقال إسحاق بن بشر[1]**:** أنبأنا وافر بن سليمان، عن أبى سليمان الفلسطينى، عن وهب بن منبه قال: إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس فى يوم صائف قال: وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس، ولم يمت فى بنى إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعًا عليه منهم على داود. قال: فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه، حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح، ففعلت فكان الناس فى ظل تهب عليهم الريح، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع، حدثنى الوليد بن مسلم، عن الهيثم بن حميد، عن الوضين بن عطاء، عن نصر بن علقمة، عن جبير بن نفير، عن أبى الدرداء. قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتى سنة**».

هذا حديث غريب وفى رفعه نظر، والوضين بن عطاء كان ضعيفًا فى الحديث. والله أعلم.

---

(1) هو إسحاق بن بشر بن حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ تركوه وكذبه على بن المدينى وقال ابن حبان: لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب.

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر: هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن تخشون بن عمينا داب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله ابن نبي الله.

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق. قال ابن ماكولا: فارص بالصاد المهملة، وذكر نسبه قريبًا مما ذكره ابن عساكر(١).

قال الله تعالى: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** ﴾ **(النمل:١٦).**

أى ورثه فى النبوة والملك، وليس المراد ورثه فى المال، لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخص بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**» وفي لفظه: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**» فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم. وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾. يعنى أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر عن مقاصدها وإرادتها.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ(٢)، أنبأنا على بن حشاد، حدثنا إسماعيل بن قتيبة، حدثنا على بن قدامة، حدثنا أبو جعفر الاستوائى، يعنى محمد بن عبد الرحمن: عن أبى يعقوب العمى، حدثنى أبو مالك، قال مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبى الله؟ قال: يخطبها إلى نفسه ويقول زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت! قال سليمان عليه السلام: لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب.

رواه ابن عساكر عن أبى القاسم زاهر بن طاهر، عن البيهقى به، وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أى من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات

---

(١) أى فى تاريخه.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الضبى الحاكم النيسابورى المعروف بابن البيع وهو صاحب المستدرك على الصحيحين.

والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات، ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أى من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يومًا فى جيش جميعه من الجن والإنس والطير. فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أى نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذى يسير فيه ولا يتأخر عنه.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور. وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرسا، وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب.

وفى هذا كله نظر، بل فى هذا السياق دليل على أنه كان فى موكبه راكبًا فى خيوله وفرسانه، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء، لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة أمتها من الرأى السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتهم مزية على غيره إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن فى هذا أيضًا فائدة يعول عليها، ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى ألهمنى وأرشدنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له.

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود، عن يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: قالت أم سليمان بن داود: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة. رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي، فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سُقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها!

قال ابن عساكر: وقد روى مرفوعًا ولم يذكر فيه سليمان. ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز، عن سلامة بن روح بن خالد، عن عقيل، عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة**».

وقال السدي: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول: «اللهم إنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك». قال: فصب الله عليهم المطر.

وقال الله تعالى: ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ (النمل: ٢٠ - ٣٧).

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك. وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا

أعوزوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجىء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم. فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده فى موضعه من محل خدمته ﴿ **فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ أى ما له مفقود من ها هنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾ توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه، والمقصود حاصل على كل تقدير ﴿ **أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى بحجة تنجيه من هذه الورطة.

قال الله تعالى: ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ** ﴾ أى فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها ﴿ **فَقَالَ** ﴾ لسليمان ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ أى اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ أى بخبر صادق ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم.

وذكر الثعلبى وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعم به الفساد، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته على بابها. فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهى بلقيس بنت السيرح وهو الهداد، وقيل شراحيل بن ذى جدن بن السيرج بن الحارث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان أبوها من أكابر الملوك وكان قد يأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال أنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها بلقيس.

وقد روى الثعلبى من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نهيك، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «**كان أحد أبوى بلقيس جنياً**». وهذا حديث غريب، وفى سنده ضعيف.

وقال الثعلبى: أخبرنى أبو عبد الله بن قبحونة، حدثنا أبو بكر بن حرجة، حدثنا ابن أبى الليث، حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن أبى بكر. قال ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال: «**لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**». إسماعيل بن مسلم هذا هو المكى ضعيف.

وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث عوف، عن الحسن، عن أبى بكر أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»[1].

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه ح (٧٠٩٩).

ورواه الترمذى والنسائى من حديث حميد، عن الحسن عن أبى بكرة، عن النبى ﷺ بمثله وقال الترمذى حسن صحيح. وقوله: ﴿ وَأُوتِيَنَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى سرير مملكتها كان مزخرفًا بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلى الباهر.

ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون، أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات.

فعند ذاك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم: ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ أى لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أى واقدموا علىَّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة، فلما جاءها الكتاب مع الطير، ومن ثَمَّ اتخذ الناس البطائق، ولكن أين الثريا من الثرى، تلك البطاقة كانت مع سائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن الكتاب، فجمعت أمراءها ووزراءها، وأكابر دولتها إلى مشورتها، ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ ثم قرأته: ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ تعنى ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين «و» مع هذا ﴿ الأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة، وفوضوا اليها فى ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم.

فكان رأيها أتم وأرشد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالَب ولا يمانَع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلىَّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علىّ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها. وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها. ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفًا ولا عدلاً، لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون.

و لهذا ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة، ذكرها المفسرون.

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ يقول ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قد منَّ بها فإن عندى مما قد أنعم الله علىَّ وأسداه إلىَّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار.

فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة وأقبلوا بصحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين. فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه فى القرآن:

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٣٨ - ٤٤).

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس، هو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها، قبل قدومها عليه ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يعنى قبل أن ينقضى مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل وما لهم من الأشغال: ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أى وإنى لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ المشهور أنه آصف بن برخينا وهو ابن خالة سليمان. وقيل: هو رجل من مؤمنى الجان. كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم. وقيل: رجل من بنى إسرائيل من علمائهم، وقيل: إنه سليمان، وهذا غريب جداً. وضعفه السهيلى بأنه لا يصح فى سياق الكلام. قال وقد قيل فيه قول رابع وهو: جبريل: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى

أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس. وقيل: قبل أن يَكلَّ طرفك إذا أقدمت على النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل.

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ أى فلما رأى عرش بلقيس مستقرًا عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أى هذا من فضل الله علىَّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أى غنى عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب. قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أى ومنعتها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله اتباعًا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل فى ممره ماء، وجعل عليه سقفًا من زجاج، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدى عن ساقيها ليرى ما عليهما من الشعر فينفره ذلك منها وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه. وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفى الأول أيضًا نظر. والله أعلم.

إلا أن سليمان قيل إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى، فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام، فكان أول من دخل الحمام، فلما وجد مسه قال أوه من عذاب أوه أوه قبل ألا ينفع أوه. رواه الطبرانى مرفوعًا، وفيه نظر.

وقد ذكر الثعلبى وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه وكان يزورها فى كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن. غمدان وسالحين وبيتون. فالله أعلم.

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التى ذكرناها باليمن. والأول أشهر وأظهر. والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ (سورة ص: ٣٠ - ٤٠).

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام، ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ أى رجاع مطيع لله. ثم ذكر تعالى ما كان من أمره فى الخيل الصافنات وهي التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، الجياد وهى المضمرة السراع.

فقال: ﴿ **إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ يعنى الشمس. وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين: ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ** ﴾ قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف. وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر.

والذى عليه أكثر السلف الأول، فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس. روى هذا عن على بن أبى طالب وغيره. والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغاً فى شريعتهم، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك.

وقد ادعى طائفة من العلماء فى تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف، قاله الشافعى وغيره. وقال مكحول والأوزاعى: بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد. كما ذكرنا تقرير ذلك فى سورة النساء عند صلاة الخوف. وقال آخرون: بل كان تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم. وأما من قال: الضمير فى قوله: ﴿ **حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ عائد على الخيل وأنه لم ينته وقت صلاة وأن المراد بقوله: ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ** ﴾ يعنى مسح العرق فى عراقيبها وأعناقها، فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبى عن ابن عباس فى مسح العرق. ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها. وهذا الذى قاله فيه نظر لأنه قد

يكون هذا سائغًا في ملتهم وقد ذهب وبعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها. وعليه حمل صنيع جعفر بن أبى طالب يوم عقر فرسه بمؤتة. وقد قيل إنها كانت خيلاً عظيمة. قيل كانت عشرة آلاف فرس وقيل عشرين ألف فرس. وقيل كان فيها عشرون فرسًا من ذوات الأجنحة.

وقد روى أبو داود فى سننه: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبى مريم أنبأنا يحيى بن أيوب، حدثنى عمارة بن غزية، أن محمد بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفى سهوتها ستر، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعَب[1] فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقالت: بناتي. ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع. فقال: ما هذا الذى أرى وسطهن؟ قالت: فرس. قال: وما الذى عليه هذا؟ قالت: جناحان. قال: فرس له جناحان! قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة. قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[1].

وقال بعض العلماء لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها، وهو الريح التي كانت غدوها شهرا ورواحها شهرا، كما سيأتى عليها.

كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد ابن هلال، عن أبى قتادة وأبى الدهماء، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله عز وجل وقال: «**إنك لا تدع شيئا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرا منه**».

وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ**﴾ ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين ها هنا آثاراً كثيرة من جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفى كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير واقتصرنا ها هنا على مجرد التلاوة.

ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يومًا ثم عاد إليه، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكمًا. وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام، كما ذكرنا عند قول أبى ذر. قلت: يا رسول الله أى مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أى؟ قال: مسجد بيت المقدس، قلت: كم بينهما قال: أربعون سنة.

ومعلوم أن بين إبراهيم الذى بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما

(١) كعرائس البنات اللاتى يلعبن بها.

(٢) السنن لأبى داود (٢/٣٠٥).

السلام أزيد من ألف سنة وليس أربعين سنة، وكان سؤاله الذى لا ينبغى لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس؟ قال الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثًا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكمًا يصادف حكمه. فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه. وسأله إيما خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها.

فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ **(الأنبياء: ٧٨، ٧٩).**

وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين، أى رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبى الله؟ فقالوا: بكذا وبكذا فقال أما لو كانت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجًا ودرًا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا فى الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان فقال: أئتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه. فقالت الصغرى يرحمك الله هو ابنها. فقضى به لها**»[1].

ولعل كلا من الحكمين كان سائغًا فى شريعتهم، ولكن ما قاله سليمان أرجح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

ثم قال: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ **(الأنبياء: ٧٩، ٨٠).**

وقال فى سورة «ص»: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ

---

(١) رواه النسائى (٢٠/١٣) ورواه ابن ماجه (١٤/٢٨) ورواه أحمد فى مسنده (٣٢٢/٢، ٣٤٠).

كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص ٣٦ - ٤٠).

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التى هى أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى حيث أراد من أى البلاد، كان له بساط مركب من أخشاب بحيث أنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجن، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإذا أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته فى أى مكان شاء، بحيث إنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس تغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس.

كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٢، ١٣).

قال الحسن البصرى: كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر.

قلت: قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جبرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال.

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد: هو النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن أنبعها الله له. قال السدى: ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها.

وقوله: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (سبأ: ١٢). أى وسخر الله له من الجن عمالا يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ وهى الصور فى الجدران، وكان هذا سائغاً فى شريعتهم وملتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض، وعنه كالحياض، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم. وعلى هذه الرواية تكون الجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء، قال الأعشى:

تروح على آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقى تفهق

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة: أثافيها منها، يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن، وهكذا قال مجاهد وغير واحد.

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ **(سبأ: ١٣).**

وقال تعالى: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾ يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآليء وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك، وقوله: ﴿ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾ أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد وهى القيود، وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخره له من أشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ولم يكن أيضًا لمن كان قبله.

وقد قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلّت علىّ البارحة ليقطع علىّ صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان:** ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي** ﴾**، فرددته خاسئًا**»(١). وكذلك رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة.

وقال مسلم: حدثنا محمد بن سلمة المرادى، حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح، حدثنى ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات. ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة(٢)، وكذا رواه النسائى عن محمد بن سلمة به.

وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائمًا يصلى، فذهبت أمر بين يديه فردنى ثم قال: حدثنى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته قال: «**لو رأيتمونى وإبليس**

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٨/٧٥)، ورواه مسلم فى صحيحه (٥/٣٣٩) ورواه أحمد فى مسنده (٢/٢٩٨).
(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه (٥/٤٠).

فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعيَّ هاتين الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطًا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم إلا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»[1].

وروى أبو داود منه: «فمن استطاع» إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيرى به.

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سرارى، وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرًا عظيمًا جداً.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل فلم تحمل شيئًا إلا واحداً ساقطًا أحد شقيه. فقال النبى ﷺ: «**لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله**»[2]. وقال شعيب وابن أبى الزناد: تسعين وهو أصح. تفرد به البخارى من هذا الوجه.

وقال أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا يزيد، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان. فقال رسول الله ﷺ: «**لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل**»[3]. إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلامًا يقاتل فى سبيل الله ولم يستثن. فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان. قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل فى سبيل الله عز وجل**»[4]. تفرد به أحمد أيضاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه: عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، قال سليمان بن داود، لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل فى سبيل الله، قال ونسى أن يقول إن شاء الله فأطاف بهن قال: فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة ولدت نصف إنسان. فقال رسول الله ﷺ: «**لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركًا لحاجته**»[5].

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٨٢/٣). (٢) رواه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٩/٤/٨٣).

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٥٠٦/٢).

(٤) رواه أحمد فى المسند (٢٢٩/٢) ولم يستثن: لم يقل إن شاء الله. (٥) رواه أحمد فى مسنده (٢٧٥/٢).

وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله . قال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل، عن أبى الزناد، وابن أبى الزناد عن أبيه، عن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، أن سليمان بن داود كانت له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان .

فقال النبى ﷺ : «**والذى نفسى بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال من فرسان ولجاهدوا فى سبيل الله عز وجل**» .

وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر، فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح .

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾، ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة التى إليه قال : ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾ أى أعط من شئت واحرم من شئت، فلا حساب عليك، أى تصرف فى المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه ألا يعطى أحداً إلا بإذن الله له فى ذلك .

وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولاً، وفى بعض الروايات أنه استشار جبريل فى ذلك فأشار إليه أن تواضع . فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة . فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى : ﴿ **وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ .

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ **(سبأ: ١٤).**

روى ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء

ابن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «**كان سليمان نبى الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول كذا. فيقول لأى شىء أنت؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء أنبتت. فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأى شىء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم عَمِّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصاً فتوكأ عليها حولاً والجن تعمل، فأكلتها الأَرَضَة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً فى العذاب المهين**». قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك. فشكرت الجن للأَرَضَة فكانت تأتيها بالماء. لفظ ابن جرير. وعطاء الخرسانى فى حديثه نكارة.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفًا. وهو أشبه بالصواب والله أعلم.

وقال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن أناس من الصحابة: كان سليمان عليه السلام يتجرد فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه. فأدخله فى المرة التى توفى فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمى كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا. فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها ما أسمك؟ فقالت: أنا الخروبة. فقال: ولأى شىء نبت؟ فقالت: نبت لخراب هذا المسجد. فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حى، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها فى حائط له. ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئًا على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين. وهم فى ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه. فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول: ألست جليدا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الأخر. فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطانًا ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو فى المحراب إلا احترق، فلم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتًا، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات. ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهى العصا بلسان الحبشة، قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يومًا وليلة. ثم حسبوا على دلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة، وهى قراءة ابن مسعود: فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا

يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله عز وجل: ﴿ **ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأَرَضَة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقل إليك الماء والطين. قال: فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكرًا لها.

وهذا فيه من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب.

وقال أبو داود فى كتاب القدر: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن خيثمة، قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت: إذا أردت أن تقبض روحى فأعلمنى قال: ما أنا أعلم بذاك منك إنما هى كتب يلقى إلىَّ فيها تسمية من يموت.

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال سليمان لملك الموت: إذا أمرت بى فأعلمنى، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب فقام يصلى فاتكأ على عصاه قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت. قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى، قال: فبعث الله دابة الأرض يعنى إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا. قال: فذلك قوله: ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾.

قال أصبغ: وبلغنى عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منسأته حتى خر. وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم.

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق، عن الزهرى وغيره أن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة. قال إسحاق: أنبأنا أبو روق، عن عكرمة، عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة. والله أعلم. وقال ابن جرير: فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفًا وخمسين سنة.

وفى سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير قال: ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل.

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام
ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين
إلا أنهم بعد داود وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم شعيا بن أمصيا. قال محمد بن إسحاق: وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام. وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل، فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة، وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب. قال ابن إسحاق: فى ستمائة ألف راية.

وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً. وقال الملك للنبى شعيا: ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال: لم يوح إليَّ فيهم شيء بعد، ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء، فإنه قد اقترب أجله. فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى سرى وإعلانى لك.

قال فاستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال فى سجوده: «اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، علام الغيب والشهادة، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين».

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برأ. ففعل ذلك فشفى.

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر فأرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم فى البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً، ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير، ثم أودعهم السجن وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمره فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به. ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين.

قال ابن إسحاق: ثم مات حزقيا ملك بنى إسرائيل واختلطت أحداثهم، وكثر شرهم، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها، فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل إنه الخضر، رواه الضحاك عن ابن عباس، وهو غريب وليس بصحيح.

قال ابن عساكر: جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال: أيها الدم فتنت الناس فاسكن. فسكن ورسب حتى غاب.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنى على بن أبى مريم، عن أحمد بن حباب، عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: قال أرميا: أىْ ربِّ أىُّ عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لى ذكرًا، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه وإذا زوى عنهم سروا بذلك. أولئك أنحلهم محبتى وأعطيهم فوق غاياتهم.

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ **(الإسراء: ٢ - ٨).**

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصى: أن قم بين ظهرانى قومك فأخبرهم أن لهم قلوبًا ولا يفقهون، وأعينًا ولا يبصرون، وآذانًا ولا يسمعون، وإنى تذكرت صلاح آبائهم فعطفنى ذلك على أبنائهم. فسلهم كيف وجدوا غب طاعتى، وهل سعد أحد ممن عصانى بمعصيتى، وهل شقى أحد ممن أطاعنى بطاعتى؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذى أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير

وجهها، أما أحبارهم فأنكروا حقى وأما نساكهم فعبدوا غيرى، وأما قراؤهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا علىَّ وعلى رسلى، خزنوا المكر في قلوبهم، وعودوا الكذب ألسنتهم وأنى أقسم بجلالى وعزتى لأهيجن عليهم جيولاً لا يفقهون ألسنتهم، ولا يعرفون وجوههم، ولا يرحمون بكاءهم، ولأبعث فيهم ملكًا جبارًا قاسيًا له عساكر كقطع السحاب ومواكب كأمثال الفجاج كأن خفقان راياته طيران النسور وكأن حمل فرسانه كر العقبان يعيدون العمران خرابًا ويتركون القرى وحشة، فياويل إليا وسكانها كيف أذلهم بالقتل وأسلط عليهم السبا وأعيد بعد لجب الأعراش صراخًا، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرفات القصور مساكن السباع وبعد ضوء السرج وهج العجاج وبالعز ذلاً وبالنعمة العبودية وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشى على الزرابى الخبب، ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض وعظامهم ضاحية للشمس، ولأدوسنهم بألوان العذاب ثم لأمرن السماء فتكون طبقًا من حديد والأرض سبيكة من نحاس، فإن أمطرت لم تنبت الأرض، وإن أنبتت شيئًا فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم، ثم أحبسه فى زمان الزرع وأرسله فى زمان الحصاد، فإن زرعوا فى خلال ذلك شيئًا سلطت عليه الآفة فإن خلص منه شىء نزعت منه البركة، فإن دعونى لم أجبهم، وإن سألوا لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم. رواه ابن عساكر بهذا اللفظ.

قال إسحاق بن بشر: أنبأنا إدريس، عن وهب بن منبه، قال إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بنى إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصى وقتلوا الأنبياء طمع بختنصر فيهم وقذف الله فى قلبه وحدث بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم فأوحى الله إلى أرميا: إنى مهلك بنى إسرائيل ومنتقم منهم فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحيى. فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجدًا وقال: يا رب وددت لو أن أمى لم تلدنى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس ويوار بنى إسرائيل من أجلى، فقال له: ارفع رأسك. فرفع رأسه فبكى ثم قال: يا رب من تسلط عليهم؟ فقال: عبدة النيران لا يخافون عقابى ولا يرجون ثوابى قم يا أرميا فاستمع وحيى أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل: من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتبيتك، فقم مع الملك تسدده وترشده. فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحى من الله حتى عظمت الأحداث ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده فأوحى الله إلى أرميا: قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم. فقال أرميا: يا رب إنى ضعيف إن لم تقونى، عاجز إن لم تبلغنى، مخطئ إن لم تسددنى، مخذول إن لم تنصرنى، ذليل إن لم تعزنى، فقال الله تعالى: أو لم تعلم أن

الأمور كلها تصدر عن مشيئتى، وأن الخلق والأمر كله لى، وأن القلوب والألسنة كلها بيدى فأقلبها كيف شئت فتطيعنى فأنا الله الذى ليس شىء مثلى قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتى، وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لى، ولا يعلم ما عندى غيرى، وأنا الذى كلمت البحار ففهمت قولى وأمرتها ففعلت أمرى، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدى، وتأتى بأمواج كالجبال فإذا بلغت حدى ألبستها مذلة لطاعتى وخوفًا واعترافًا لأمرى، وإنى معك ولن يصل إليك شىء معى، وإن بعثتك إلى خلق عظيم من خلقى لتبلغهم رسالاتى فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم، يا معشر ابناء الأنبياء، وكيف وجد آباؤكم مغبة طاعتى وكيف وجدتم معصيتى، وهل وجدوا أحداً عصانى فسعد بمعصيتى وهل علموا أحداً أطاعنى فشقى بطاعتى؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها، وإن هؤلاء القوم رتعوا فى مروج الهلكة وتركوا الأمر الذى أكرمت به آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها. فأما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولاً (عبيدا) يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابى حتى أجهلوهم أمرى، وأنسوهم ذكرى وسنتى، وغروهم عنى فدان لهم عبادى بالطاعة التى لا تنبغى إلا لى، فهم يطيعونهم فى معصيتى.

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا، وأمنوا مكرى، وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابى ونسوا عهدى، فهم يحرفون كتابى ويفترون على رسلى جرأة منهم علىَّ وغرة بى، فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى، هل ينبغى أن يكون لى شريك فى ملكى؟ وهل ينبغى لبشر أن يطاع فى معصيتى؟ وهل ينبغى لى أن أخلق عباداً أجعلهم أربابًا من دونى أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهى لا تنبغى إلا لى؟!.

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون، فينقادون للملوك فتابعوهم على البدع التى يبتدعون فى دينى، ويطيعونهم فى معصيتى، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدى، فهم جهلة بما يعلمون ولا ينتفعون بشىء ما علموا من كتابى.

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون، يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصرى آباءهم والكرامة التى أكرمتهم بها، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر، ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم فى أمرى حين اغتر المغترون، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون منى ويرجعون، فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون. وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على

العدو ولا يزدادون إلا طغيانًا وبعداً منى فحتى متى هذا؟ أبى يسخرون؟ أم بى يتحرشون؟ أم إياى يخادعون أم علىَّ يجترئون؟ فإنى أقسم بعزتى لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها ويضل رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسيًا عاتيًا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج، وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان؛ يعيدون العمران خراباً والقرى وحشًا ويعيثون فى الأرض فساداً، ويتبرون ما علوا تتبيراً قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون، يجولون فى الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد، تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها، ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها، فوعزتى لأعطلن بيوتهم من حديثها ودروسها، ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيرى، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير الدين، ويتعلمون فيها لغير العمل، لأبدلن ملوكها بالعز الذل، وبالأمن الخوف، وبالغنى الفقر وبالنعمة الجوع، وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء، وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء، وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال، ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد ضوء السراج دخان الحريق، وبعد الأنس الوحشة والقفار. ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد، وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار، وبالمشى على الزرابى عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل فى بطون الأسواق، وبالخدور والستور عن الوجوه والسوق والأسفار والأرواح السموم، ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب التى لو كان الكائن منهم فى حالق لوصل ذلك إليه، إنى إنما أكرم من أكرمنى وإنما أهين من هان عليه أمرى. ثم لأمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقًا من حديد، ولأمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس: فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت. فإن أمطرت خلال ذلك شيئًا سلطت عليهم الآفة، فإن خلص منه شىء نزعت منه البركة وإن دعونى لم أجبهم، وإن سألونى لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا إلىَّ صرفت وجهى عنهم، وإن قالوا اللهم أنت الذى ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا فى البلاد واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً فأنت أوفى المنعمين وإن غيرنا، ولا تبدل وإن بدلنا وإن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك. فإن قالوا ذلك قلت لهم إنى أبتدئ عبادى برحمتى ونعمتى، فإن قبلوا أتممت وإن استزادوا زدت، وإن شكروا ضاعفت، وإن غيروا غيرت، وإذا غيروا غضبت! وإذا غضبت عذبت وليس يقوم شىء بغضبى.

قال كعب: فقال أرميا: بوجهك أصبحت أتعلم بين يديك وهل ينبغى ذلك لى وأنا أذل وأضعف من أن ينبغى لى أن أتكلم بين يديك ولكن برحمتك أبقيتنى لهذا اليوم وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منى بما رضيت به منى طولاً والإقامة فى دار الخاطئين وهم يعصونك حولى بغير نكر ولا تغيير منى، فإن تعذبنى فبذنبى وإن ترحمنى فذلك ظنى بك. ثم قال: يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت، أتهلك هذه القرية وما حولها وهى مساكن أنبيائك ومنزل وحيك يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التى رفعت لذكرك، يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك، يا رب أى القرى تأمن عقوبتك بعد. وأى العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلط عليهم عبدة النيران. قال الله تعالى: يا أرميا من عصانى فلا يستنكر نقمتى، فإنى إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتى، ولو أنهم عصونى لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أتداركهم برحمتى.

قال أرميا: يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به، وموسى قربته نجيًّا فسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا. فأوحى الله إليه: يا أرميا إنى قدستك فى بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندى بمنزلة جنة: ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع، ولكن سأشكو إليك بنى إسرائيل: إنى كنت لهم بمنزلة الراعى الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً، فيا ويلهم ثم يا ويلهم، إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى. إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتى وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتى تبرعاً فيظهرونها فى المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار حتى عجت السماء إلىَّ منهم وعجت الأرض والجبال نفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها، وفى كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب.

قال: فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا: كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده؟ فمن يعبده حين لا يبقى له فى الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب؟! لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون. فأخذوه وقيدوه وسجنوه، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال الله تعالى: ﴿ **فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ** ﴾ قال: فلما طال بهم

الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة قوله: ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين، فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمنى والشيوخ والعجائز، ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأوقف النساء فى الأسواق حاسرات، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة، وسأل عن دانيال الذى كان قد كتب له الكتاب فوجده قد مات وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وأن فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل، فأمضى لهم ذلك الكتاب. وكان دانيال بن حزقيل خلفًا من دانيال الأكبر ودخل بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلها وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم، فلما فرغ منهم انصرف راجعًا وحمل الأموال التى كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام، وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود، وأحد عشر ألفًا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط إيشي بن يعقوب، وأربعة عشر ألفًا من سبط زبالون ونفتالى ابنى يعقوب، وأربعة عشر ألفًا من سبط دان بن يعقوب، وثمانية آلاف من سبط يستأخر بن يعقوب، وألفين من سبط زيكون بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى، واثنى عشر ألفًا من سائر بنى إسرائيل. وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشر، قال وهبْ بن منبه: فلما فعل ما فعل قيل له كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم، فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه. فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له: أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم؟ قال: نعم، قال: فإنى علمت ذلك. قال: أرسلنى الله إليهم فكذبونى، قال: كذبوك وضربوك وسجنوك؟ قال: نعم. قال: بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم، فهل لك أن تلحق بى فأكرمك وأواسيك وإن أحببت أن تقيم فى بلادك فقد أمنتك. قال له أرميا: إنى لم أزل فى أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط، ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان. فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا.

وهذا سياق غريب، وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة، وفيه من جهة التعريب غرابة.

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى: كان بختنصر أصفهبذا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب، وكان قد بنى مدينة بلخ التى تلقب بالخنساء، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن وبعث بختنصر لقتال بنى إسرائيل بالشام فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق، وقد قيل إن الذى بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب، وذلك لتعدى بنى إسرائيل على رسله إليهم.

وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد الأنصارى، عن سعيد بن المسيب، أن بختنصر لما قدم دمشق وجد بها دمًا يغلى على كبا، يعنى القمامة، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم فسكن.

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا، وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بختنصر بمدة، والظاهر أن هذا دم نبى متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به.

قال هشام بن الكلبى: قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بنى إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع، فلما بلغ طبرية بلغه أن بنى إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه، فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرية.

قال: وبلغنا أنه وجد فى السجن أرميا النبى فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه فقال بختنصر: بئس القوم قوم عصوا رسول الله وخلى سبيله وأحسن إليه واجتمع إليه من بقى من ضعفاء بنى إسرائيل فقالوا: إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا فادع الله أن يقبل توبتنا، فدعا ربه فأوحى الله إليه أنه غير فاعل، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة. فأخبرهم ما أمره الله تعالى به، فقالوا: كيف نقيم بهذه البلدة وقد خرجت وقد غضب الله على أهلها! فأبوا أن يقيموا.

قال ابن الكلبى: ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل فى البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادى القرى، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر، فكتب بختنصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه، فركب فى جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية. قال: ثم انصرف بسبى كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفى السبى دانيال.

قلت: والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر. على ما ذكره وهب بن منبه. والله أعلم.

ذكر شىء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى قال: إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثنى بعض أصحابنا عنه، عن الأجلح الكندى عن عبد الله بن أبى الهذيل، قال أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام: أن أعدد طعامًا وشرابًا لدانيال فقال

يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت. ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب فقال دانيال من هذا؟ قال: أنا أرميا. فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلنى إليك ربك. قال: وقد ذكرنى ربى؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذى يجيب من رجاه، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانًا، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبى خالد بن دينار، حدثنا أبو العالية قال: لما افتتحنا تستر وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبى العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه. قلت: فما يرجون منه، قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

وهذا إسناد صحيح إلى أبى العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة فليس بنبى بل هو رجل صالح، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبى بنص الحديث الذى فى البخارى، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال، إن كان كونه دانيال، هو المطابق لما فى نفس الأمر، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو من الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم.

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبر، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع، فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد. والله تعالى أعلم.

وقد قال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب أحكام القبور: حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، حدثنا أبو محمد القاسم ابن

عبد الله، عن أبى الأشعث الأحمرى، قال: قال رسول الله ﷺ: إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد، فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده، وقد كان رسول الله ﷺ قال: من دل على دانيال فبشروه بالجنة. فكان الذى دل عليه رجل يقال له حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر: أن ادفنه وأبعث إلىَّ حرقوص فإن النبى ﷺ بشره بالجنة. وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظًا نظر والله أعلم.

ثم قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أبو بلال، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد، وكان عالمًا، قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفًا وجرة فيها ودك(1) ودراهم وخاتمه، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر: أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به وأقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد نفَّلناكه.

وروى عن ابن أبى الدنيا من غير وجه: أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله، وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعة فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه.

وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهرًا وحفروا فى وسطه قبرًا فدفنه فيه، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى إبراهيم بن عبد الله، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه قال: رأيت فى يد ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى خاتمًا نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل، قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه. قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا: إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده، فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته. إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أجمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه. فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ، قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك. إسناد حسن.

---

(1) دهن اللحم ودسمه.

وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها

واجتماع الملأ من بنى إسرائيل بعد تفرقهم فى بقاع الأرض وشعابها

قال الله تعالى فى كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(البقرة: ٢٥٩).

قال هشام بن الكلبى: ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغنى: إنى عامر بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها. فخرج حتى قدمها وهى خراب، فقال فى نفسه: سبحان الله أمرنى أن أنزل هذه البلدة وأخبرنى أنه عامرها فمتى يعمرها ومتى يحييها الله بعد موتها!.

ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام فمكث فى نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذى فوقه وهو لهراسب، وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب، وكان موت بختنصر فى دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت فى أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد، نادى فى أرض بابل فى بنى إسرائيل: أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع، وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبنى مسجدها، فرجعوا فعمرها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر، ومكث فى نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة. ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خرابًا فلما نظر إليها عامرة آهلة قال: أعلم أن الله على كل شىء قدير.

قال: فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم، فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم فى زمن ملوك الطوائف، ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعنى بعد ظهور النصارى عليهم. وهكذا حكاه ابن جرير فى تاريخه عنه وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكًا عادلاً سائسًا لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأى جيد فى عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل، ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب، فكان فى زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلاً اسمه زردشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا عليه السلام فبرص زردشت فذهب فلحق بأرض أذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذى اخترعه من تلقاء نفسه فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقًا كثيراً ممن أباه منهم.

ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلاً قبحه الله.

والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام، قاله وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمر وغيرهما وهو قوى من حيث السياق المتقدم، وقد روى عن على وعبد الله بن سَلاَم وابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بردة وغيرهم أنه عزير. وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف والله أعلم.

وهــذه قصــة العُــزَيْر

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: هو عزير بن جروة، ويقال ابن سوريق بن عديا ابن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقى بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران. ويقال عزير بن سروخا جاء فى بعض الآثار أن قبره بدمشق. ثم ساق من طريق أبى القاسم البغوى عن داود بن عمرو، عن حبان بن على، عن محمد بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعًا: لا أدرى العزير بيع أم لا ولا أدرى أكان عزير نبيًا أم لا.

ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن، عن محمد بن إسحاق السجزى عن عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبى ذئب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه.

ثم روى من طريق إسحاق بن بشر، وهو متروك عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك عن ابن عباس أن عزيرًا كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة. قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه. قال: وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر. وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر، والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن عبد الله بن سلام، أن عزيرًا هو العبد الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن كعب وسعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن ومقاتل وجُوَيْبر، عن الضحاك، عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدى عن أبيه، عن مجاهد، عن ابن عباس وإدريس، عن جده وهب بن منبه قال إسحاق: كل هؤلاء حدثونى عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم إن عزيرًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر، ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل فى ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة ثم أخرج خبزًا يابسًا معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر إلى سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظامًا بالية فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجبًا، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله بعدُ مائة عام.

فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيها بين ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث، قال: فبعث الله إلى عزير ملكًا فخلق قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى. ثم ركب خلقه وهو ينظر، ثم كسى عظامه اللحم والشَّعر والجلد ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالسًا فقال له الملك: كم لبثت؟ قال: لبثت يومًا أو بعض يوم، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب، فقال: وبعض يوم ولم يتم لى يوم فقال له الملك: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك، يعنى الطعام الخبز اليابس، وشرابه العصير الذي كان اعتصره فى القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس، فذلك قوله ﴿ **لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ يعنى لم يتغير، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما، فكأنه أنكر فى قلبه فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك؟ انظر إلى حمارك. فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة. فنادى الملك عظام الحمار فأجابته وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر - ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعًا رأسه. وأذنيه إلى السماء ناهقًا يظن القيامة قد قامت. فذلك قوله: ﴿ **وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾؛ يعنى وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضًا فى أوصالها حتى إذا صارت عظامًا مصورًا حمارًا بلا لحم ثم انظر كيف نكسوها لحمًا ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ من إحياء الموتى وغيره.

قال: فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منزله فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أَمَةً لهم، فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة، فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم هذا منزل عزير. فبكت وقالت: ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرًا وقد نسيه الناس. قال فإنى أنا عُزير كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى. قالت سبحان الله! فإن عزيرًا قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر. قال: فإنى أنا عزير. قالت: فإن عزيرًا رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد علىَّ بصرى حتى أراك فإن كنت عزيرًا عرفتك.

قال: فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال: قومى بإذن الله. فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال، فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير.

وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فى المجلس، فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم.

فكذبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فرد عليَّ بصرى وأطلق رجلى وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه. قال: فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه: كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه. فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال، فاكتبها لنا، وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بختنصر فى موضع لم يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب.

قال: وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه. فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل، فمن ثَم قالت اليهود: عزير ابن الله للذى كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بنى إسرائيل، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل، والقرية التى مات فيها يقال لها سايراباذ.

قال ابن عباس: فكان كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ يعنى لبنى إسرائيل، وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات. قال ابن عباس: بعث بعد بختنصر وكذلك قال الحسن.

وقد أنشد أبو حاتم السجستانى فى معنى ما قاله ابن عباس:

وأسود رأسٍ شَابَ من قبله ابنُهُ	**ومن قبله ابن ابنه فهو أكبرُ**
رأى ابنَهَ شيخًا يدبّ على عصا	**ولحيته سوداء والرأس أشقرُ**
وما لابنه حيل ولا فَضْلُ قوة	**يقوم كما يمشى الصبىّ فيعثرُ**
يعدّ ابنه فى الناس تسعين حجة	**وعشرين لا يجرى ولا يتبخترُ**
وعمر أبيه أربعون أمرها	**لابن ابنه تسعون فى الناس غبّر**
فما هو فى المعقول إن كنت دارياً	**وإن كنت لا تدرى فبالجهل تُعذَر**

فصل

المشهور أن عزيراً نبى من أنبياء بنى إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل، كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكًا فنزل بمغرفة من نور فقذفها فى عزير فنسخ التوراة حرفًا بحرف حتى فرغ منها.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله** ﴾ لِمَ قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله.

ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع فى زمن العزير.

وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبى كما قاله عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى. وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان، عن عطاء، وعن عثمان بن عطاء الخرسانى عن أبيه، ومقاتل عن عطاء بن أبى رباح قال: كان فى الفترة[1] تسعة أشياء: بختنصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، قال كان أمر عزير وبختنصر فى الفترة. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إنا أولى الناس بابن مريم الأنبياء أولاد علات وليس بينى وبينه نبى**»[2].

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان فى زمن موسى بن عمران، وأنه أستأذن عليه فلم يأذن له، يعنى لما كان من سؤاله عن القدر وأنه انصرف وهو يقول: مائة موتة أهون من ذل ساعة.

وفى معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء:

قد يصبر الحرُّ على السيف ... ويأنف الصبر على الحيف
ويؤثر الموت على حالة ... يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالى وسفيان الثورى وغيرهم، من أنه سأل عن القدر فمحي اسمه من ذكر الأنبياء، فهو منكر وفى صحته نظر، وكأنه مأخوذ عن الإسرائيليات.

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد، عن جعفر بن سليمان، عن أبى عمران الجونى، عن نوف البكالى قال: قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب تخلق خلقًا تضل من تشاء وتهدى من تشاء؟ فقيل له: أعرض عن هذا. فعاد فقيل له: لتعرضن عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء إنى لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون وهذا يقتضى وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محى.

وقد روى الجماعة سوى الترمذى من حديث يونس بن يزيد، عن سعيد وأبى سلمة، عن أبى هريرة، وكذلك رواه شعيب عن أبى الزناد، عن الأعوج، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار فأوحى الله إليه فهلا نملة واحدة**»[3] فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج، عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه أنه عزير، وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنه عزير، فالله أعلم.

---

(1) بين عيسى ﷺ ومحمد ﷺ وأصل العلات من أمهاتهم مختلفات وأبوهم واحد.

(2) رواه مسلم فى صحيحه: (٤٣/٤٠/١٤٣/١٤٤).

(3) رواه مسلم فى صحيحه: (٣٩/١٤٨، ١٤٩، ١٥٠) ورواه البخارى فى صحيحه (٥٩/١٦/٣٣١٩).

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ **(مريم: ١ - ١٥).**

وقال تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ **(آل عمران: ٣٧ - ٤١).**

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ **(الأنبياء: ٨٩، ٩٠).**

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ **(الأنعام: ٨٥).**

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه المشهور الحافل: زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن إينامن بن رحيعام بن سليمان بن داود، أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل.

دخل البثنة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى. وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم. وقد قيل غير ذلك في نسبه. ويقال فيه زكريا بالمد والقصر. ويقال زكرى أيضاً.

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه

السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقراً فى حال شبيبتها وقد أسنت أيضاً حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى: ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** ﴾ قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقى ويسمع الصوت الخفى. وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرَّها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال: يا رب يا رب يا رب. فقال الله: لبيك لبيك لبيك. ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ أى ضعف وخار من الكبر ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ استعارة من اشتعال النار فى الحطب أى غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد فى مقصورته:

أمـا ترى رأسى حـاكى لونه	**طرة صـبح تحت أذيال الدجـا**
واشتعل المبيض فى مسوده	**مثل اشتعال النار فى جمر الغضا**
وآض عـودا للهـم يبسا ذاويا	**من بعد ما قد كان مجاج الثرى**

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً. وهكذا قال زكريا عليه السلام: ﴿ **إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ **(مريم: ٤)**.

وقوله: ﴿ **وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ أى ما عودتنى فيما أسألك إلا الإجابة، وكان الباعث له على هذه المسألة لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها ولا فى أوانها وهذه من كرامات الأولياء. فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن فى سنه ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾. وقوله: ﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا** ﴾ قيل المراد بالموالى العصبة، وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برا تقيا مرضياً ولهذا قال: ﴿ **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا** ﴾ أى من عندك بحولك وقوتك ﴿ **وَلِيًّا * يَرِثُنِي** ﴾ أى فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل ﴿ **وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** ﴾ يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى، وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير ها هنا وحكاه عن أبى صالح من السلف، لوجوه.

أحدها: ما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ أى فى النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث ما تركناه فهو صدقة**»[1] فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث، ولهذا منع الصديق أن

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٦٧٢٨، ٦٧٢٧/٣/٨٥) ورواه مسلم فى صحيحه (٤٩/١٦/٣٢).

يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضى الله عنهم، واحتج عليهم الصديق فى منعه إياهم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضى الله عنهم.

والثانى: أن الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**» وصححه[1].

الثالث: أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم فى الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدا يكون وارثا له فيها.

الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه فى العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له يخلفه من بعده وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، يعنى ابن هارون، أنبأنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبى رافع، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**كان زكريا نجاراً**»[2] وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن حماد بن سلمة به.

وقوله تعالى: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ **(مريم: ٧)**.

وهذا مفسر بقوله: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ **(آل عمران: ٣٩)**.

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾ أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير، قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقراً لا تلد. والله أعلم.

كما قال الخليل: ﴿**أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون**﴾ وقالت سارة: ﴿**يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾.

---

(١) سنن الترمذي (١٦١٠/٤٥٤/٢٢).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١٦٥/٤٥/٤٣).

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه: ﴿ **كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ** ﴾ أى هذا سهل يسير عليه ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ أى قدرته، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئًا مذكوراً أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيخاً؟!.

وقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت وقيل كان فى لسانها شىء، أى بذاءة.

﴿ **قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً** ﴾ أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشَّر به، ﴿ **قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا** ﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية. وأمر بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ والوحى ها هنا هو الأمر الخفى إما بكتابة، كما قال مجاهد والسدى، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة. قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة، اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد: كان يقرأ أو يسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد.

وقوله تعالى: ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير فى حال صباه.

قال عبد الله بن المبارك، قال معمر، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب فقال: ما للعب خلقنا. قال: وذلك قوله: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾.

وأما قوله: ﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «لا أدرى ما الحنان». وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك: ﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد. وعن عكرمة: ﴿ **وَحَنَانًا** ﴾ أى محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه، وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما.

وأما الزكاة فهى طهارة الخُلق وسلامته من النقائص والرذائل. والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمْرًا ونهيًا وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال: ﴿ **وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا** ﴾. ثم قال: ﴿ **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما

بين يديه، ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها!

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق في السعير! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكيًا مستصرخًا والناس حولك يضحكون سرورا

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكًا مسرورا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما يكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال: ﴿**وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لى أنت خير منى. فقال له الآخر: استغفر لى أنت خير منى فقال له عيسى: أنت خير منى سلمت على نفسي وسلم الله عليك. فعرف والله فضلهما.

وأما قوله فى الآية الأخرى: ﴿**وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ فقيل المراد بالحصور الذى لا يأتى النساء، وقيل غير ذلك، وهو أشبه لقوله: ﴿**هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد[1]، عن يوسف ابن مهران، عن ابن عباس أن رسول ﷺ قال: «**ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغى لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى**».

على بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة، وهو منكر الحديث.

وقد رواه ابن خزيمة والدارقطنى من طريق أبى عاصم العبادانى، عن على بن زيد بن جدعان به مطولاً. ثم قال ابن خزيمة: وليس على شرطنا.

وقال ابن وهب: حدثنى ابن لهيعة، عن عقيل، عن ابن شهاب، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يومًا وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل: موسى كليم الله. وقال قائل: عيسى روح الله وكلمته. وقال قائل: إبراهيم خليل الله وهم يذكرون ذلك فقال: «**أين الشهيد ابن الشهيد، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب**»! قال ابن وهب: يريد يحيى بن زكريا.

وقد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلس، عن يحيى بن سعيد الأنصارى، عن سعيد بن المسيب، حدثنى ابن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كل ابن آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا**».

---

(1) على بن زيد بن جدعان، قال حماد بن زيد: «كان يقلب الأحاديث» وذكر شعبة أنه اختلط. وقال أحمد: ليس بشىء» وقيل: «ليس بقوى يهم ويخطىء» وقال أبو حاتم: لا يحتج به وقال الدارقطنى: «لا يزال عندى فيه لين» انظر المغنى فى الضعفاء للذهبى (٢/٤٤٧/٤٢٦٥).

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ها هنا.

ثم قال عبد الرزاق: عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب مرسلاً.

ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبى أسامة، عن يحيى بن سعيد الأنصارى ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى خطيب دمشق، حدثنا محمد بن الأصبهانى، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: ما أحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا. ثم تلا ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ ثم رفع شيئًا من الأرض فقال: ما كان معه إلا مثل هذا[1]، ثم ذبح ذبحًا!. وهذا موقوف من هذا الطريق وكونه موقوفًا أصح من رفعه والله أعلم.

وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر: من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر وهو ضعيف، عن عثمان بن ساج، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن معاذ عن النبى ﷺ بنحوه. وروى من طريق أبى داود الطيالسى وغيره، عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى نعيم، عن أبيه، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابنى الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام**».

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهانى: حدثنا إسحاق بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا أحمد بن أبى الحوارى، سمعت أبا سليمان يقول: خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان، فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى: يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبداً. قال: وما هى يا ابن خالة؟ قال امرأة صدمتها. قال: والله ما شعرت بها قال سبحان الله بدنك معى فأين روحك؟ قال: معلق بالعرش ولو أن قلبى اطمأن إلى جبريل لظننت أنى ما عرفت الله طرفة عين. فيه غرابة وهو من الإسرائيليات.

وقال إسرائيل عن أبى حسين، عن خيثمة، قال: كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنى خالة وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه، أين ما جنهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى: أوصنى. قال: لا تغضب. قال: لا أستطيع إلا أن أغضب. قال: لا تقتن مالاً. قال: أما هذه فعسى.

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه: هل مات زكريا عليه السلام موتًا أو قتل قتلاً؟ على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان، عن أبيه، عن وهب بن منبه، أنه قال: هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار بينهما، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ فأوحى الله إليه: لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها. فسكن أنينه حتى قطع باثنتين. وقد روى هذا فى حديث مرفوع سنورده بعدُ إن شاء الله.

---
(١) أى لا ينتصب.

وروى إسحاق بن بشر، عن إدريس بن سنان، عن وهب أنه قال: الذى انصدعت له الشجرة هو شعيا، فأما زكريا فمات موتًا فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يعد من البدلاء، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال: إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى. قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن. وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بورق[1] أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام فإن الله مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا فى إثره فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «**وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله، فإن خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم قال: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل**»[1].

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد، عن أبان بن زيد، عن يحيى بن

(١) أى فضة.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٢/٤٠).

أبى كثير به. وكذلك رواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى وموسى ين إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، عن محمد بن شعيب بن سابور، عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام، عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى به ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطرى، عن معاوية بن سلام، عن أخيه به ثم قال: تفرد به مروان الطاطرى، عن معاوية بن سلام.

قلت: وليس كما قال. ورواه الطبرانى عن محمد بن عبدة، عن أبى توبة الربيع ابن نافع عن معاوية بن سلام، عن أبى سلام، عن الحارث الأشعرى، فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام، عن أبى سلام، عن الحارث الأشعرى فذكر نحو هذه الرواية.

ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول اللهﷺ فيما سمعوه من علماء بنى إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم.

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس، إنما كان يأنس إلى البرارى ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد فى بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى!.

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا فى تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل.

وقال ابن وهب عن مالك، عن حميد بن قيس عن مجاهد قال: كان طعام يحيى ابن زكريا العشب، وأنه كان ليبكى من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه.

وقال محمد بن يحيى الذهلى: حدثنا الليث، حدثنى عقيل، عن ابن شهاب، قال: جلست يوماً إلى أبى إدريس الخولانى وهو يقص فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس فى معايشهم.

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد: قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه، فقال يا بنى أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد احتفرته قائم تبكى فيه؟ فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين. فقال له: ابك يا بنى. فبكيا جميعاً. وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه.

وروى ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم، فكذا ينبغى للصديقين ألا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ثم قال: كم بين النعيمين وكم بينهما؟! وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه.

● **بيان سبب قتل يحيى عليه السلام:**

وذكروا فى قتله أسبابًا من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها فيقال أنها هلكت من فورها وساعتها. وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طست.

وقد ورد معناه فى حديث رواه إسحاق بن بشر فى كتابه المبتدأ حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفى، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، رأى زكريا فى السماء فسلم عليه وقال له: يا أبا يحيى خبرنى من قتلك كيف كان ولم قتلك بنو إسرائيل؟ قال: يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم وأصبحهم وجهًا، وكان كما قال الله تعالى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء فهويته امرأة ملك بنى إسرائيل، وكانت بغية، فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون فى كل عام، وكانت سنة الملك أن يعد ولا يخلف ولا يكذب.

قال: فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته، وكان بها معجبًا ولم تكن تفعله فيما مضى، فلما أن شيعته قال الملك سلينى، فما سألتنى شيئًا إلا أعطيتك. قالت: أريد دم يحيى بن زكريا. قال لها: سلينى غيره. قالت: هو ذاك. قال: هو لك. قال: فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو فى محرابه يصلى وأنا إلى جانبه أصلى، قال: فذبح فى طست وحمل رأسه ودمه إليها، قال: فقال رسول الله ﷺ. «**فما بلغ من صبرك؟ قال: ما انفتلت من صلاتى**».

قال: فلما حمل رأسه إليها ووضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: قد غضب إله زكريا لزكريا، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا. قال: فخرجوا فى طلبى ليقتلونى وجاءنى النذير، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم علىَّ فلما تخوفت ألا أعجزهم عرضت لى شجرة فنادتنى وقالت إلىَّ إلىَّ وانصدعت لى ودخلت فيها.

قال: وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائى والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائى خارجًا من الشجرة، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة، هذا طرف ردائه دخلها بسحره. فقالوا: نحرق هذه الشجرة. فقال إبليس: شقوه بالمنشار شقًّا. قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار.

قال له النبى ﷺ: «**هل وجدت له مسًا أو وجعًا؟**» قال: لا إنما وجدت ذلك الشجرة التى جعل الله روحى فيها.

هذا سياق غريب جدًّا وحديث عجيب ورفعه منكر، وفيه ما ينكر على كل حال، ولم ير فى شىء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلا فى هذا الحديث وإنما المحفوظ فى بعض ألفاظ الصحيح فى حديث الإسراء: فمررت بابنى الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة فجاء على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث. فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران. وقيل بل أشياع وهى امرأة زكريا. أم يحيى أخت حنة امرأة عمران أم مريم، فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم.

ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره على قولين: فقال الثورى عن الأعمش عن شملة بن عطية قال: قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبيًّا منهم يحيى بن زكريا عليه السلام.

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام: حدثنا عبد الله بن صلاح، عن الليث، يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفًا فسكن. وهذا إسناده صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصرى. فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم، عن زيد بن واقد، قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق، فكانت البشرة والشعر على حالهما لم يتغير، وفى رواية: كأنما قتل الساعة. وذكر فى بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة. فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى المستقصى فى فضائل الأقصى، من طريق العباس بن صبح، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز، عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة يعنى دمشق هداد بن هدار، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا. ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك بإشارة أمها. فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلى بمسجد جبرون من أتاه برأسه فى صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تحل حتى تنكح زوجًا غيره - فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها،

وجعلت أمها تولول والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها، ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا فى الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً.

قال سعيد بن عبد العزيز: وهى دم كل نبى. ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله، فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبى منهم ثم رجع عنهم.

قصة عيسى ابن مريم

عبد الله ورسوله وابن أمته عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى فى سورة آل عمران التى أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها فى الرد على النصارى عليهم لعائن الله، الذين زعموا أن لله ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث فى الأقانيم ويدَّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم، على اختلاف فرقهم، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة وبيَّن فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره فى الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له كن فكان سبحانه وتعالى. وبيَّن أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك فى سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته.

فقال تعالى وهو أصدق القائلين: **﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران: ٣٣ - ٣٧).**

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخُلَّص من ذريته المتبعين شرعة الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: **﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾** فدخل فيهم بنو إسماعيل ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام.

وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا ابن إيان بن رحبعام بن داود.

وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنز ابن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أبيود بن زربابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون ابن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام. وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق.

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع فى قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع فالله أعلم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يومًا طائراً يزق (يطعم) فرخًا له فاشتهت الولد فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أى حبيساً فى بيت المقدس.

قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** ﴾ وقرئ بضم التاء ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ أى فى خدمة بيت المقدس، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خادمًا من أولادهم.

وقولها: ﴿ **وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ** ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس فى ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله. وجاء فى حديث الحسن عن سمرة مرفوعًا « كل غلام رهينة تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه ». ورواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى. وجاء فى بعض ألفاظه: « ويدمى » بدل ويسمى وصححه بعضهم والله أعلم.

وقولها: ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ قد استجيب لها فى هذا كما تقبل منها نذرها، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: « **ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مسة الشيطان إلا مريم وابنها** » ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ **(آل عمران: ٣٦)**.

أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية، عن عبد الله بن الزبيدى، عن الزهرى عن أبى سلمة، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه.

وقال أحمد أيضًا: حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا ابن أبى ذؤيب، عن عجلان مولى المشمعل، عن أبي هريرة عن النبى ﷺ قال: « **كل مولود من بنى آدم يمسه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى عليهما السلام** »[1].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (٤٣/٤٠/١٤٧) ورواه أحمد فى مسنده (٢/٢٨٨، ٢٩٢).

تفرد به من هذا الوجه. ورواه مسلم عن أبى الطاهر، عن ابن وهب، عن عمر ابن الحارث، عن أبى يونس، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا حفص بن ميسرة، عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان فى حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها، ألم تر إلى الصبى حين يسقط كيف يصرخ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه**»[1].

وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه، ورواه قيس عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وكذا رواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ. بأصل الحديث.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك، حدثنا المغيرة هو ابن عبد الرحمن الحزامى عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «**كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب**»[2].

وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العُبَّاد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغرها.

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها على القولين. فشاحوه فى ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أى بسبب غلبه لهم فى القرعة كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفًا به. ثم حملوها ووضعوها فى موضع وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظفر قلم زكريا عليه السلام. فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٢/٣٦٨). (٢) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٢/٥٢٣).

فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدا فهو الغالب ففعلوا فكان ذكريا هو الغالب فكفلها إذ كان أحق بها شرعًا وقدرا لوجوه عديدة.

قال الله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ **(آل عمران: ٣٧).**

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى إسرائيل واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى إنه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا فى غير أوانه. فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها: ﴿ **أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا** ﴾ فتقول: ﴿ **هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ أى رزق رزقنيه الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾.

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر ﴿ **قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾. قال بعضهم: قال يا من يرزق مريم الثمر فى غير أوانه هب لى ولداً وإن كان فى غير أوانه. فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره فى قصته.

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ **(آل عمران: ٤٢ - ٥١).**

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبيًا شريفًا ﴿ **يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ** ﴾ أى فى صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك فى

حال كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها، وأُمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة. فيقال إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: ﴿ **يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ** ﴾ أى اختارك واجتباك ﴿ **وَطَهَّرَكِ** ﴾ أى من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ **وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾. يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى ﴿ **إنى اصطفيتك على الناس** ﴾ وكقوله عن بنى إسرائيل ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بنى إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ **وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجًا بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى، كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله: ﴿ **وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ إذ لم يعارضه غيره. والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره من أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس فى النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ﴾ فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها. والله أعلم. وقد جاء ذكرها مقرونًا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ رضى الله عنهن وأرضاهن.

وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»(1).

وقال الأمام أحمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حسبك من نساء العالمين بأربع، مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**»(2).

ورواه الترمذى عن أبى زنجويه عن عبد الرزاق به وصححه ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى وابن عساكر من طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبى جعفر الرازى، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله**».

---

(1) رواه الطبرى فى تفسيره (٧٠٠٦) والبخاري (٣٤٣٢). (2) الحديث رواه الحاكم فى المستدرك (٣/١٩٧/١٩٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن ابن المسيب، قال: كان أبو هريرة يحدث عن النبى ﷺ قال: «**خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد فى صغره وأرعاه لزوج فى ذات يده**» وقال أبو هريرة: ولم تركب مريم بعيرًا قط[1]. وقد رواه مسلم فى صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد. كلاهما عن عبد الرزاق به.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى موسى بن على، سمعت أبى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد فى صغره وأرأفه بزوج على قلة ذات يده**» قال أبو هريرة: وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل. تفرد به وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أخرى عن أبى هريرة.

وقال أبو يعلى الموصلى: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبى الفرات، عن علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط فقال: «**أتدرون ما هذا**» قالوا؟ الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**» ورواه النسائى من طرق عن داود بن أبى هند.

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبى بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن حاتم العسكرى، أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان، حدثنا محمد بن دينار، عن داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين: «فاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران**».

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد الله الواسطى، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن عائشة، أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت؟ قالت: أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أكببت عليه فأخبرنى أنى أسرع أهله لحوقًا به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت.

وأصل هذا الحديث فى الصحيح. وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن يزيد هو ابن أبى زياد، عن عبد الرحمن بن أبى نعم، عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده (٧٦٣٧) ورواه مسلم (٢/٢٧٠).

«**فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران**»[1]. إسناد حسن وصححه الترمذى ولم يخرجوه، وقد روى نحوه من حديث على بن أبى طالب ولكن فى إسناده ضعف.

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع. ثم يحتمل استثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء فى الفضيلة.

ولكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا أبو طاهر المخلص، حدثنا أحمد بن سليمان، حدثنا الزبير هو بن بكار، حدثنا محمد بن الحسن، عن عبد العزيز ابن محمد، عن موسى بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون**».

فإن كان هذا اللفظ محفوظًا بثم التى للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التى وردت بواو العطف التى لا تقتضى الترتيب ولا تنفيه. والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازى عن داود الجعفرى، عن عبد العزيز بن محمد وهو الدراوردى، عن إبراهيم بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس مرفوعًا. فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية، فخالفه إسنادًا ومتنًا. فالله أعلم.

فأما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة، عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق، عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى، عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء فى مريم وآسية، ولعل المراد بذلك فى زمانهما فإن كلا منهما كفلت نبيًا فى حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفى كمال غيرهما فى هذه الأمة كخديجة وفاطمة.

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها، رضى الله عنها وأرضاها.

---

(١) الحديث: رواه أحمد فى مسنده (٣/٦٤، ٨٠) والترمذي (٣٨٧٣).

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : «**وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات والله أعلم.

والمقصود ها هنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام، فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا. وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم. وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله: ﴿ **ثيبات وأبكاراً** ﴾ . قال: فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم. فالله أعلم.

قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثنا أبي، أنبأنا عمي الحسين، حدثنا يونس بن نفيع، عن سعيد بن جنادة، هو العوفي، قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى**»[1].

رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد فقلت: هنيئاً لك يا رسول الله. ثم قال العقيلي: وليس بمحفوظ[2].

وقال الزبير بن بكار: حدثني محمد بن الحسن، عن يعلى بن المغيرة عن أبي داود، قال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: «**بالكره مني ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله في الكره خيرا كثيراً، أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون**»؟ قالت: وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله؟ قال: «**نعم**». قالت: بالرفاء والبنين.

وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت فقال: يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فاقرئيهن مني

(١) الحديث رواه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/٨١٢).
(٢) انظر له: الضعفاء الكبير.

السلام قالت: يا رسول الله وهل تزوجت قبلي؟ قال: لا ولكن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى.

وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد، حدثنا محمد بن صالح بن عمر، عن الضحاك ومجاهد، عن ابن عمر، قال: نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة. فقال جبريل: من هذه يا محمد؟ قال هذه صديقة أمتي. قال: جبريل معي إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد عن اللهب لا نصب فيه ولا صخب. قالت: الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله، ما ذلك البيت الذي من قصب؟ قال: لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم، وهما من أزواجي يوم القيامة.

وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصحيح، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً. وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر.

وروى ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي، حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية، عن صفوان بن عمرو، عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة يعني صخرة بيت المقدس فقال: الصخرة على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنة، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة.

ثم رواه من طريق إسماعيل، عن عياش، عن ثعلبة بن مسلم، عن مسعود، عن عبد الرحمن، عن خالد بن معدان، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بمثله. وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع.

وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح، عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن، عن ابن عابد، أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره.

قال الحافظ ابن عساكر: وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه.

قلت: وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم، وهذا منه والله أعلم.

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا**

وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (مريم: ١٦ - ٣٧).

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التى هى كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر فى سورة آل عمران: قرن بينهما فى سياق واحد وكما قال في سورة الأنبياء: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام، وأنه اتخذ لها محرابًا وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكيًّا يكون نبيًّا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيداً بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، ولا هى ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت الأمر لله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هى يومًا قد خرجت لبعض شؤونها ﴿ فَانتَبَذَتْ ﴾ أى انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فلما رأته ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾. قال أبو العالية: علمت أن التقى ذو نهية. وكذا يرد قوله من زعم أنه كان فى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه «تقى» فإن هذا قول باطل بلا دليل، وهو من أسخف الأقوال.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى خاطبها الملك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ أى ولداً زكياً.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾ أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أى وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى وهذا سهل عليه ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى وقوله ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله فى صغره وكبره فى طفولته وكهولته. بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها، يعنى أن هذا أمر قضاه الله وحتمه وقدره وقرره، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير ولم يحك سواه والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾.

فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها. ومن قال إنه نفخ فى فمها أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها، فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن، فإن هذا السياق يدل على أن الذى أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام، وإنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه، كما قال تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ فدل على أن النفخة ولجت فيه لا فى فمها، كما رواه السدى بإسناده عن بعض الصحابة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى فحملت ولدها ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ولذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعًا، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عُبَّادِ بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج،

فعرض لها ذات يوم فى الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول. ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. قال لها: فأخبريني خبرك فقالت: إن الله بشرني ﴿ **بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾.

ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم.

وذكر السدى بإسناده عن الصحابة: أن مريم دخلت يوماً على أختها فقالت لها أختها: أشعرت أنى حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضاً أنى حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك وذلك قوله ﴿ **مصدقا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ ومعنى السجود ها هنا الخضوع والتعليم، كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان فى شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

وقال أبو القاسم، قال مالك: بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص. رواه بن أبى حاتم.

وروى عن مجاهد قال: قالت مريم كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى وإذا كنت بين الناس سبح فى بطنى. ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر.

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته، قال بعضهم: حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾.

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله: ﴿ **فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ وكقوله تعالى:

﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ **(المؤمنون: ١٤).**

ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوم كما ثبت فى الحديث المتفق عليه[1].

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر فى بنى إسرائيل أنها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا.

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد، وتوارت

(١) أيضا نقول تزوج حسن فوُلد له أى بعد تسعة أشهر.

عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانًا قصيًّا. وقوله: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة، وهو بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعًا والبيهقى بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعًا أيضًا ببيت لحم الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل.

﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن، وذلك أنه علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات فى المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوات والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم. ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذه الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى لم تخلق بالكلية.

وقوله: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ وقرئ من تحتها على الخفض[1]، وفى المضمر قولان: أحدهما أنه جبريل. قاله العوفى عن ابن عباس قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم. وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدى وقتادة وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير فى رواية: هو ابنها عيسى. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾. قيل النهر وإليه ذهب الجمهور. وجاء فيه حديث رواه الطبرانى لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن الحسن والربيع ابن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها. والصحيح الأول لقوله: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾.

ثم قيل: كان جذع النخلة يابسًا وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، ولكنها مثمرة إذ ذاك، لأن ميلاده كان فى زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.

قال عمرو بن ميمون: ليس شىء أجود للنفساء من الثمر والرطب ثم تلا هذه الآية. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا شيبان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى عن عروة بن رويم عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم وليس من الشجر شىء يلقح غيرها**»[2]. وقال رسول الله ﷺ: «**أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران**».

وكذا رواه أبو يعلي فى مسنده عن شيبان بن فروخ، عن مسروق بن سعيد. وفى

---

(١) هذه قراءتنا أما القراءة الأخرى (مَنْ تحتَها).

(٢) رواه الشوكانى فى الفوائد المجموعة (٤٨٩) وقال حديث ضعيف وغيرها يلقح بوسائط أخرى.

رواية مسرور بن سعد. والصحيح مسرور بن سعيد التميمي، أورد له ابن عدى هذا الحديث عن الأوزاعى به ثم قال: وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا فى هذا الحديث.

وقال ابن حبان: يروى عن الأوزاعى المناكير الكثيرة التى لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وهذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى فإن رأيت أحدا من الناس ﴿فَقُولِي﴾ له أى بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أى صمتا، وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام. قاله قتادة والسدى وابن أسلم. ويدل على ذلك قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (مريم: ٢٧، ٢٨).

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا فى طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أى أمرا عظيما منكرا. وفى هذا الذى قالوه نظر، مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهى تحمله. قال ابن عباس: وذلك بعد ما تعالت من نفاسها بعد أربعين يوما.

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ والفرية هى الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة، وكان اسمه هارون. قاله سعيد بن جبير. وقيل أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به فى العبادة. وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهارون نسبا، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع، وكأنه غره أن فى التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هى هذه.

وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه فى التفسير مطولاً ولله الحمد والمنة.

وقد ورد فى الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون وليس فى ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها. والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبى يذكره، عن سماك، عن

علقمة بن وائل، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال فرجت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء الصالحين قبلهم**».

وكذا رواه مسلم والنسائى والترمذى من حديث عبد الله بن إدريس، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه وفى رواية: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم».

وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفاً فالله أعلم.

والمقصود أنهم قالوا: «يا أخت هارون» ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبى اسمه هارون وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير، ولهذا قالوا: ﴿ **مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾ أى لست من بيت هذه شيمتهم ولا سجيتهم ولا أخوك ولا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء.

فذكر ابن جرير فى تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمناه. ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار.

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذى الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ** ﴾ أى خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿ **قَالُوا** ﴾ من كان منهم جباراً شقيًّا: ﴿ **كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴾ أى كيف تحيليننا فى الجواب على صبى صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع فى مهده ولا يميز بين محض وزبدة، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولاً نطقيًّا، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبياً.

فعندها ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾.

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به. أن ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه بما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ **آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾ فإن الله لا يعطى النبوة من هو كما زعموا لعنهم وقبحهم، كما قال تعالى: ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً** ﴾ وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبيًّا مرسلاً

أحد أولى العزم الخمسة الكبار ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهى تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات.

ثم قال ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى وجعلنى برًّا بوالدتى وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها. ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته.

﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾. وهذه المواطن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام.

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾، كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره فى آل عمران.

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٨ - ٦٣)؛

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكبًا يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون فى أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران فى ذلك، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله. وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيًا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم

فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أميناً، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بيّنا ذلك فى تفسير آل عمران وقد بسطنا هذه القصة فى السيرة النبوية[1].

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله. ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى لا يعجزه شيء ولا يكربه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه.

فمن قائل من اليهود: إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم.

وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومن خالفهم فى شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا الوليد، حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانئ، حدثنى جنادة بن أبى أمية، عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»[2].

قال الوليد: «فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عمير، عن جنادة، وزاد: «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء». وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد، عن الوليد، عن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعى به.

باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد -تعالى- عما يقول الظالمون علواً كبيراً

قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي

(١) أى السيرة النبوية وهى جزء من كتاب البداية والنهاية انظرها من تحقيقنا.

(٢) صحيح البخاري (٣٤٣٥).

للرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾(مريم: ٨٨ - ٩٥).

فبين أنه تعالى لا ينبغى له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكه، وكل شيء فقير إليه، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده، هو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(الأنعام: ١٠٠ - ١٠٣).

فبيَّن أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد؟، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه ولا عديل له، فلا صاحبة له، فلا يكون له ولد كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

يقرر أنه الأحد الذى لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمته ورحمته و جميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أى لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أى ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أى وليس له عدل ولا مكافيء. ولا مساو فقطع النظير المدانى والأعلى والمساوى، فانتفى أن يكون له ولد، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً * لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ (النساء: ١٧١- ١٧٣).

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء فى الدين وهو مجاوزة الحد، فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد.

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التى أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام. والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال: بيت الله وناقة الله وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً. وسمى عيسى بها لأنه

كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضًا التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٦، ١١٧).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله، كل من الفريقين ادّعى على الله شططًا وزعم أن له ولدًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم.

وذلك أن (بعض) الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك، ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة، باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة. ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر.

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا - لجهلهم - أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منها الملائكة. تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ١٩).

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات: ١٤٩- ١٦٠).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٦ - ٢٩).

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ١- ٥).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: ٦٨ - ٧٠).

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولداً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

ولما كانت النصارى عليهم لعنه الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا فى القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم، وقد تنوعت أقوالهم وكفرهم، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض.

وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾. فدل على أن الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب. فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى. وطائفة قالوا هو ابن الله، عز الله، وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة. جل الله.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ١٧).

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبيّن أنه الخالق القادر على كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه. وقال فى أواخرها.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة: ٧٣ - ٧٥).

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم، وقد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور فى الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزى في الدار والآخرة والهوان والعار، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ قال ابن جرير وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، على اختلافهم فى ذلك ما بين الملبكية واليعقوبية والنسطورية، عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم فى ذلك ومجامعهم الثلاثة فى زمن قسطنطين بن قسطس، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وما من إله إلا الله وحده لا

شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد، ثم توعدهم وتهددهم فقال: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التى توجب النار فقال: ﴿ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم بيَّن حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة، أى ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا. وقوله: ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما، أى ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهًا! تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوًّا كبيرًا.

وقال السدى وغيره: المراد بقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ زعمهم فى عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله، يعنى كما بين تعالى كفرهم فى ذلك بقوله فى آخر هذه السور الكريمة.

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٦- ١١٨).

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله، أو أنه الله أو أنه شريكه، تعالى الله عما يقولون، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أى ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ وهذا تأدب عظيم فى الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ أى ما قلت غير ما أمرتنى عليه حين أرسلتنى إليهم وأنزلت عليَّ الكتاب الذى كان يتلى عليهم. ثم فسر ما قاله لهم بقوله: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أى خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أى رفعتنى إليك حين أرادوا قتلى وصلبى فرحمتنى وخلصتنى منهم وألقيت شبهى على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبرى من أهل النصرانية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أى وهم يستحقون ذلك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضى وقوع ذلك، ولهذا قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم[1].

وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال: إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئًا. وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٦ - ٢٠).

وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (الزمر: ٤، ٥).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الزخرف: ٨١، ٨٢).

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: ١١١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «**شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، يزعم أن لى ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد**»[2].

وفى الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم**»[3].

ولكن ثبت فى الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٢). وهكذا قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (الحج: ٤٨). وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (لقمان: ٢٤).

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (٢١٥/٨) فتح البارى ورواه أحمد فى المسند (٢٠٩٦، ١٩٥٠، ٢٠٢٧).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه (٣١٩٣/١/٥٩) فتح البارى ولفظه «قال الله تعالى: يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له. أما شتمه فقوله: إن لي ولدًا. وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدنى كما بدأنى» انظر من تأليفنا كتاب مفاتيح الفارى.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٣/١٥/٤٥).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (يونس: ٦٩، ٧٠).

وقال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (الطارق: ١٧).

ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام

ومرباه فى صغره وصباه وبيان بدء الوحى إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريبًا من بيت المقدس. وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هى ويوسف بن يعقوب النجار وهى راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء. وهذا لا يصح، والحديث الذى تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم، كما ذكرناه، ومهما عارضه فباطل.

وذكر وهب بن منبه أنه لما خرت الأصنام يومئذ فى مشارق الأرض ومغاربها، وأن الشياطين حارت فى سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجدوه فى حجر أمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم فى السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم فى الأرض، فبعث رسله ومعهم ذهب ومرمر ولبان هدية إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك. فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات فى حال صغره، فذكر منها أن الدهقان الذى نزلوا عنده افتقد مالاً من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها، وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه. فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانهض به. فقال: إنى لا أستطيع ذلك. فقال: بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى فى عين الناس وهو صغير جداً.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابًا يعنى خمرًا، كما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان لم يجد فى جرره شيئًا فشق ذلك عليه، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرابًا من خيار الشراب، فتعجب الناس من ذلك جدا. وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس. والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره، عن موسى بن وردان، عن أبى نضره، عن أبى سعيد، وعن مكحول عن أبى هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل، فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره فى تمجيده فقال: اللهم أنت القريب فى علوك، المتعالى فى دنوك، الرفيع على كل شيء من خلقك، أنت الذى خلقت سبعاً فى الهواء بكلماتك مستويات طباقًا أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران، فتباركت اللهم فى مفطور سماواتك، وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر، فأذللتها إذلال التظاهر، فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها وجلمودها.

فتباركت اللهم! فمن يبلغ بنعته نعتك أم من يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضى الحق وأنت خير الفاصلين، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس، لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس، نشهد أنك لست بإله استحدثناك، ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد.

وقال إسحاق بن بشر. عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ الغلمان. ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفى أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا** ﴾.

قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه فى الكتاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه، فعلمه أبا جاد فقال عيسى: ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدرى فقال عيسى: كيف تعلمنى ما لا تدرى. فقال المعلم: إذاً فعلمنى، فقال له عيسى: فقم من مجلسك. فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلنى، فقال المعلم: فما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء الله. والباء بهاء الله والجيم بهجة الله وجماله. فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد.

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل عنه ولا يتمادى!.

وهكذا روى ابن عدى من حديث إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبى مُلَيْكَةَ، عن ابن مسعود، عن مسعر بن كدام عن عطية، عن أبى سعيد، رفع الحديث فى دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم حروف أبى جاد وهو مطول لا يفرح به.

ثم قال ابن عدى: وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسماعيل.

وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال كان عبد الله بن عمر يقول: كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول نعم، فيقول: خبأت لك كذا وكذا فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطعمينى ما خبأت لى. فتقول: وأى شىء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا. فتقول له: من أخبرك؟ فيقول عيسى ابن مريم. فقالوا: والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم. فجمعوهم فى بيت وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم فى بيت فسأل عنهم فقيل له: إنما هؤلاء قردة وخنازير. فقال: اللهم كذلك. فكانوا كذلك. رواه ابن عساكر.

وقال إسحاق بن بشر، عن جويبر، ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: وكان عيسى يرى العجائب فى صباه إلهاماً من الله، ففشا ذلك فى اليهود وترعرع عيسى، فهمت به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾.

وقد اختلف السلف والمفسرون فى المراد بهذه الربوة التى ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهى أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذى علاه مستو يقر عليه وارتفاع متسع، ومع علوه فيه عيون الماء المعين، وهو الجارى السارح على وجه الأرض فقيل المراد الذى ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس، ولهذا ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وهو النهر الصغير فى قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق. وقيل ذلك بمصر كما زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم والله أعلم. وقيل هى الرملة[1].

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه، قال: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب، مما يدخرون فى بيوتهم وتحدث الناس بمقدمه وفزعوا لما كان يأتى من العجائب، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره.

---

(١) أى بفلسطين.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

وقال أبو زرعة الدمشقى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية بن صالح، عمن حدثه قال: أنزلت التوراة على موسى فى ست ليال خلون من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود فى اثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم فى ثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ فى أربع وعشرين من شهر رمضان.

وقد ذكرنا فى التفسير عند قوله: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾ الأحاديث الواردة فى ذلك، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام فى ثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير فى تاريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

وقال إسحاق بن بشر، وأنبأنا سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، ومقاتل عن قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم، عن أبى هريرة قال: أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: يا عيسى جد فى أمرى ولا تهن واسمع وأطع يا بن الطاهرة البكر البتول، إنك من غير فحل، وأنا خلقتك آية للعالمين، إياى فاعبد وعلىّ فتوكل، خذ الكتاب بقوة فسر لأهل السريانية بلغ من بين يديك أنى أنا الحق الحى القائم الذى لا أزول، صدقوا النبى الأمى العربى صاحب الجمل والتاج - وهى العمامة - والمدرعة والنعلين والهراوة - وهى القضيب - الأنجل العينين الصلت الجبين الواضح الخدين، الجعد الرأس، الكث اللحية، المقرون الحاجبين، الأقنى الأنف، المفلج الثنايا، البادى العنفقة، الذى كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجرى فى تراقيه، له شعرات من لبته إلى سرته تجرى كالقضيب، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره، شئن الكف والقدم، إذا التفت التفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب، عرقه فى وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه، ولم ير قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة الطيب الريح، نكاح النساء ذا النسل القليل إنما نسله من مباركة[1]، لها بيت يعنى فى الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب، تكفله يا عيسى فى آخر الزمان كما كفل زكريا أمك، له منها فرخان مستشهدان وله عندى منزلة ليست لأحد من البشر، كلامه القرآن ودينه الإسلام، وأنا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه، وسمع كلامه.

قال عيسى، يا رب وما طوبى؟ قال: غرس شجرة أنا غرستها بيدى، فهى للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

---

(١) خديجة رضى الله عنها.

قال عيسى: يا رب اسقني منها. قال: حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي.

قال: يا عيسى، أرفعك إليَّ قال: رب ولم ترفعني؟ قال: أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال، أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم.

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، أن عيسى قال: يا رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة. قال: أمة أحمد، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله. يا عيسى هم أكثر سكان الجنة لأنه لم تذل ألسن قوم بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم.

رواه ابن عساكر. وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي، عن عبد الله ابن عوسجة قال: أوحى الله إلى عيسى ابن مريم: أنزلني من نفسك كهمك، واجعلني ذخراً لك في معادك، وتقرب إليَّ بالنوافل أحبك ولا تول غيري فأخذلك، اصبر على البلاء وارض بالقضاء، وكن لمسرتي فيك، فإن مسرتي أن أُطاع فلا أعصى، وكن مني قريباً وأحي ذكري بلسانك، ولتكن مودتي في صدرك، تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة، وكن لي راغباً راهباً وأمت قلبك في الخشية لي وراع الليل لحق مسرتي واظم نهارك ليوم الري عندي، نافس في الخيرات جهدك، واعترف بالخير حيث توجهت، وقم في الخلائق بنصيحتي، واحكم في عبادي بعدلي؟ فقد نزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ولا تكن حلساً كأنك مقبوض وأنت حي تنفس.

يا عيسى ابن مريم ما أمنت بي خليقة إلا خشعت لي إلا رجت ثوابي فأشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنتي. يا عيسى ابن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلى الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه، وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذار ما هو آت من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال، قبل ألا ينفع أهل ولا مال، واكحل عينك بملول الحزن إذا ضحك البطالون، وكن في ذلك صابراً محتسباً، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين اخرج من الدنيا بالله يوم يبعثون وذق مذاقة ما قد حرب منك أين طعمه؟ وما لم يأتك كيف لذته، فرح من الدنيا بالبلغة، وليكفك منها الخشن الجشب، وقد رأيت إلى ما يصير، اعمل على حساب فإنك مسؤول، لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك.

وقال أبو داود في كتاب القدر: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك؟ قال إبليس: فأوف بذروة هذا

الجبل فتردى منه فانظر هل تعيش أم لا. فقال ابن طاووس: عن أبيه: فقال عيسى: أما علمت أن الله تعالى قال: لا يجربنى عبدى فإنى أفعل ما شئت وقال الزهرى: إن العبد لا يبتلى ربه ولكن الله يبتلى عبده.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبدة، أنبأنا سفيان، عن عمرو، عن طاووس قال: أتى الشيطان عيسى ابن مريم، فقال: أليس تزعم أنك صادق؟ فأت هوة فألق نفسك. قال: ويلك أليس قال: يا ابن آدم لا تسألنى هلاك نفسك فإنى أفعل ما أشاء!

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا حسين بن طلحة، سمعت خالد بن يزيد، قال تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين، أقام يومًا على شفير جبل فقال الشيطان: أرأيت إن ألقيت نفسى هل يصيبنى إلا ما كتب لى. قال: إنى لست بالذى أبتلى ربى (اختبره)، ولكن ربى إذا شاء ابتلانى. وعرفه أنه الشيطان ففارقه.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا شريح بن يونس، حدثنا على بن ثابت، عن الخطاب ابن القاسم، عن أبى عثمان، كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبل، فأتاه إبليس فقال: أنت الذى تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم. قال: ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر عليَّ. فقال: يا لعين! الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا الفضل بن موسى البصرى، حدثنا إبراهيم بن بشار سمعت سفيان بن عيينة يقول: لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس: يا عيسى ابن مريم الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهد صبيًّا ولم يتكلم فيه أحد قبلك. قال: بل الربوبية للإله الذى أنطقنى ثم يميتنى ثم يحيينى. قال: فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيى الموتى. قال: بل الربوبية لله الذى يحيى ويميت من أحييت ثم يحييه. قال: والله إنك لإله فى السماء وإله فى الأرض. قال: فصكه جبريل صكة بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس. ثم صكه أخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحامية، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه وفى رواية فأسلكه فيها، حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول: ما لقى أحد من أحد ما لقيت منك يا ابن مريم.

وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب: أخبرنى أبو الحسين بن رزقويه، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سيدي، حدثنا أبو محمد الحسن ابن على القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، أنبأنا على بن عاصم، حدثنى أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه، قال: صلى عيسى ببيت المقدس وانصرف، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له: إنه لا ينبغى لك أن تكون عبداً. فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه، فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول: لا ينبغى لك يا عيسى أن تكون عبداً، قال:

فاستغاث عيسى بربه، فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف، فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه فى بطن الوادى. قال: فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك. فقال لعيسى: قد أخبرتك أنه لا ينبغى أن تكون عبداً إن غضبك ليس بغضب عبد، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ولكن أدعوك لأمر هو لك، مر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك أما إنى لا أقول أن تكون إلهًا ليس معه إله ولكن الله يكون إلها في السماء وتكون أنت إلها فى الأرض. فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوى ومر عيسى وهو بمكانه فقال: يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعبًا شديداً فرمى به فى عين الشمس، فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال: فغطوه فجعل كلما خرج غطوه فى تلك الحمأة قال: والله ما عاد إليه بعد.

قال وحدثنا إسماعيل العطار، حدثنا أبو حذيفة قال: واجتمع إليه شياطينه فقالوا: سيدنا لقد لقيت تعبًا قال: إن هذا عبد معصوم ليس لى عليه من سبيل، وسأضل به بشراً كثيراً وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعًا ويجعلونه وأمه إلهين من دون الله. قال: وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآنا ناطقًا بذكر نعمته على عيسى فقال: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعنى إذ قويتك بروح القدس يعنى جبريل ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ الآية كلها وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعوانًا ترضى بهم وصحابة وأعوانًا يرضون بك هاديًا وقائداً إلى الجنة، فذلك فعلى خلقان عظيمان من لقينى بهما فقد لقينى بأزكى الخلائق وأرضاها عندى.

وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاؤنا. فقل لهم: ولم ذلك وما الذى يمنعنى؟ إن ذات يدىّ، قلت؟ أو ليس خزائن السموات والأرض بيدى أنفق منها كيف أشاء. وإن البخل لا يعترينى، أو لست أجود من سُئل وأوسع من أعطى. أو أن رحمتى ضاقت؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتى.

ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم غروا أنفسهم بالحكمة التى تورث فى قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثرة على الآخرة لعرفوا من أين أُتوا، وإذًا لأيقنوا أن أنفسهم هى أعدى الأعداء لهم، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربوننى ويستحلون محارمى وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها.، يا عيسى إنما أجزى عليها أهلها، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء؟ ازددت عليهم غضباً.

يا عيسى وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدنى وقال فيكما بقولى أن أجعلهم جيرانك فى الدار ورفقاءك فى المنازل وشركاءك فى اا كرامة، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أن من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار.

وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنى مثبت هذا الأمر على يدى عبدى محمد وأختم به الأنبياء والرسل، ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يتزين بالفحش ولا قوال بالخنا، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم، وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته، اسمه أحمد أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأغنى به بعد العائلة، وأرفع به بعد الضعة، أهدى به وأفتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصًا لاسمى وتصديقًا لما جاءت به الرسل، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل فى مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لى قيامًا وقعودًا، وركعًا وسجودًا، ويقاتلون فى سبيلى صفوفًا وزحوفًا، قرباتهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم وقربانهم فى بطونهم، رهبان بالليل ليوث فى النهار، ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورة المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة.

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسى، دخل حديث بعضهم فى بعض، قالوا: لما بعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى منزله؟ فيخبرهم، فيزداد المؤمنون إيمانًا والكافرون والمنافقون شكًا وكفرانًا.

وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه، إنما يسيح فى الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى فقال لها: ما لك، ايتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنة لى لم يكن لى ولد غيرها وإنى عاهدت ربى ألا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لى فأنظر إليها. فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم. قالوا: فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يا فلانة قومى بإذن الله الرحمن فاخرجى. قال: فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من

التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عنى؟ فقالت: لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكًا فركب خلقى ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلى روحى، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى من مخافة القيامة، ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين يا أماه اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا، يا روح الله وكلمته سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهون علىَّ كرب الموت. فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض. فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضبًا.

وقدمنا فى عقب قصة نوح أن بنى إسرائيل سألوه أن يحيى لهم سام بن نوح فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد ترابًا.

وقد روى السدى عن أبى صالح وأبى مالك، عن ابن عباس فى خبر ذكره وفيه أن ملكًا من ملوك بنى إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل، فرأى الناس أمرًا هائلاً ومنظرًا عجيبًا.

وقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة: ١١٠، ١١١).

يذكره الله بنعمته عليه وإحسانه إليه فى خلقه إياه من غير أب، بل من أم بلا ذكر، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ فى اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه فى حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أى تدعو الناس إلى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك، ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى الخط والفهم، نص عليه بعض السلف ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ أى تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير على أمر الله له بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أى بأمرى يؤكد تعالى بذكر الإذن له فى ذلك لرفع التوهم.

وقوله: ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ ﴾ قال بعض السلف وهو الذى يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ وَالأَبْرَصَ ﴾ هو الذى لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى من قورهم أحياء بإذنى. وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مرارًا متعددة بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا

إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابة الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى.

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ قيل المراد بهذا الوحي إلهام أى أرشدهم الله إليه ودلهم عليه.

كما قال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ **(النحل: ٦٨).**

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ **(القصص: ٧).**

وقيل المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين: ﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصارًا وأعوانًا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ **(الأنفال: ٦٢، ٦٣).**

وقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ **(آل عمران: ٤٨، ٥٤).**

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقًا له، أسلموا سراعًا ولم يتعلثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم بُعث فى زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قام به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد،

فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فهم لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا أنه كلام الخالق عز وجل، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون.

وقال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ **(الصف: ٦، ٨).**

إلى أن قال بعد ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ **(الصف: ١٤).**

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ **(الأعراف: ١٥٧).**

وقال محمد بن إسحاق، حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: «**دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام**».

وقد روى عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ الآية. ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً

فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده فى النبى العربى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ.

ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ** ﴾. أي من يساعدنى فى الدعوة، إلى الله، ﴿ **قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** ﴾ وكان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى قال الله تعالى: ﴿ **فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ** ﴾ يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث إليهم رسلاً ثلاثة. أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورون فى سورة يس لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ الآية فكل من كان إليه أقرب كان غالبًا لمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به.

ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله، كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله.

ذكر خبر المائدة

قال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ **(المائدة: ١١٢ - ١١٥).**

قد ذكرنا فى التفسير الآثار الواردة فى نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسى وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف.

ومضمون ذلك: أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك

قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم. فوعظهم عيسى عليه السلام فى ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركه وسلامة. فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام وهى مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة ويقال: وخل، ويقال: ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جداً، قال الله كونى فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها. فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء المحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريباً من الألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء والمحاويج دون الأغنياء. فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم فى ذلك، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا فى ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير جميعاً، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة عن خلاس، عن عمار بن ياسر، عن النبى ﷺ قال: «**نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحما وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير**»[1].

ثم رواه ابن جرير عن بندار، عن ابن أبى عدى، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار موقوفاً. وهذا أصح. وكذا رواه من طريق سماك، عن رجل من بنى عجل، عن عمار موقوفاً. وهو الصواب والله أعلم.

وخلاس عن عمار منقطع، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً فى هذه القصة، فإن العلماء اختلفوا فى المائدة: هل نزلت أم لا؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت

---

(١) رواه الترمذي ١٢/٤ مرفوعًا.

عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم.

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري، أنهما قالا: لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً فى كتابهم، ومع أن خبرها مما تتوافر الدواعى على نقله. والله أعلم.

وقد تقصينا الكلام على ذلك فى التفسير فليطلب من هناك، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثَم (هناك) ولله الحمد والمنة.

فصل

قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا رجل سقط اسمه، حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو هلال بن محمد بن سليمان، عن بكر بن عبد الله المزنى قال: فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشى على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه، حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم: قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم: ألا أجيء إليك يا نبى الله؟ قال: بلى. قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه غرقت يا نبى الله. فقال: أرنى يدك يا قصير الإيمان، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء!.

ورواه أبو سعيد بن الأعرابى، عن إبراهيم بن أبى الجحيم، عن سليمان بن حرب عن أبى هلال عن بكر بنحوه.

ثم قال ابن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن سفيان، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، عن الفضيل بن عياض، قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسي بأى شيء تمشى على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا: فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت. قال: فامشوا إذاً. قال: فمشوا معه فى الموج فغرقوا فقال لهم عيسى: ما لكم؟ فقالوا: خفنا الموج قال: ألا خفتم رب الموج! قال: فأخرجهم. ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها. فإذا فى إحدى يديه ذهب وفى الأخرى مدر أو حصى فقال: أيهما أحلى فى قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب. قال: فإنهما عندى سواء!.

وقدمنا فى قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوى إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد. قال بعضهم: كان يلبس من غزل أمه، صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبى أنه قال: كان عيسى عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة صاح ويقول: لا ينبغى لابن مريم أن يذكر عنده الساعة ويسكت.

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى. «اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو؛ وأصبح الأمر بيد غيرى، وأصبحت مرتهنًا بعملى، فلا فقير أفقر منى! اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسوء بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تسلط علىَّ من لا يرحمنى».

قال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد، كان عيسى يقول لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالى من أكل الدنيا!

قال الفضيل: وكان عيسى يقول: فكرت فى الخلق فوجدت من لم يُخلق أغبط عندى ممن خلق!.

وقال إسحاق بن بشر، عن هشام بن حسان، عن الحسن، قال: إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة، قال: وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى.

قال: وبينما عيسى يومًا نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئًا من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا. قال: فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا!.

وقال معتمر بن سليمان: خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافيًا باكيًا شعثًا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال: السلام عليكم يا بنى إسرائيل، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتى؟ قالوا: أين بيتك يا روح الله؟ قال: بيتى المساجد وطيبى الماء، وإدامى الجوع، وسراجى القمر بالليل، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس، وريحانى بقول الأرض، ولباسى الصوف، وشعارى خوف رب العزة وجلسائى الزمنى والمساكين، أُصبح وليس لى شىء وأمسى وليس لى شىء وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغنى منى وأربح!. رواه ابن عساكر.

وروى فى ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبى الحسن العقيلى المصرى، حدثنا هانئ بن المتوكل الإسكندرانى، عن حيوة بن شريح، حدثنى الوليد ابن أبى الوليد، عن شفى بن ماتع، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: أوحى الله تعالى إلى عيسى: أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذى، فوعزتى وجلالى لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام.

وهذا حديث غريب رفعه، وقد يكون موقوفًا من رواية شفى بن ماتع، عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك: عن سفيان بن عيينة، عن خلف بن حوشب. قال: قال عيسى للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا.

وقال قتادة: قال عيسى عليه السلام: سلونى فإنى لين القلب وإنى صغير عند نفسى.

وقال إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: قال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين، بحق ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخره، وإن عباد الله ليسوا المتنعمين، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله. وروى نحوه عن أبى هريرة.

قال أبو مصعب عن مالك إنه بلغه أن عيسى كان يقول: يا بنى إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره.

وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى يقول اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة.

وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد: ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً.

وعن عيسى ﷺ: يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضيفًا، واتخذ المساجد بيتًا وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكير، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة.

وعنه عليه السلام أنه قال كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر دارًا فلا يتخذ الدنيا قرارًا. وفى هذا يقول سابق البربرى:

لكم بيوت بمستن السيوف وهل ... يُبنى على الماء بيت أسه مدر؟

وقال سفيان الثورى: قال عيسى ابن مريم: لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء.

وقال إبراهيم الحربى عن داود بن رشيد، عن أبى عبد الله الصوفى قال: قال عيسى: طالب الدنيا شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله.

وعن عيسى ﷺ: إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات.

وقال الأعمش عن خيثمة، كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول: هكذا فاصنعوا بالقرَى.

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبى لحِجْر حملك ولثدى أرضعك. فقال: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه.

وعنه: طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته.

وعنه: طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم.

وعن مالك بن دينار قال: مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها فقال: ما أبيض أسنانها. لينهاهم عن الغيبة.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن، عن زكريا بن عدى قال: قال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين ارضوا بِدَنِيِّ الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا. قال زكريا: وفى ذلك يقول الشاعر:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «لا تكثروا الحديث بغير ذكر فتقسوا قلوبكم فإن القلب القاسى بعيد عن الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل بلاء الله على العافية».

وقال الثورى: سمعت أبى يقول عن إبراهيم التيمى، قال: قال عيسى لأصحابه: بحق أقول لكم: من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير.

وقال مالك بن دينار قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم عن ابن الجعد قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذا الطير تغدو وتروح لا تحصد ولا تحرث والله يرزقها، فإن قلتم نحن أعظم بطونًا من الطير فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحوش والحمر فإنها تغدوا وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها. اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز.

وقال صفوان بن عمرو: عن شريح بن عبد الله، عن يزيد بن ميسرة، قال: قال الحواريون للمسيح: يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه. قال: آمين آمين بحق ما أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرًا قائمًا إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يصنع بالذهب ولا الفضة ولا بهذه الأحجار التى تعجبكم شيئًا إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه: أخبرنا أبو منصور بن محمد الصوفى، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية، قالت: حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر ابن عبد الله بن الهيثم إملاء، حدثنا الوليد بن أبان إملاء، حدثنا أحمد بن جعفر الرازى، حدثنا سهيل بن إبراهيم الحنظلى، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز، عن المعتمر، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة، فأعجبه البنيان فقال: أى رب مر هذه المدينة أن تجيبنى. فأوحى الله إلى المدينة: أيتها المدينة الخربة جاوبى عيسى. قال فنادت المدينة: عيسى حبيبى وما تريد منى؟ قال: وما

فعل أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك؟ قالت: حبيبى جاء وعد ربك الحق فيبست أشجارى ونشفت أنهارى وخربت قصورى ومات سكانى. قال: فأين أموالهم؟ فقالت: جمعوها من الحلال والحرام موضوعة فى بطنى، لله ميراث السموات والأرض. قال: فنادى عيسى عليه السلام: تعجبت من ثلاث أناس: طالب الدنيا والموت يطلبه، وبانى القصور والقبر منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه! ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع، تجمع لمن لا يحمدك وتقدم على رب لا يعذرك، إنما أنت عبد بطنك وشهوتك، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك وأنت يا بن آدم ترى حشد مالك فى ميزان غيرك. هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك.

وقال سفيان الثورى عن أبيه، عن إبراهيم التيمى، قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم فى السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه.

وقال ثور بن يزيد بن عبد العزيز بن ظبيان قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: من تعلم وعلم وعمل دعى عظيماً فى ملكوت السماء.

وقال أبو كريب: روى أن عيسى عليه السلام قال: لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ويعبر بك النادى.

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعًا أن عيسى قام فى بنى إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن رجل، عن عكرمة قال: قال عيسى: لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير!

وكذا حكى وهب وغيره عنه أنه قال لأصحابه: أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم، وإن فيكم خصلتين من الجهل: الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر.

وعنه أنه قيل له: من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير.

وعنه أنه قال: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم وقولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها.

وقال وهب: قال عيسى: يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه.

وقال مكحول: التقى يحيى وعيسى، فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له

يحيى: يا بن خالة ما لى أراك ضاحكًا كأنك قد أمنت؟! فقال له عيسى: ما لى أراك عابسًا كأنك قد يئست! فأوحى الله إليهما: إن أحبكما إلىَّ أبشكما بصاحبه.

وقال وهب بن منبه: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه فى أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله أن يوسع وسع.

وقال أبو عمر الضرير: بلغنى أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا.

والآثار فى مثل هذا كثيرة جدًّا. وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفًا صالحًا اقتصرنا منها على هذا القدر. والله الموفق للصواب.

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

فى حفظ الرب، وبيان كذب اليهود والنصارى فى دعوى الصَّلْب

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ **(آل عمران: ٥٤، ٥٥).**

وقال تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ **(النساء: ١٥٥ - ١٥٩).**

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان.

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق: كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه فحصروه فى دار بيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة[1] من ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا فاحشًا بعيدًا.

وأخبر تعالى بقوله: ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ** ﴾ أى بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب

---

(١) الكوة في سقف البيت غير النافذة.

ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء، كما أوردنا ذلك مستقصى فى كتاب الفتن والملاحم (النهاية) عند أخبار المسيح الدجال، فذكرنا ما ورد فى نزول المسيح المهدى عليه السلام من ذى الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعى إلى الضلال. وهذا ذكر ما ورد فى الآثار فى صفة رفعه إلى السماء.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان. حدثنا أبو معاوية، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين، يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمداً ﷺ.

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم، ورواه النسائى عن أبى كريب، عن أبى معاوية به نحوه، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبى معاوية. وهكذا ذكر غير واحد من السلف، وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار.

قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله، يعنى ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول فى دين الله قيل: وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً: بطرس ويعقوب بن زبدا ويحنس أخو يعقوب، وأندراوس، وفليبس، وابرثلما، ومتى، وتوماس ويعقوب بن حلقيا، وتداوس، وفتاتيا، ويودس كريايوطا، وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى.

قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه. قال: وبعض النصارى يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو يودس بن كريايوطا والله أعلم.

وقال الضحاك عن ابن عباس: استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس الذى ألقى عليه الشبه.

وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم، قال: سمعت الفراء يقول في قوله: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ قال: إن عيسى غاب عن خالته زمانًا فأتاها، فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى، ثم خرج إلى أصحابه فقال لم أره. ومعه سيف مسلول. فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه، فقال جل ذكره: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمى، عن هارون بن عنترة، عن وهب بن منبه، قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعًا. فقال عيسى لأصحابه. من يشترى منكم اليوم نفسه بالجنة فقال رجل: أنا. فخرج إليهم فقال: أنا عيسى. وقد صوره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

قال ابن جرير[1]**:** وحدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنى عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهبًا يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعامًا فقال: أحضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال: من رد علىَّ شيئًا الليلة مما أصنع فليس منى ولا أنا منه. فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى فليكن لكم بى أسوة، فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه، كما بذلت نفسى لكم، وأما حاجتى التى استعنتكم عليها فتدعون الله لى وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى.

فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها؟ فقالوا: والله ما ندرى، ما لنا، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرًا، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال: يذهب بالراعى وتتفرق الغنم! وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى به نفسه.

ثم قال: الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى.

(1) ابن جرير الطبرى فى تاريخه.

فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه. فجحد وقال: ما أنا بصاحبه. فتركوه. ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه.

فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه، وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون: أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟! ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبهه لهم فمكث سبعاً.

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهم عيسى فقال: علام تبكيان؟ قالتا عليك. فقال: إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبه لهم. فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا. فلاقاه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيى فقال: هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم.

وهذا إسناد غريب عجيب، وهو أصح مما ذكره النصارى لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فأراها مكان المسامير من جسده، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب.

وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى الدليل.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب، فيما بلغه، أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام، وهي تحسب أنه ابنها، أن ينزل جسده، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك، فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ قالت: وممن أستتر؟ فقالت من هذا الرجل الذي هو عند القبر. فقالت أم يحيى: إني لا أرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل، وعرفته: يا مريم أين تريدين؟! فقالت: أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به. فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا. ولكن هذا الفتى الذي ألقي شبهه عليه وصلب وقتل مكانه، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح.

قال: وصعد جبريل فرجعت إلى أختها فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال يا أمه إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبرى واذكرى الله كثيراً. ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت.

قال: وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة. رضى الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصرى: كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة. وفى الحديث: «**إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين**». وفى الحديث الآخر: «**على ميلاد عيسى وحسن يوسف**». وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

فأما الحديث الذى رواه الحاكم فى مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوى فى تاريخه، عن سعيد بن أبى مريم، عن نافع بن يزيد، عن عمارة بن غزية، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول: أخبرتنى فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبى كان بعده نبى إلا عاش الذى بعده نصف عمر الذى كان قبله، وأنه أخبرنى أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أرانى إلا ذاهب على رأس ستين. هذا لفظ الفسوى. فهو حديث غريب.

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر، وإنما أراد به مدة مقامه فى أمته، كما روى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة، قال قالت فاطمة: قال لى رسول الله ﷺ: إن عيسى ابن مريم مكث فى بنى إسرائيل أربعين سنة وهذا منقطع.

وقال جرير والثورى عن الأعمش، عن إبراهيم: مكث عيسى فى قومه أربعين عاماً.

ويروى عن أمير المؤمنين على أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان وتلك الليلة فى مثلها توفى على بعد طعنه بخمسة أيام.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رُفع وهى تنظر وألقى إليها عيسى برداء له وقال: هذا علامة ما بينى وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها، وكانت تحبه حباً شديداً، لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين إذ لا أب له، وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً وكانت كما قال بعض الشعراء:

وكنت أرى كالموت من بَيْن[1] ساعة — فكيف ببين كان موعده الحشر

(١) أى فراق.

وذكر إسحاق بن بشر، عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك، تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق فى ذلك الزمان، فقيل له إن اليهود تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب، فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم فبعث فجىء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه، فبايعهم فى دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجىء بالجذع الذى صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثم عظمت النصارى الصليب، ومن ها هنا دخل دين النصرانية فى الروم.

وفى هذا نظر من وجوه:

أحدها: أن يحيى بن زكريا نبى لا يقر على أن المصلوب عيسى، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق.

الثانى: أن الروم لم يدخلوا فى دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة، وذلك فى زمان قسطنطين بن قسطن بانى المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره.

الثالث: أن اليهود – صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحًا للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات، فلم يزل كذلك حتى كان فى زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التى صُلب عليها المصلوب، فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة إلا عوفى. فالله أعلم أكان هذا أم لا، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل بذل نفسه كان رجلاً صالحًا أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى فى ذلك اليوم، حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ، من هذا اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبنى مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة، فهى هذه المشهورة اليوم ببلدة بيت المقدس التى يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها، ويسمونها القيامة يعنون التى يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التى هى قبلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء به وهو المسجد الأقصى.

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾.

قيل سمى المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان، لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام. وقيل لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴾ وفيه هدى ونور وقال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة جداً.

وقد تقدم ما ثبت فى الصحيحين: «**ما من مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد فيستهل صارخًا إلا مريم وابنها، ذهب يطعن فطعن فى الحجاب**» وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**». رواه البخارى وهذا لفظه، ومسلم (البخارى ٣٤٣٥).

وروى البخارى ومسلم من حديث الشعبى، عن أبى بردة بن أبى موسى، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بى فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران**». هذا لفظ البخارى (ح ٣٠١١).

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام، عن معمر (ح)[1] وحدثنى محمود حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهرى، أخبرنى سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «**ليلة أسرى بى لقيت موسى. قال: فنعته فإذا رجل حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة. قال ولقيت عيسى فنعته النبى ﷺ فقال: ربعة أحمر وكأنما خرج من ديماس، يعنى الحمام، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به**» الحديث. وقد تقدم فى قصتى إبراهيم وموسى.

ثم قال: حدثنا محمد بن كثير، أنبأنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: قال النبى ﷺ: «**رأيت عيسى وموسى وإبراهيم. فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر. أما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط**». تفرد به البخارى (ح ٣٤٣٨).

وحدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا أبو ضمرة، حدثنا موسى بن عقبة، عن نافع، قال: قال عبد الله بن عمر: ذكر النبى ﷺ يوماً بين ظهرانى الناس المسيح الدجال

(١) علامة على تحول السند إلى سند آخر.

فقال: إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية، وأرانى الليلة عند الكعبة فى المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعًا يديه على منكبى رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا؟ فقالوا: المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلاً وراءه جعدًا قططًا أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن. واضعًا يده على منكبى رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا؟ فقالوا: هذا المسيح الدجال.

ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة. ثم قال البخارى: تابعه عبد الله بن نافع ثم ساقه من طريق الزهرى عن سالم بن عمر قال الزهرى: وابن قطن رجل من خزاعة هلك فى الجاهلية.

فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين: مسيح الهدى ومسيح الضلال، ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون.

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذى لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيسى**» **(البخاري ٣٣٤٤)** وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق.

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد الطويل، عن الحسن وغيره، عن أبى هريرة قال: ولا أعلمه إلا عن النبى ﷺ قال: «**رأى عيسى رجلاً يسرق فقال: يا فلان أسرقت؟ فقال: لا والله ما سرقت. فقال: آمنت بالله وكذبت بصرى**».

وهذا يدل على سجية طاهرة، حيث قدم حلف ذلك الرجل فظن أن أحدًا لا يحلف بعظمة الله كاذبًا على ما شهده منه عيانًا، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنت بالله. أى صدقتك وكذبت بصرى لأجل حلفك.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تحشرون حفاة عراة غرلاً**» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فأول الخلق يُكسى إبراهيم، ثم يؤخذ برجال من أصحابى ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابى فيقال إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: ﴿**وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهمم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد* إن تعذبهم فإنهم عبادك، وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾. تفرد به دون مسلم من هذا الوجه.

---

(١) البخارى (٣٤٤٧).

وقال أيضاً: حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى، حدثنا سفيان، سمعت الزهرى يقول: أخبرنى عبد الله بن عبد الله، عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله رسوله**» **(البخاري ٣٤٤٥).**

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم حدثنا جرير بن حازم، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج يصلى إذ جاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلى؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج فى صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها ممن؟ فقالت: من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعى. قالوا: أنبنى صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابناً لها فى بنى إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابنى مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلنى مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه. قال أبو هريرة: كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يمص إصبعه، ثم مرت بأمة فقالت: اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه. فترك ثديها فقال: اللهم اجعلنى مثلها. فقالت: لم ذلك فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت. ولم تفعل**» **(ح ٣٤٣٦).**

وقال البخارى: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى أبو سلمة، أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى**». تفرد به البخارى من هذا الوجه **(٣٤٤٣).**

ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى داود الحفرى، عن الثورى عن أبى الزناد، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة.

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان هو الثورى، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء أخوة أولاد علات**[1]**، وليس بينى وبين عيسى نبى**».

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه: وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه، وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه.

قال أحمد: حدثنا يحيى، عن أبى عروبة، حدثنا قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**الأنبياء إخوة لعلات**» ودينهم واحد وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، وإنه

(١) أولاد العلات من أبوهم واحد وأمهاتهم متعددات.

نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين مخصرتين، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى تهلك فى زمانه كلها غير الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعًا والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضًا فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه.

ثم رواه أحمد عن عفان، عن همام، عن قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبى هريرة فذكر نحوه. وقال: فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد، عن همام بن يحيى به نحوه.

وروى هشام بن عروة، عن صالح مولى أبى هريرة عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**فيمكث فى الأرض أربعين سنة**» وقد بينا نزوله عليه السلام فى آخر الزمان فى كتاب الملاحم. كما بسطنا ذلك أيضًا فى التفسير عند قوله تعالى فى سورة النساء:

﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ **(النساء: ١٥٩).**

وقوله: ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ** ﴾ الآية وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصل. فيقول: لا بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة. وفى رواية فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك. فيصلى خلفه. ثم يركب ومعه المسلمون فى طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة.

وذكرنا أنه قوى الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التى هى من حجارة بيض، وقد بنيت أيضًا من أموال النصارى حين حرقوا التى هدمت وما حولها فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وأنه يخرج من فج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو لثنتيهما، ويقيم أربعين سنة، ثم يموت فيدفن فيما قيل فى الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه[1].

وقد ورد فى ذلك حديث ذكره ابن عساكر فى آخر ترجمة المسيح عليه السلام فى كتابه عن عائشة مرفوعًا، أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر فى الحجرة النبوية ولكن لا يصح إسناده.

وقال أبو عيسى الترمذى، حدثنا زيد بن أخزم الطائى، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة. حدثنى أبو مودود المدنى، حدثنى عثمان بن الضحاك، عن محمد بن يوسف

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده رقم (٧٢٧١).

ابن عبد الله بن سلام، عن أبيه، عن جده، قال: مكتوب في التوراة: صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهم السلام يدفن معه. قال أبو مودود: وقد بقي من البيت موضع قبر.

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن. كذا قال. والصواب: الضحاك بن عثمان المدني.

وقال البخاري: هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه.

وروى البخاري عن يحيى بن حماد، عن أبي عوانة، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان، قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وعن قتادة خمسمائة وستون سنة، وقيل خمسمائة وأربعون سنة وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. والمشهور ستمائة سنة. منهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية، لتكون ستمائة بالشمسية. والله أعلم.

وقال ابن حبان في صحيحه: «ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه»: حدثنا أبو يعلى، حدثنا أبو همام، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الهيثم بن حميد، عن الوضين بن عطاء، عن نصر بن علقمة، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته ودينه مائتي سنة**». وهذا حديث غريب جداً، وإن صححه ابن حبان.

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق، أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع أوصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم.

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا ومتى ومرقس ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير ونقص بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا.

وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا كان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولما جاء به. وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتى مات رحمه الله.

ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج لقتله، فتلقاه عند كوكبا، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع، وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره، فقال اذهب إلى

ضينا عندك بدمشق فى طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسته باسمه فهى كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضى الله عنهم حتى خربت[1].

فصــــل

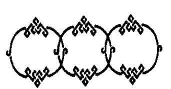
اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله: ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾**(الصف ١٤).**

قال ابن عباس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء وقال آخرون: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله.

فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم، كما قال: ﴿ **فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾**(مريم ٣٧).**

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل.

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى إذ اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقاساوسة والشمامسة والرهبان فى المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واحتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية وهم المجمع الأول، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، فسموا الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أريوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البرارى والبوادى وبنو الصوامع والديارات والقلايات، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملك والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة، وعمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجَدْى[2].



(١) ويقولون إن بولس هذا اليهودى إنما آمن بالمسيحية ليسىء إليها وأنه هو الذى بدل دين المسيح.
(٢) ناحية برج الجدى.

بيـــان بناء بيـــت لحـــم والقمامـــة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القمامة يعنى على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح.

وقد كفر هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام. ومنها مخالف للعتيقة التى هى التوراة، وأحلوا أشياء هى حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حول إلى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل.

وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التى يسمونها بالأمانة، وهى فى الحقيقة أكبر الكفر والخيانة.

وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثانى، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعى أصحاب المجمع الثالث، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون فى تفسيرها.

وها أنا ذا أحكيها وحاكى الكفر ليس بكافر لأبث، على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخيال المفضى بصاحبه إلى النار ذات الشواظ فيقولون:

«نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يُرى وكل ما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور ونور من نور إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساوٍ للأب فى الجوهر الذى كان به كل شىء من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمين الأب، وأيضاً فسيأتى بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه، وروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب مع الأب، والابن مسجود له وبمجد الناطق فى الأنبياء كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حى قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين».

(أستغفر الله العظيم)

انتهى الكتاب المبارك

بعون الله

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم

والحمد لله رب العالمين

الفهرسة

الموضوع	الصفحة
تقديم	5
باب ما ورد فى خلق آدم عليه السلام	18
ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام	36
ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام	42
ذكر قصة ابنى آدم: قابيل وهابيل	52
ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام	58
ذكر إدريس عليه السلام	61
قصة نوح عليه السلام	63
ذكر شىء من أخبار نوح نفسه عليه السلام	86
ذكر صومه عليه السلام	86
ذكر حجه عليه السلام	86
قصة هود عليه السلام	89
قصة صالح عليه السلام - نبى ثمود	103
ذكر مرور النبى ﷺ بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك	113
قصة إبراهيم الخليل عليه السلام	115
ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل	125
ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره بالأرض المقدسة	127
ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر	132
ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهى أرض مكة وبنائه البيت العتيق	134
قصة الذبيح	137
ذكر مولد إسحاق عليه السلام	142
ذكر بنائه البيت العتيق	145
ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم	149
ذكر قصره فى الجنة	157
ذكر صفة إبراهيم عليه السلام	158
ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل فى عمره	158
ذكر أولاد إبراهيم الخليل	161
قصة لوط عليه السلام	162
قصة مدين قوم شعيب عليه السلام	172
باب ذكر ذرية إبراهيم عليه الصلاة والتسليم	182
ذكر إسماعيل عليه السلام	182
ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصلاة والتسليم	185
ذكر ما وقع من الأمور العجيبة فى حياة إسرائيل فمن ذلك: قصة يوسف ابن راحيل	190
قصة أيوب عليه السلام	221
قصة ذى الكفل الذى زعم قوم أنه ابن أيوب	227
باب ذكر أمم أهلكوا بعامة	230
قصة يونس عليه السلام	236
ذكر فضل يونس عليه السلام	242
ذكر قصة موسى الكليم	243
فصل	371

ذكر هلاك فرعون وجنوده 283
فصل فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون 290
فصل فى دخول بنى إسرائيل التيه 298
سؤال الرؤية 302
قصة عبادتهم العجل فى غيبة كليم الله عنهم 306
قصة بقرة بنى إسرائيل 316
قصة موسى والخضر عليهما السلام 318
ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون 324
ذكر بناء قبة الزمان 333
قصة قارون مع موسى عليه السلام 335
باب ذكر فضائل موسى عليه السلام 339
ذكر حجه عليه السلام إلى البيت العتيق 344
ذكر وفاته عليه السلام 345
ذكر نبوة يوشع 345
ذكر قصتى الخضر وإلياس عليهما السلام 357
وأما إلياس عليه السلام 371
باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام 374
قصة حزقيل 374
قصة إليسع عليه السلام 376
فصل قصة شمويل عليه السلام 377
قصة داود عليه السلام 382
ذكر كمية حياته وكيفية وفاته 391
قصة سليمان بن داود عليهما السلام 393
باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب 406
ذكر خراب بيت المقدس 410
ذكر شىء من خبر دانيال عليه السلام 416
وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها 419
وهذه قصة العزير 420
فصل 422
قصة زكريا ويحيى عليهما السلام 424
بيان سبب قتل يحيى عليه السلام 432
قصة عيسى ابن مريم 434
ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول 442
باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد 450
ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام 456
بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها 459
ذكر خبر المائدة 467
فصل ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء 469
ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله 480
فصل 485
بيان بناء بيت لحم والقمامة 486
الفهرسة 487